إيلان هاليفي

رهاب الإسلام ورهاب اليهودية
الصورة في المرآة

ترجمة: سناء الصاروط



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

رهاب الإسلام ورهاب اليهودية

الصورة في المرآة

هذه السلسلة

في سـياق الرسـالة الفكرية التي يضطلع بهـا «المركز العربي للأبحاث ودراسـة السياسـات»، وفي إطار نشاطه العلمـي والبحثـي، تُعنى «سلسـلة ترجمان» بتعريف قادة الـرأي والنخب التربويـة والسياسـية والاقتصادية العربية إلى الإنتـاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، مـن طريق الترجمـة الأمينة الموثوقـة المأذونة، للأعمال والمؤلفـات الأجنبيـة الجديدة أو ذات القيمـة المتجددة في مجالات الدراسـات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتسـتأنس «سلسـلة ترجمان» وتسترشـد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمـال الجديرة بالترجمة، ومناقشـة الإشـكالات التي يواجهها الدارسـون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسـعى هذه السلسـلة، من خلال الترجمـة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المسـاهمة في تعزيز برامج «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» الرامية إلى إذكاء روح البحث والاسـتقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

رهاب الإسلام ورهاب اليهودية

الصورة في المرآة

إيلان هاليفي

مقدمة

ألان غريش

ترجمة

سناء الصاروط



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
هاليفي، إيلان
رهاب الإسلام ورهاب اليهودية: الصورة في المرآة/ إيلان هاليفي؛ مقدمة ألان غريش؛ ترجمة سناء الصاروط.
255 ص.؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)
يشتمل على ببليوغرافية (ص. 225-226) وفهرس عام.
ISBN 978-614-445-146-5
1. الإرهاب - الجوانب الدينية - الإسلام. 2. الإرهاب - الجوانب الدينية - اليهودية. 3. العنصرية. 4. القضية الفلسطينية. 5.الحركات الإسلامية. 6. الإسلام والغرب. 7. التطرف الديني. أ. غريش، ألان. ب. الصاروط، سناء. ج. العنوان. د. السلسلة.
363.325

العنوان بالإنكليزية
Islamophobie et Judéophobie: L'Effet Miroir
Ilan Halevi

عن دار النشر
Éditions Syllepse, 2015

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 00961 1991839
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى
بيروت، تموز/ يوليو 2017

المحتويات

توطئـة

رقصة الأقنعة

مريم أ.[1]

دهشة دائمة محيِّرة.
ابتسامة جذابة ونظرة فاتنة.
عذوبة الحياة وقوة النضال[2].

كثيرًا ما وُصف بأنه «مثقف ملتزم»؛ هذا العصامي الذي كان قبل كل شيء مغرمًا بالحياة، بالموسيقى، بالرقص. ويمكننا القول إن هذه الرغبة المجنونة في الحياة هي التي دفعته، بطريقة ما، إلى الالتزام السياسي، باعتباره ضرورة ملحّة للصمود في الحياة اليومية.

مهما كانت سيرة المعيش فرديًا، ومهما كانت درجة التحضير الأدبي، فإن القصة الخيالية تتيح إمكان التعميم ومن ثم نقل التجارب المتعددة والجماعية والمشاركة فيها. هكذا، يكون كتابه *Allers-retours* **(ذهابات وإيابات)** أكثر كتبه ذاتيةً ولا نمطيةً، حيث يمزج بين تعاطف السيرة الذاتية والخيال الروائي وعقلنة النظرية. وهو يشير في مدخل هذا الكتاب إلى أن نعيم هاكوهين «صنو محتمل تمامًا للكاتب [...] ويُعرِّف عن نفسه، لكن بانزعاج، حين يُحشر في الزاوية،

---

(1) هي ابنة الكاتب إيلان هاليفي (المحرر).
(2) تصف مريم هنا والدها (المحرر).

بأنه «يهودي فلسطيني»، وكان لا يحب التصنيفات القائمة على الهوية، فحاول دومًا خلط الأوراق، وجعْل سيرته الذاتية رواية. لكن، حتى قبل ولادته، وإلى أن جاء إلى العالم، كانت السمة الروائية لحياته قد رُسمت؛ فأبوه كان بلا جنسية، وأصبح فرنسيًا بفضل الجبهة الشعبية الفرنسية في عام 1936، وأمه التي ولدت في اسطنبول صارت فرنسية بعد الزواج. أما هو، جورج ألان، فأبصر النور في المدينة الفرنسية ليون إبان احتلال ألمانيا النازية لفرنسا، أي في عام 1943، وكانت ولادته في مركز كان يُستعمل مخبأً لأسلحة المقاومة الفرنسية. وروت أمه أن الطفل لم يصرخ حين ولادته، وكأنه كان يعلم بأن عليه ألا يكشف المخبأ، لكنها ما لبثت أن غادرت المكان محتضنة صغيرها، بيد أن ساعي البريد أوجان دوني وابنه هنري [اللذين كانا يؤويان العائلة اليهودية]، وكانا عضوين في شبكة المقاومة Combat، أُبلغ عنهما ومن ثمّ أعدمهما الألمان في صيف 1944. وهناك شارع في ليون يحمل اسميهما: (La Rue Denis père et fils).

لما كان والدا جورج ألان المقاومان مطلوبين من الشرطة النازية، حمل الابن اسمًا مستعارًا واستمر في تغييره حتى زواج أمه الثاني من رجل فرنسي تبنّاه وأطلق عيه اسمًا فرنسيًا: جورج ألان لوفان، ثم تبدل الاسم إلى جورج ألان ألبير، فإلى إيلان هاليفي في نهاية الستينيات. وتحت الاسم الأخير عرفه جميع المهتمين بالصراع الإسرائيلي - الفلسطيني. لكن هذا الاسم لم يكن له من قيمة إلا تلك التي نخصه بها، ولم يكن بأي شكل مكوِّنًا لهويته، وهي الصفة الثابتة والفريدة لوجوده؛ فلأننا لا نرث هويتنا، وإنما نكوِّنها من خلال أفعالنا انطلاقًا من المعطيات الجينية والاجتماعية، فإن الهوية تكون إذًا متعددة بالضرورة. وكما لو أن أحوال ولادته كانت قد تنبأت بطريقة محددة بخياراته في الحياة، حيث ما عاد لديه خيار سوى إحباط مكائد الانتماءات، فإنه لم يعِ قط كونه يهوديًا إلا حين أشار إليه الآخرون بأنه كذلك. وتحت الاحتلال الألماني، لم يختبئ والداه طلبًا للنجاة من حملات الشرطة (النازية)[3] بل لأنهما كانا مقاومَين. وهو يقول بلسان نعيم - أي بديله - كما لو أنه يعترف: «استغرق أعوامًا ليفهم أنهما كانا، في أثناء الحرب، مهدَّدين بوصفهما مناضلَين، لكن أيضًا لأنهما يهوديان»، ويضيف أن «السؤال العبثي والمبهم سوف

(3) أي بوصفهما يهوديين. (المترجمة)

يرافقه مدة طويلة: هل كانا سينضمان إلى المقاومة لو لم يكونا يهوديين، لو لم يُجبرا، بجميع الأحوال، على التخفي وعلى الاختيار ما بين الموت وعدم الشرعية؟».

كان هاليفي الطفل أسمر الوجه، ذا شعر أجعد وأسود، لذا كان يتعرض لممارسات عنصرية في سان جنفياف لِس غاسني، في منطقة الأور (l'Eure)، ثم في باريس. جورج ألان ألبير كان له اسم فرنسي، لكن رأسه كان من مكان آخر[4]. وكان يُوصف بـ «bougnoule»[5] و«moricaud»[6]، ويُعامَل كغريب. من هنا رسم رفض الأحكام المسبقة، معالم هويته؛ فمن دون أن يعتمد أي انتماء، كان لا يشعر بأنه فرنسي: «هذا لا يعني أنني كنت أشعر بأنني شيء آخر، كان هناك عدم تعريفٍ أساسٍ للهوية» كما كان يقول. وكان يجد صعوبة في الإجابة حين يُسأل عن أصوله، وكان يدعي الغيرية: «هذا التماثل الذي كان يتطلب اللاتعريف بالهوية بدأ باكرًا جدًا، بدأ منذ أفريقيا».

في المدرسة، كان هناك الفرنسيون والآخرون... وكان هو مع هؤلاء (الآخرين). وفي ثانوية جاك دوكور، كان هناك نوعان من اليهود: «أولئك الذين كانوا يشعرون بأنهم يهود ويجعلون من ذلك قضية مهمة، سواء أكانوا أشكنازًا أم سفارديين، وكانوا ينتمون إلى الكشافة الإسرائيلية في فرنسا وإلى حركات الشبيبة اليهودية المختلفة». وهنا أيضًا، كان الآخرون مثله ومثل صديقه جان - لو أمسيل، «جزءًا من مجموعة الغرباء، العرب، الأفارقة، وسكان جزر الهند الغربية...». ولم يكن لهؤلاء المراهقين جماعة خاصة بهم يُدافعون عنها، لذا كانوا منجذبين إلى كل من ينادي بوحدة العالم الثالث، أي إلى المطالبة بهوية للشعوب المضطهَدة، لضحايا الغرب، وكانت النازية هي الدافع النهائي. وفي ما يتعلق بذلك، كانت قراءة كتاب **خطاب عن الاستعمار** لإيمي سيزير[7] اكتشافًا لهم؛ فهذا الشاعر من المارتينيك كان يضع الكلمات على ما

---

(4) المقصود شكله بحسب القول الفرنسي «رأس أسود أو رأس عربي». (المراجع)

(5) كلمة فرنسية تُطلق على العرب تحقيرًا وممارسةً عنصرية ضدهم. (المترجمة)

(6) كلمة فرنسية تُطلق على ذوي البشرة الملونة، وهي عنصرية أيضًا. (المترجمة)

(7) إيمي سيزير (Aimé Césaire): شاعر وكاتب وسياسي فرنسي من المارتينيك (1913-2008). يُعتبر أحد أبرز وجوه تيار «الزنجية» في الشعر الفرانكوفوني، ورمزًا للحركة المناهضة للاستعمار. في عام 1934، أنشأ مع سنغور وعدد من الأصدقاء الأفارقة صحيفة *L'Étudiant noir* (**الطالب الأسود**)، فظهر مصطلح الزنجية (négritude) أول مرة. وكانت حركة الزنجية تهدف إلى تغيير صورة الرجل الأسود =

كانوا يفكرون فيه بشكل غير واضح: اكتشفتْ أوروبا، مع هتلر، على أرضها جرائم لم يكن ضحاياها، حتى ذلك الحين، إلا الشعوب غير الأوروبية.

بعد الحرب وأعوام النضال ضد القمع النازي، التحقت حركات التحرر من الاستعمار بحركات النضال ضد الفاشية. وهكذا ارتبطت المسألة اليهودية ومسألة السود معًا بطريقة التفكير في التمييز العنصري والأفكار العنصرية المسبقة والجرائم الاستعمارية. ويذكر أمسيل[8] تلك الحقبة «الموضوعة تحت رمز مجرّة فانون - سارتر»، ويشهد على نوع من الانزعاج في فرنسا ما بعد الحرب دفع بهما إلى النضال مع العالم الثالث: «كنا مولعين في تلك الفترة **بالمسلمين السود** (Black Muslims) وبشخصية مالكولم إكس المدهشة[9]. وشكّل هذا الالتقاء بين الجاز وحركة تحرر السود الأميركيين فعليًا الراية لجيلنا، وأعطانا كذلك مبدأ وقاعدة لتَشارك ممكن في المعاناة، ولتَماثل ممكن لواحدنا مع الآخر»[10].

= المتواني وغير القادر على الأخذ بزمام أموره بنفسه وبناء مستقبله. انضم إيمي سيزير إلى الحزب الشيوعي وأصبح نائبًا برلمانيًا وعمدة لمدينة فور دو فرانس في عام 1945. وبعد اثني عشر عامًا خدمة، ترك الحزبَ الشيوعي لينشئ حزبه الخاص باسم حزب التقدم المارتينيكي. وكان من أهم مشروعاته محاربة الاستعمار والعنصرية. وكان من أبرز المطالبين بالحكم الذاتي للمارتينيك وليس باستقلالها، كما أنه ساند الحركات الاستقلالية في دول المغرب العربي والهند والهند الصينية. أشهر مؤلفاته: **مذكرات العودة إلى الوطن الأم** *Cahier d'un retour au pays natal*، **الأسلحة العجيبة** *Les Armes miraculeuses*، ومسرحية *La Tragédie du roi Christophe* (**تراجيديا الملك كريستوف**) (عن الاستعمار) و Une saison au Congo (**موسم في الكونغو**) (عن باتريس لومومبا). (المحرر)

(8) جان لو أمسيل (Jean-Loup Amselle) (مرسيليا، 1942-): عالِم أنثروبولوجيا وإثنولوجيا فرنسي، مدير الدراسات المميز في المدرسة الفرنسية للدراسات العليا في العلوم الاجتماعية (EHESS)، ورئيس تحرير سابق لـ *Cahiers d'études africaines* (**مجلة الدراسات الأفريقية**). (المحرر)

(9) مالكوم إكس (1925-1965)، واسمه عند مولده مالكوم ليتل، ويُعرف أيضًا باسم الحاج مالك الشباز. هو داعية إسلامي ومدافع عن حقوق الإنسان الأميركي من أصل أفريقي (أفريقي أميركي). سُجن في عام 1946 بتهمة السطو والسرقة. في السجن، انضم إلى حركة أمة الإسلام، وعندما أُطلق سراحه في عام 1952 ذاع صيته واشتهر بسرعة، حتى صار واحدًا من قادة الحركة. صار بعد عقد من الزمان تقريبًا، المتحدث الإعلامي باسم الحركة. لكن بسبب وقوع خلاف بينه وبين رئيس الحركة إلايجا محمد، ترك الحركة في آذار/ مارس 1964. وسافر بعد ذلك في رحلة إلى أفريقيا والشرق الأوسط، أدى خلالها مناسك الحج، ثم عاد إلى الولايات المتحدة الأميركية، فأنشأ المسجد الإسلامي ومنظمة الوحدة الأفريقية الأميركية. وفي شباط/ فبراير 1965، أي بعد أقل من عام واحد من تركه حركة أمة الإسلام، اغتاله ثلاثة من أعضاء الحركة. (المحرر)

(10) Nicole Lapierre, *Causes communes: Des Juifs et des Noirs*, un ordre d'idées (Paris: Stock, 2011).

تجاوز ألان الشاب من خلال الموسيقى والشعر أغلال الهويات، وانطلق نحو العالم. وكان في كثير من الأحيان يعزف على آلات الإيقاع في أندية الجاز الباريسية، خصوصًا في نادي Chat qui pêche («القط الصياد») الذي كانت تديره امرأة من المقاومين القدامى، وكانت تسمح له بالدخول إلى هذا المكان في الحي اللاتيني، على الرغم من أنه كان لا يزال قاصرًا، ليستمع إلى عزف كبار موسيقيي الجاز الأفرو - أميركي (بود بأول، إريك دولفي، جاكي ماك لين...). وكان يكتب كثيرًا، ولم يكن يتجاوز الستة عشر عامًا من العمر حين أرسل بالبريد قصيدة من أربعين صفحة إلى جان كايرول الذي كان ينشر حينها في منشورات سوي (Seuil)، وفي مجلة *Ecrire*، نصوصًا لكتّاب مبتدئين. ولم يصدق الناشر أن ألان هو الكاتب، لذلك طلب منه الحضور إلى مكتبه في شارع جاكوب، قبل أن ينشر له نصه «بيان بالمواعيد» في العدد الثامن من المجلة (عام 1960)، مع إشارة مقتضبة إلى حياته: «ألان ألبير، ولد في 12 تشرين الأول/ أكتوبر 1943 في ليون، وهو يحضّر البكالوريا» - التي لم ينجح فيها قط... ويشرح ألان لنا أن هذه القصيدة كانت قد كُتبت كـ 'تأويل' للجاز؛ إذ كان هناك شغل على الإيقاع وكان أحد الأجزاء يعيد تناول علم العروض وتركيب الجمل لمقطوعة لمايلز ديفيس». وبين الأدب والالتزام، كان يكتب مقالات وقصائد عدة. نُشر له مقالان متعلقان بشروط حياة الأفارقة - الأميركيين بعنوان «Study in Brown» («دراسة باللون الغامق») في مجلة *Les Temps modernes* (**الأزمنة الحديثة**)، وكتب كذلك في مجلة *Présence africaine* (**الحضور الأفريقي**)، ثم أصبح بعد ذلك سكرتيرًا للتحرير في خلال عام واحد تقريبًا (1964-1965).

كان ذلك عالمًا آخاذًا، جياشًا، حيث كانت اللقاءات كلها ممكنة. هكذا، تعرّف هناك إلى ملفين فان بيبل وجيمس بالدوين، وإلدريج وكاتلين كليفر. وفي مطعم Hayne's في الدائرة التاسعة من باريس، وكان صاحبه الأسود الملاكم سابقًا يقدّم ما يسمّى Soul food (أي طعام السود) [...]، كان ألان واحدًا من القلائل الذين التقى بهم مالكولم إكس، في طريق عودته من مكة في نيسان/ أبريل 1964. وتعرَّف كذلك إلى تشستر هايمز وإلين رايت، أرملة الكاتب ريتشارد رايت (Richard Wright)، الذي توفي في عام 1960، وكان يطمح إلى تأليف كتاب عنه.

تعلّم ألان ألبير الإنكيزية مع موسيقيي الجاز الذين مرّوا بمدينة باريس. وهكذا، ومن دون أن يطأ الأرض الأميركية، كتب بلهجة الـ Jive (وهي لهجة السود

في جنوب الولايات المتحدة وفي الغيتوات) رواية *The Crossing* **(العبور)**[11] التي يصف فيها الرحلة الخانقة من العدم إلى الجحيم لرجل أسود بائس ومحروم، ويلقي على حالة الاستلاب ضوءًا يفوق ما يلقيه على حالة العنصرية، الأمر الذي دفع الناشرَ الأميركي إلى الحضور إلى باريس خصيصًا كي يتأكد من أن الكاتب فرنسي شاب؛ إذ ساوره حينئذٍ شك، ظنًّا منه أن إلين رايت هي التي أرسلت له، تحت اسم آخر ربما، مخطوطة لزوجها كان قد كتبها في شبابه. أعيد نشر الرواية في لندن في عام 1965، وترجمها ألان بنفسه إلى الفرنسية تحت اسم جورج لوفان، وهي موجودة حاليًا ضمن مجموعة أدب السود في المكتبة العامة في هارلم[12].

سياسيًا، حاول ألان التقرب أولًا من مالكوم إكس ومن حركة **الفهود السود** قبل أن يهتم - عن قرب - بنضالات الاستقلال لدى الدول الأفريقية. هنا، أيضًا، مدت له إلين رايت يد العون، فذهبت شخصيًا إلى جان بول سارتر وسيمون دو بوفوار - اللذين كانا يساندان الكتّاب الأفرو - أميركيين بشكل كامل وعلى الصعيدين الفكري والإنساني - وطلبت منهما دفع ثمن بطاقة سفره إلى أفريقيا، فاستجابا لها من دون تردد. وعند وصوله إلى مالي التي كانت لا تزال اشتراكية بعد افتراقها عن الفدرالية (مع السنغال) نتيجة اختلاف بين ليوبولد سيدار سنغور[13] وموديبو كيتا[14]، جعل ألان نفسه قريبًا من المعارضة السنغالية، خصوصًا دودو غويي. وتعرّف حينها كذلك إلى رجلَي الاقتصاد سمير أمين وإيلي لوبل اللذين كانا مستشارين للرئيس كيتا. وكان له برنامج ثقافي في شأن هجرة السود في القارة الأميركية، يبث على موجات إذاعة مالي (الإذاعة الوطنية)، حيث كان يتحدث عن كتّابٍ وموسيقيين، وعن تاريخ تجارة العبيد والأفرو - أميركيين أيضًا. وهناك،

(11) Alain Albert, *The Crossing* (New York: G. Braziller, 1964).

(12) Alain Albert, *La Traversée*, roman traduit de l'américain par Georges Levin (Paris: Editions du Seuil, 1965).

(13) ليوبولد سيدار سنغور (9 تشرين الأول/ أكتوبر 1906 - 20 كانون الأول/ ديسمبر 2001): الشاعر الرئيس، كان أول رئيس للسنغال (1960-1980) ثم تنازل بمحض إرادته عن الرئاسة مرشحًا عبدو ضيوف خلفًا له. وكان أديبًا عالميًا وشاعرًا مشهورًا، ويعتبره كثيرون أحد أهم المفكرين الأفارقة من القرن العشرين. (المحرر)

(14) موديبو كيتا (وُلِدَ في عام 1915 باماكو): أول رئيس لجمهورية مالي. حكم بلاده بين عامَي 1960 و1968، وتوفي في 16 أيار/ مايو 1977 في معسكر «دجوكوروني» للاعتقال وسط باماكو بعد أن دس حراس المعتقل له السم. كان من المنادين بالوحدة الأفريقية وأحد أكبر زعماء الاشتراكيين في قارة أفريقيا. (المحرر)

التقى بالكاتب وعالِم الاجتماع أمادو همباتي با (Amadou Hampâté Bâ)[15] الذي جعله فترةً في كنفه وأقنعه بالعدول عن نيته اعتناق الإسلام. وسبق أن حدثني أبي كثيرًا عمّا كان الحكيم المسن يشرحه له حينذاك: «الطرق كلها تؤدي إلى حلقة المعرفة. نحن جميعًا، مسلمون ومسيحيون ويهود، على مسافة واحدة من هذه الحلقة المشتركة إذا ما عملنا بضمير. إذًا كل تحوّل في الدين غير مجد ما هو إلا مضيعة للوقت، كأنه انتقال أفقي لن يُقربك أبدًا من المعرفة. وحين تصل إلى هذه الحلقة، سوف تفهم أننا، بطريقة أو بأخرى، قطعنا الطريق نفسها، ويكفيك أن تُدير رأسك كي تفهم طريق الآخرين».

في مدينة الجزائر، حيث عمل مدة من الوقت في الترجمة كصحافي لدى الحركة الشعبية لتحرير أنغولا (MPLA) ولدى المؤتمر الوطني الأفريقي في جنوب أفريقيا (ANC)، اكتشف المركزية السياسية للصراع الإسرائيلي - العربي الذي لم يكن حتى ذلك الحين قد قاربه: «ربما عبر آلية التجنب»، كما كان يصرِّح. وبعد زيارة قصيرة لفرنسا، حيث سُجن بتهمة العصيان، ثم سافر مناضلًا متجولًا في خدمة صراعات العالم الثالث إلى إسرائيل، مع تخوّف أمه الكبير من أن تراه وقد أصبح صهيونيًا، لكنه سافر في صيف عام 1967 ليدافع هناك عن القضية الفلسطينية.

لأنه كان يعتبر الهوية سلاحًا ظرفيًا موقتًا يجب استعمالها درءًا لفرضها علينا، عاش حياته وهو يغيّر أقنعته في ممارسة النضالات. وخلال سفره على المركب الذي نقله إلى حيفا، ارتبط بصداقة مع عائلة يهودية يمنية، وعند وصوله إلى هناك، سجّل نفسه واحدًا من أولاد عائلة هاليفي، وكان ذلك قناعًا عفويًا لأنه لم يكن يعلم إلى أي حد كان اليهود العرب مواطنين من الدرجة الثانية في إسرائيل، فانضم إليهم سريعًا يهود الفَلاشا الإثيوبيون[16] المعرضون للتمييز العنصري حتى اليوم.

---

(15) أمادو همباتي با (1900-1991) دبلوماسي مالي معروف، وأديب وروائي وكاتب ومؤرخ وعالمُ أنسابٍ وشاعر وراوي حكايات أفريقية، يحظى باحترام واسع، وله باللغة الفرنسية مؤلفات خيالية وغير خيالية تعتبر مصادر مهمة وغنية بمعلومات عن بلاد غرب أفريقيا وعن التاريخ والدين والأدب والثقافة والحياة فيها. (المحرر)

(16) يهود الفَلاشا، أو يهود «بيتا إسرائيل» (معناها: «جماعة إسرائيل»)، هم الجماعة اليهودية التي كانت تسكن في منطقة الحبشة التاريخية، والتي جعلها انفصالها القديم عن اليهودية وعزلتها التاريخية في الحبشة مختلفة جدًا عن العرف اليهودي الرباني. ويقدّر عدد الفالاشا الإثيوبيين في إسرائيل اليوم بحوالى 126.000 شخص. كانت هجرتهم إلى فلسطين في بداية ثلاثينيات القرن العشرين ثم إلى دولة إسرائيل =

يتذكر صديقاه ميشيل فارشافسكي[17] ورامي ليفنِه[18] الطريقة التي استعملها لجعل المناضلين الإسرائيليين يعتبرون انتماءهم السياسي جزءًا لا يتجزأ من حركة

= كمهاجرين أفراد، لكن بدأت في ستينيات القرن العشرين هجرتهم الجماعية. وبدءًا من نهاية عام 1975 وطوال الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، نفذت إسرائيل مع الولايات المتحدة عمليتين للهجرة على نطاق واسع وهما «عملية الأخوة» (1979-1990) وعملية سليمان (1990-1991). تواصل الهجرات مسيرتها إلى يومنا هذا في إطار هجرات الفلاشا وسلالة اليهود الذين تركوا جماعة بيتا إسرائيل. (المحرر)

(17) ميشيل فارشافسكي (الملقب ميكادو) ولد في ستراسبورغ في عام 1949، وكان والده الحاخام الأكبر فيها. انتقل إلى إسرائيل في عام 1965 وانتسب في عام 1967 إلى منظمة ماتزبن (المنظمة الاشتراكية في إسرائيل- أقصى اليسار- وماتزبن هو اسم جريدتها وتعني البوصلة)، لكنه انشق عنها في عام 1972 ليؤسس العصبة الشيوعية الثورية الماركسية. وهو صحافي ومناضل سلمي من أقصى اليسار، ومؤسس ورئيس مركز المعلومات البديل في القدس الذي جمع حركات سلمية إسرائيلية وفلسطينية عدة. ونال المركز في عام 2012 جائزة حقوق الإنسان التي تمنحها الجمهورية الفرنسية. وهو ناشط سياسي معاد للصهيونية يدعو إلى قيام دولة ثنائية القومية محل دولة إسرائيل اليهودية. حُكم عليه في عام 1989 بالسجن 20 عامًا لطباعته منشورات تتعلق بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. يشارك في تحرير مجلة **لوموند ديبلوماتيك** وفي إلقاء محاضرات عن القضية الفلسطينية في مدن وجامعات فرنسا. متزوج من المحامية ليا تسيميل المعروفة بالدفاع عن السجناء والأسرى الفلسطينيين. (المحرر)

(18) **ماتزبن** (البوصلة) كانت الجريدة الشهرية للمنظمة الاشتركية في إسرائيل، وهي منظمة يسارية ثورية أممية معادية للصهيونية، نشأت نتيجة انشقاقات داخل الحزب الشيوعي الإسرائيلي ومن معارضين شيوعيين قريبين من التروتسكية. نشطت في أعوام 1962-1983، وكانت تعارض القومية الصهيونية والقومية العربية على السواء، ودعت إلى قيام شرق أوسط اشتراكي، واعتبرت الصهيونية شكلًا من أشكال الاستعمار الاستيطاني. من مؤسسيها نذكر عوديد بيلافسكي وعكيفا أور وموشيه ماشوفير وحاييم هانيغبي. في عام 1964 انضمت إليها مجموعة انشقت عن فرع حيفا في الحزب الشيوعي الإسرائيلي بقيادة جبرا نقولا وداود تركي. ودانت المنظمة احتلال الأراضي الفلسطينية في 8 حزيران/ يونيو 1967، وشكلت حالة تهديد خطرة على الإجماع الصهيوني على الرغم من اقتصار عضويتها على أعداد قليلة من الفلسطينيين والإسرائيليين الصابرا (تطلق على اليهود المولودين في فلسطين، وهي كلمة عبرية مأخوذة من تسابرا، وتعني ثمرة الصبّار)، وهذا كان مبعث القلق الصهيوني. في عام 1970، انشقت المنظمة إلى مجموعتين: الأولى تروتسكية (الاتحاد العمالي- الطليعة) والثانية ماوية الاتحاد الشيوعي الثوري الذي اشتهر باسم جريدته **معفاك**، أي النضال، بقيادة إيلان هاليفي ورامي ليفنِه. دخلت هذه المجموعة الثانية في علاقات مع المنظمات الفدائية الفلسطينية؛ إذ اعتبرت الدولةَ الصهيونية دولة استيطانية استعمارية. وأسست مع عدد من المناضلين الفلسطينيين «الجبهة الحمراء» التي كانت تستعد لخوض الكفاح المسلح الفلسطيني - اليهودي المشترك ضد دولة إسرائيل. وكان أن اعتُقل عدد من قيادييها (حوالى الثلاثين) وحوكموا في محكمة حيفا الشهيرة في شباط/ فبراير 1973 باعتبارهم جواسيس لسورية ومنظمة فتح. حُكم على داود تركي ورامي ليفنِه وعودي أديف ودان فيريد وحزقيال كوهن ودافيد كوبر ومالي ليرمان بالسجن فترات متراوحة بين 10 أعوام و30 عامًا. كان إيلان من قادة المنظمة، لكنه استطاع الهرب قبل أن تطاوله حملات الملاحقة والاعتقال. (المحرر)

عامة لمعارضة ذات نطاق عالمي، حيث كان يوافيهم بأخبار النضالات الأخرى الجارية في مناطق مختلفة. ويتذكر صديقاه سليم تماري وليلى شهيد[19] أيضًا هذا الإيقاع وهذا الحس التاريخي اللذين اتصف بهما إيلان. كان قادرًا دائمًا على وضع حال تبدو في أول وهلة خاصة للغاية في إطار أوسع - مثل جميع العذابات الفردية والجماعية - واضعًا في الأفق خصوصيات النضال الفلسطيني مع النضال من أجل الاستقلال في تيمور الشرقية مثلًا، أو الانتفاضة ضد التمييز العنصري في جنوب أفريقيا[20].

---

(19) سليم تماري: عالم اجتماع فلسطيني، ومدير مركز الدراسات الفلسطينية، وأستاذ في مركز الدراسات العربية في جامعة جورجتاون في أميركا. (المحرر)

ليلى شهيد: مندوبة فلسطين لدى الاتحاد الأوروبي، وكانت قد شغلت قبل ذلك منصب مندوبة فلسطين في باريس لمدة 12 عامًا (1993-2005). مثَّلت حركة فتح في إيرلندا ومن ثم مديرة المكتب الإعلامي للمنظمة في لاهاي، وشغلت في الوقت نفسه منصب مندوبة فلسطين في هولندا والدانمارك. (المحرر)

(20) هكذا، وانطلاقًا من فكرة اقتران النضالات هذه نفسها ساند إيلان في نهاية الستينيات إنشاء حركة الفهود السود في إسرائيل، ومؤسسها سعديا مارسيانو، اليهودي المغربي من الجيل الثاني. وكانت هذه الحركة تضم يهود شمال أفريقيا والشرق الأوسط السفارديين (الشرقيين) الخاضعين للتمييز الاجتماعي والاقتصادي. وكانت أيضًا تربط أول مرة بين صراع الطبقات والتمييز العرقي. واستطاع الفهود السود الإسرائيليون إخراج مطالبهم من حدود الإطار المحلي والقومي وإدراجها في استمرارية النضال من أجل الحقوق المدنية في الولايات المتحدة، ونضالات شعوب العالم الثالث بشكل عام والنضال الفلسطيني بشكل خاص. وكان أحد أهداف الحركة كسر أسطورة الصهيونية الأوروبية عبر إدانة كذبة الاندماج التي ادعاها القانون القائل بحق عودة جميع اليهود إلى الأرض الموعودة، وبذلك، فإن الحركة كانت تضرب أيضًا الجذور الأيديولوجية للامساواة في إسرائيل.

[أدى تدفق المهاجرين الصهيونيين من أنحاء العالم المختلفة إلى فلسطين، بعد ترحيل أهلها العرب، إلى ظهور تناقضات اجتماعية واسعة بسبب اختلاف البيئة الاجتماعية وتفاوت مستوى الثقافة، خصوصًا بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين الوافدين من أوروبا والولايات المتحدة. بدأ اليهود الشرقيون يشعرون بالتمييز الواضح بينهم وبين اليهود الغربيين في ما يتعلق بالتوظيف والترقية، وحتى بنوعية الخدمات الحكومية التي يحصلون عليها، ما ولّد لديهم شعورًا بالمرارة والظلم الاجتماعي. وأدت هذه التناقضات كلها إلى ظهور تمرد بين بعض اليهود الشرقيين، ولا سيما المقيمين في مدينة القدس، أطلقت على نفسها في عام 1971 اسم الفهود السود. بدأ نشاط المجموعة في حزيران/ يونيو من العام نفسه بإصدار نشرة تنطق بلسان الحركة باسم «كلمة الفهود السود»، بعد أن سُجِّلت كجمعية قانونية لدى وزارة الداخلية. من زعماء الحركة البارزين كوخابي شميس وحاييم ترجمان الذي أكد أن هدف الحركة هو إحداث ثورة اجتماعية وبناء مجتمع يساري جديد لا مثيل له في العالم حتى الآن، والتعاون مع العرب والمسحوقين الفقراء ضد النظام القائم. وعندما ظهرت الحركة تخوفت الحكومة الإسرائيلية من أسلوب العنف الذي تنادي به، الأمر الذي =

وبعد حرب 1967 التي احتلت إسرائيل خلالها غزة والضفة الغربية، انضم إيلان هاليفي إلى ماتزبن، وهي جماعة اشتراكية ثورية كانت تجسد اليسار المتطرف في ذلك الوقت، وتطالب بإنهاء الاحتلال العسكري، وتعارض كذلك الأيديولوجيا الصهيونية التي استُخدمت لتكوين دولة إسرائيل المعتبَرة شكلًا من أشكال القمع الاستعماري. وساهمت (هذه الجماعة) في تعزيز التضامن المناهض للاستعمار في برنامجها من أجل تقديم دعم غير مشروط للنضال الفلسطيني في التحرر الوطني.

بعد حرب 1973 وتغيير استراتيجية الناشطين الفلسطينيين في الأراضي المحتلة التي أدّت إلى نقاش استراتيجي عميق داخل ماتزبن، أنشأ إيلان جماعة راديكالية مضادة للصهيونية مع حوالى ثلاثين مناضلًا، تحت اسم «معفاك» (أي النضال)، وشارك في نشاط مجموعات تضم إسرائيليين وفلسطينيين يناضلون ضد الاحتلال. وكان في تلك الفترة مقرَّبًا جدًا من إبراهيم عشراوي، وكان مقتنعًا بأن التعاون والحوار وحدهما يسمحان بالوصول إلى السلام، في دولة مشتركة علمانية وثنائية الهوية. ومع ذلك، وتحت الضغط السوفياتي وميزان القوى الجديد الذي أنتجته حرب 1973، فهم إيلان أن حل الدولتين تنازل مرجو، وحتى ضروري، للوصول إلى التحرر الوطني. وقد اعتُقل عدد من رفاقه، خصوصًا أودي أديب الذي اتُّهم بوجود علاقة بينه وبين السوريين، مع العلم أنه سبق لإيلان أن حذّره. وكذلك كان مصير رامي ليفنِه. وكان أن حُلّت المجموعة في عام 1974 أيضًا ووفقًا لشعارات الأممية المشهدية نفسها[21].

= دفعها إلى محاولة التخلص من نشاطها بالإيعاز على أجهزة الأمن الإسرائيلية بمضايقة أعضائها. كما جرت محاولات حزبية كثيرة، ولا سيما من حزب حيروت وحزب العمل، لاحتواء نشاط الحركة عن طريق إغراء أعضائها بالمال]. (المحرر)

(21) الأممية المشهدية منظمة ثورية أسسها في تموز/ يوليو 1957 كلٌّ من ميشيل برنشتاين وغي دوبور وأسغر يورن، وكانت تُظهر إرادة في تجاوز المحاولات الثورية عند الطلائع الفنية في النصف الأول من القرن العشرين (الدادائية، السوريالية، الحروفية). طالب دوبور بـ «تغيير العالم»، وفكّر في تجاوز جميع الأشكال الفنية عبر «الاستعمال الواحدي لكل وسائل قلب الحياة اليومية». وكان أحد أهم أهداف الأممية المشهدية تحقيق الوعود المتضمنة في تطوير جهاز الإنتاج المعاصر، والتحرر من الشروط التاريخية، وذلك عبر إعادة الاستيلاء على الواقع في جميع مجالات الحياة. وكان أصحاب هذه النظرية يسخرون من الفن =

كان الالتزام هو كل ما حرك حياة إيلان، فلم يكتب كثيرًا في هذه الفترة، لكنه يتذكر، مع ذلك، محاولة جماعية في أولى أيام حرب 1973 كانت تهدف إلى ربط الشعري بالسياسي: «كانت مجموعتنا الصغيرة اليسارية، في القدس، قد قررت أنه يجب، على الرغم من حالة منع التجول، القيام بحملة مضادة للحرب. ورأينا أن كل منشور موّقع باسم مجموعتنا، سيضطرنا إلى الاختباء فورًا، كما أنه لن يلاقي تجاوبًا عند الشعب، لأنه كان هناك حالة ذُهان مزاجي حيال 'الطابور الخامس من عملاء العدو' [...]. لذلك، قررنا نشر قصيدة ضد الحرب». وبعد بحث غير مجدٍ في الأدب الثوري (وهو عمومًا يتضمن الشعر الوطني، أشعار الحرب، لكنه لا يحوي أشعارًا مضادة للحرب)، قرّر هؤلاء أن يكتب كل واحد من الثمانية أعضاء في القيادة قصيدة، وأن تُكتب القصيدة الأنجح على الملصق الذي سيعلقونه بشكل سري على جُدُر القدس وتل أبيب وحيفا. وكان أن اختار الجميع القصيدة الموقّع باسم «شالوم بن ميريد» («السلام ابن الثورة»)، وكانت في جوهرها تقول: «حين تُدار البنادق نحو الخلف، لن يعود هناك خط نار بيني وبين أخي. يمكن هذا أن يكون مدعاة للضحك اليوم، لكنه كان بالنسبة إلينا طريقة في أن تعيش وأنت دائمًا واقف».

بعد أن عمل إيلان في الزراعة ثم في مطبعة، أصبح سكرتيرًا لإسرائيل شاحاك[22]، رئيس الرابطة الإسرائيلية من أجل الحقوق الإنسانية والمدنية (1970-1990) الذي كان يسلط الضوء على تأثير الأصولية اليهودية في السياسة الإسرائيلية عبر موقفه الراديكالي المعادي للصهيونية وانتقاداته للحكومات الإسرائيلية.

= المعاصر للتدليل على كذب الثقافة البرجوازية وسطحيتها. وكانت الرغبة في ثورة اجتماعية، وهي المحرك لهذه المنظمة، فجرى اللجوء إلى نقد مجتمع المشهد أو مجتمع «المشهدي - التجاري». وقد عرف إيلان في باريس أعضاء من هذه المنظمة كانوا قد شاركوا في نضال الفلسطينيين في أثناء معارك «أيلول الأسود» في الأردن في عام 1969. [الصحيح في عام 1970]. (المحرر)

(22) إسرائيل شاحاك (1933-2001) إسرائيلي من أصل بولندي. من الناجين من المحرقة النازية. عمل محاضرًا في الكيمياء في الجامعة العبرية في القدس المحتلة. عُرف عنه نقده الصريح للحكومة الإسرائيلية وللمجتمع الإسرائيلي على وجه العموم. كما أن كتاباته في شأن اليهودية أثارت كثيرًا من الجدل، وأهمها كتابه **التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية: وطأة ثلاثة آلاف سنة**، وفي إثر ذلك اتهمه بعض نقاده بمعاداة السامية. (المحرر)

منذ عام 1974، كان إيلان من أوائل المناضلين في اليسار الراديكالي الذين فهموا مغزى الآفاق الجديدة المفتوحة بعد حرب 1973 وساندوا تصورات قيام دولة فلسطينية مستقلة. وهكذا، فإنه كان قريبًا جدًا في موقفه من الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين (أمينها العام نايف حواتمة). وكان إضافة إلى ذلك أول من قال «نعم» في عام 1970 ومن دون شروط، ردًا على اقتراح الجبهة الديمقراطية فتح حوار مع اليسار الإسرائيلي المعادي للصهيونية.

في عامَي 1974 و1975، سافر إلى أوروبا والتقى فلسطينيي منظمة التحرير الفلسطينية في المنفى قبل أن يلتحق بصفوف المنظمة في عام 1976، بعد نقاشات مكثفة مع أبو جهاد وأبو إياد اللذين قدّماه إلى ياسر عرفات، وقد أشار دومًا إلى الاحترام الذي كان يكنّه لأبو جهاد الذي تعلّم (إيلان) منه قواعد العمل السياسي بعيدًا عن كل مثالية طفولية.

منذ عام 1968، كانت «حركة فتح» قد أعلنت أنها توافق على دولة فلسطينية علمانية وديمقراطية، من دون تمييز على صعيد الدين أو المعتقد. وهذا ما سمح لإيلان باجتياز الحدود بعد أعوام عدة. ويشير يوري أفنيري، وهو مناضل تاريخي في حركة السلام الإسرائيلية «كتلة السلام»، أنه أمام التمييز الذي كانت تمارسه الإدارة الإسرائيلية (أي اليهود الأوروبيون) تجاه اليهود الشرقيين، «أبدى إيلان شجاعة في آرائه، حيث أصبح فلسطينيًا». وهكذا، بعد أعوام من النشاط وسط أقصى اليسار الإسرائيلي، ثم في اليسار الإسرائيلي - الفلسطيني، تأثرت المجموعات التي كان إيلان يناضل معها تدريجًا بانقسامات متتالية، وضعفت بسبب القمع. وكان إيلان في تلك الفترة يعمل مراسلًا لجريدة **ليبراسيون** في القدس، وكان مصدر المعلومات الأول عن كل ما يجري في الأراضي المحتلة، فغطّى، بصورة خاصة، الانتخابات البلدية الأولى في الخليل ونابلس، ورام الله في ربيع 1976. وفي صيف العام نفسه، اعتُقلت صديقته وسُجنت قبل إبعادها إلى أثينا ثم إلى البندقية، فغادر إسرائيل بشكل نهائي، ليستقر مع صديقته في باريس، وليصبح مناضلًا متجولًا.

نظرًا إلى أنه كان مقربًا جدًا من أبو جهاد، حصل من طريقه على التمويل

اللازم لتأسيس مجلة، فتعاون في باريس مع ناديا بن جلون[23] وموريس بروفير[24] وحسن دياب وامتياز دياب، وأسس مجلة *Nouvelles de l'intérieur* **(أخبار من الداخل)** لترجمة مقالات الصحف الإسرائيلية المضادة للصهيونية بشكل منتظم - من العبرية والعربية - ودفع الأوروبيين إلى رفض الخلط بين الصهيونيين والإسرائيليين. هكذا، نجح في توعية اليسار الفرنسي بهذه المسألة، ونظم في باريس في عام 1977 اللقاء الرسمي السري الأول في الخارج الذي ضم قادة فلسطينيين (منهم عصام السرطاوي) وإسرائيليين مناهضين للصهيونية (إيلي لوبل[25] وموشيه ماشوفار[26] وميشيل فارشافسكي) في بيت بيار فيليكس غاتاري[27]

---

(23) مناضلة مغربية يسارية، صحافية وكاتبة. شاركت في حركات اليسار الجديد في باريس بعد انتفاضة أيار/ مايو الطالبية 1968. نالت لاحقًا الدكتوراه من معهد العلوم السياسية الباريسي وأصبحت أستاذة فيه متخصصة بالشرق الأوسط. عملت ملحقة في وزارة الخارجية الفرنسية وفي اليونيسكو في باريس، ثم في سفارة المغرب في العاصمة الفرنسية، ثم مديرة للمهرجان الدولي للموسيقى الروحية في مدينة فاس المغربية. (المحرر)

(24) مناضل فرنسي يساري شارك في تأسيس منظمة اليسار البروليتاري في باريس في تشرين الأول/ أكتوبر 1968، على خلفية انتفاضة ربيع طلاب فرنسا. وكان يُعتبر من الجناح المتشدد فيها والداعي إلى العنف، ولذلك رفض قرار حل المنظمة في أواخر عام 1974 واستمر يعمل في أطر مختلفة كان عنوانها الأبرز دعم الثورة الفلسطينية. (المحرر)

(25) وِلد في برلين عام 1928 لأسرة من أصول بولندية اضطرت إلى العودة إلى بولونيا مع صعود النازية، ثم الهجرة إلى فلسطين في عام 1939، حيث انضم إلى حزب المابام اليساري وسافر إلى باريس مندوبًا لصحيفة الحزب **عال همشمار**. درس الاقتصاد في باريس، وكان أستاذه العلامة الشهير الاشتراكي الثوري شارل بتلهايم. بعد عودته إلى دولة إسرائيل، انضم إلى المعارضة اليسارية في حزب مابام التي انشقت لتشكّل حزب اليسار الاشتراكي (المعارض للصهيونية) الذي سرعان ما اندمج في الحزب الشيوعي الإسرائيلي. لكن لوبل عاد إلى باريس لينضم إلى أستاذه بتلهايم للعمل معه في الهند كي يدرس قضايا التخلف والتنمية في ذلك البلد. ومنذ تلك اللحظة تخصص لوبل بدراسة العالم الثالث وأسباب تخلفه الاقتصادي والتنموي، وصار حجة في الموضوع. وبسبب دعمه الثورة الجزائرية، اضطر إلى مغادرة فرنسا والانضمام إلى بعثة في مالي ثم في كوبا. خلال الستينيات انضم إلى منظمة ماتزبن الإسرائيلية، وصار مناضلًا باسمها في فرنسا، حيث أسس مجلة **خمسين** الاشتراكية الثورية وبرز من خلالها مدافعًا عن حقوق الفلسطينيين حتى وفاته في 4 تشرين الأول/ أكتوبر 1979. (المحرر)

(26) فيلسوف وأستاذ رياضيات ومنطق (له مؤلفات علمية أساسية) ومناضل اشتراكي اشتهر بمعارضته الصهيونية ومشاركته في تأسيس منظمة ماتزبن. ولد في عام 1936 في فلسطين (تحت الانتداب البريطاني)، لكنه ترك الكيان الصهيوني في عام 1968 ليحمل الجنسية البريطانية. (المحرر)

(27) بيار فيليكس غاتاري (1930-1992) طبيب، وطبيب نفسي وفيلسوف وسياسي فرنسي. اشتهر بتعاونه الفكري مع جيل دولوز، وألّف معه بعض الكتب، وأشهرها «**ضد أوديب**» (*Anti-Oedipus*، *1972*). (المحرر)

الذي أعارهم سيارات وعمل سائقًا لهم في هذه المناسبة. كان غاتاري في الوقت ذاته رئيسًا لجمعية دعم الحركة الثقافية العربية والعبرية (ASMAH) التي أسسها إيلان في عام 1977، والتي كانت تنشر المجلة المشار إليها.

كمثقف حقيقي، استأنف إيلان إذًا الكتابة، وجال في فرنسا، ثم في أوروبا، للدفاع عن القضية الفلسطينية. وكان أحد مؤسسي الطبعة الفرنسية من المنشورة القيّمة **مجلة الدراسات الفلسطينية** التي كتب فيها مقالات كثيرة. ووضع كذلك كتبًا عدة، منها *Sous Israël, la Palestine,* **(تحت إسرائيل: فلسطين)**، *Question juive, La tribu, La loi, l'espace* **(المسألة اليهودية، القبيلة، الشريعة، المجال)**، وستعيد دار منشورات Syllepse طباعته في وقت قريب.

بعد قيام فلسطينيون معارضون لكل حوار مع إسرائيل باغتيال عصام السرطاوي في البرتغال في عام 1983، في أثناء انعقاد الأممية الاشتراكية (IS)، عيّن الرئيس عرفات إيلان ممثلًا «لحركة فتح» لدى الأممية الاشتراكية التي كانت وقتذاك إحدى القنوات المميزة لعرفات في إطار محاولة إقامة حوار بعيد الاحتمال مع «العدو الصهيوني». ولم تكن «فتح» حينذاك إلا عضوًا مراقبًا، لكنها أصبحت عضوًا كاملًا بعد بضعة أعوام، بفضل عمل إيلان على الأرض وصلابته التي لا تتزعزع. وكانت تربطه علاقات صداقة وسياسة بيسار الحزب الاشتراكي الفرنسي، خصوصًا بكلٍّ من بيار غيدوني[28] وألان شونال[29].

في صفوف منظمة التحرير الفلسطينية، ومن ثم في «حركة فتح»، استطاع هذا المجادل غير العادي أن يضع موهبته المذهلة كمحاضر وككاتب في خدمة

---

(28) بيار غيدوني (1941-2000) أحد قادة الحزب الاشتراكي الفرنسي. نائب في البرلمان الفرنسي (1978-1983)، ونائب رئيس البرلمان (1981-1982). عمل لاحقًا سفيرًا لبلاده في إسبانيا (1983-1985) والأرجنتين (1991-1993)، ورئيسًا لمعهد العالم العربي (1985-1986). له مؤلفات عدة في تاريخ الاشتراكية في أوروبا وتاريخ الحزب الاشتراكي الفرنسي. (المحرر)

(29) مناضل في الحزب الاشتراكي الفرنسي متخصص ببلدان الشرق الأوسط والعالمين العربي والإسلامي، وهو يتابع قضايا هذه البلدان في سكرتاريا الأممية الاشتراكية. يتولى منصب مستشار رئيس الجمهورية الاشتراكي لشؤون الشرق الأوسط والعالم العربي، وأستاذ محاضر في القانون العام في جامعة باريس العاشرة - نانتير - منذ عام 1968. (المحرر)

السياسة والدبلوماسية، فكان عضوًا في الوفد الفلسطيني في أثناء مفاوضات مدريد (1991)، ومفاوضات أوسلو وواشنطن (1993) بصفته مندوبًا عن قضية اللاجئين وحق العودة. وكان أحد المستشارين المقربين من الرئيس عرفات، وأصبح ابتداءً من عام 1998 مستشارًا لنبيل شعث، وزير التخطيط والتعاون الدولي. عُيّن بعد ذلك نائبًا لوزير الخارجية في حكومة محمود عباس بين عامَي 2003 و2005. وفي عام 2011، انتُخب بالاجماع عضوًا في المجلس الثوري لحركة فتح.

ترك إيلان أثرًا لا يُمحى، سواء في المفاوضات الإسرائيلية - الفلسطينية أو في الأممية الاشتراكية. وسمحت مهارته التي لا مثيل لها وقدرته على الإقناع بإزالة كثير من العوائق التي كانت تحاول عزل فلسطين عن الساحة العالمية. وليس من المبالغ فيه القول إنه أدى دورًا مفصليًا في العملية الطويلة الأمد لتحقيق الاعتراف الدولي بفلسطين.

بعد توقيع اتفاقات السلام، عاد إيلان إلى فلسطين، وأقام فترة من الزمن في جبل الزيتون، عند صديقه فرنسوا أبو سالم، مؤسس فرقة الحكواتي المسرحية في القدس الشرقية، الذي أصبح بعد ذلك مدير المسرح الوطني الفلسطيني. استقر في عام 1997 في رام الله، وبالتحديد في البيرة، بالقرب من المقاطعة، مركز السلطة الفلسطينية الجديدة. وفي أثناء عملية «الدرع الواقي» في عام 2002، تعرض منزله للتدمير الكامل[30]. انتقل إلى رام الله ومن ثم إلى بيروت في عام 2006. وسمّي بين عامي 2007 و2010 مستشارًا دبلوماسيًا لدى البعثة الفلسطينية في برلين، ليعود بعدها إلى باريس ويعمل في بعثة فلسطين.

---

(30) «الدرع الواقي» عملية عسكرية قامت بها القوات الإسرائيلية في إطار محاولة القضاء على الانتفاضة الفلسطينية الثانية. بدأت إسرائيل العملية في 29 آذار/ مارس 2002 وأنهتها في تموز/ يوليو 2002، وحشدت لها 30 ألف جندي. جاءت هذه العملية العسكرية في إثر حدوث عملية استشهادية في فندق بارك في نتانيا، أدت إلى مقتل 38 إسرائيليًا وجرح 146 آخرين في عيد الفصح اليهودي. في بداية العملية العسكرية، قامت القوات الإسرائيلية بالتوغل في مدن الضفة الغربية، خصوصًا نابلس وجنين ورام الله والبيرة. وعقب اقتحام مدينة رام الله، فرض الجيش الإسرائيلي الحصار على مقر الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات، المعروف بالمقاطعة، وبقي الرئيس الفلسطيني محاصَرًا في المقاطعة حتى آخر أيام حياته، ولم يُسمح له بالخروج إلا لتلقي العلاج في باريس قبل وفاته في عام 2004. بعد انتهاء العملية العسكرية وانسحاب الجيش الإسرائيلي، شرعت الحكومة الإسرائيلية في بناء الجدار العازل. (المحرر)

هنا، بدأت رقصة الأقنعة تتلاشى شيئًا فشيئًا، لأن المهمات الرسمية التي شغلها أجبرته على التزام شكل من أشكال الإقامة الدائمة الحاملة للهوية. لكنه، مع ذلك، تابع أسفاره وفك تشفير الأوضاع والاحتمالات السياسية في الشرق الأوسط وفي جميع أنحاء العالم، لإقناع محاوريه جميعًا بحق الفلسطينيين في الحكم الذاتي. وقد خاطب جمهورًا متنوعًا، بدءًا من الأوساط الجامعية والجمعيات المحلية والمنتديات الاجتماعية، وانتهاءً بلجان حلف شمال الأطلسي والأحزاب السياسية.

من بين أسفاره الكثيرة كلها، كان هناك رحلة تركت لديه أثرًا بينًا: في عام 1994، سافر إلى رواندا بعد وقوع الإبادة الجماعية، كي يشارك في حلقة دراسية حول إعادة الإعمار والمصالحة، كان منظمها ألفونس نكوبيتو، وزير العدل في حكومة رواندا الجديدة، وذلك لتلافي، بحسب قوله، «أن يؤدي الرد على الإبادة الجماعية إلى التحضير لإبادة أخرى». وكانت المراجع الثلاثة لهذه الحلقة هي جنوب أفريقيا، حيث وضع ديزموند توتو لجنة «الحقيقة والمصالحة»، وفلسطين التي استطاعت مواجهة الاحتلال بالقوة الأخلاقية، ثم البوسنة التي برهنت على أن الصراعات الإثنية ليست حكرًا على القارة الأفريقية. وكان إيلان قد فسَّر أن من غير الممكن أن يحضر رفض الإفلات من العقاب للمستقبل إلا إذا كان مختلفًا عن الانتقام. وكان جميع المشاركين قد أتوا لتبادل الآراء في شأن ضرورة قبول الإفلات من العقاب من أجل البدء بإعادة إعمار البلاد، لكنهم أصيبوا جميعًا بالرهبة وتملكهم الرعب: «لم تكن الجثث قد نُقلت، وكانت هناك مناطق يجب المرور عبرها تقريبًا على الجثث للتقدم، كان ذلك مرعبًا منظرًا ورائحة. طبعًا، عادت كل صور مخيمات الموت، لأنه كان يعيد نفسه. فمنظر مدرسة، منظر فتيات، أطفال، وهذه الجثث كلها التي كانت على وشك التعفن، هذه فظائع لا يمكننا أبدًا محوها، إنها في داخلي» - هكذا كانت شهادة إيلان عند عودته. وخلال يومين، جال عبر البلاد متوقفًا عند جميع أماكن المجزرة، وجامعًا شهادات الناجين منها. وأخذ يتعمق بآليات الإبادة الجماعية واستراتيجيات البقاء على قيد الحياة، ليعرض السمة العامة لآلية القمع العنصري وللمقاومة بوصفها الرد الوحيد الممكن.

في باريس، وحين قلّده الرئيس محمود عباس في 24 تشرين الأول/ أكتوبر 2012 وسام الاستحقاق والامتياز - وهي أعلى شهادة تقدير فلسطينية - أصر إيلان على شكر أبو عمار الذي أتاح له أن تكون حياته مفيدة وشيقة، في المسيرة نفسها التي ارتضاها لنفسه، مسيرة مواطنة غير طائفية، كما فهمها هو منذ اليوم الأول للقائهما في عام 1979. وذكّر كذلك بالدور الرئيس لأول رئيس للسلطة الفلسطينية الذي لولاه لكانت فلسطين غير موجودة على خريطة العالم.

في باريس، غادرَنا إيلان في 10 تموز/ يوليو 2013، فما كان من المجلس الثوري لفتح إلا أن كرّس له في 29 تموز/ يوليو يومًا تكريميًا في رام الله، ولوحة تذكارية. وقد كتب صديقه فاروق مردم بيك قائلًا: «إن أفضل توصيف لإيلان هاليفي هو التوصيف الذي كتبه هو لوصف صديقه فيليكس غاتاري، حيث كان يقول إنه كان 'أمميًا غير اعتيادي'. وإذا كان هناك من احتفظ بقوله حين قدّم نفسه بأنه مئة في المئة يهودي ومئة في المئة عربي، فمن المهم أن نوضّح أن هذا كان ردّه على موظفة في وزارة الخارجية الفلسطينية حين سألته ماذا يعني له أن يكون «نصف - نصف». كان إيلان مئة في المئة في كل ما كانه: كان مئة في المئة أميركيًا أسود في الستينيات إلى جانب «الفهود السود» و«المسلمين السود»، ومئة في المئة أفريقيًا إلى جانب المطالبين بالاستقلال في أنغولا أو في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، ومئة في المئة يهوديًا إذا ما عدنا إلى مرحلة الحرب العالمية الثانية. وأخيرًا كان مئة في المئة فلسطينيًا في منظمة التحرير الفلسطينية من أجل الحرية والعدالة. كرّس حياته للنضال، وفي أغلب الأحيان على حساب عائلته، ودائمًا على حساب صحته التي تدهورت على مذبح التزامه الذي كان مئة في المئة.

تعتبر نيكول لابيار[31] أن إيلان كان «بلا شك مثالًا لطريقة في الوجود في العالم، وهذه الطريقة الفرحة كان يلجأ إليها لتخريب الانتماءات لمصلحة

---

(31) مثقفة وعالِمة اجتماع وأنثروبولوجية فرنسية درست على هنري لوفيفر وإدغار موران. ولدت في باريس في عام 1947 لأسرة يهودية من أصول بولونية. انضمت إلى الجماعات التروتسكية في عام 1968 وتركتها في عام 1971، وتفرغت للدراسة والكتابة. باحثة رئيسة ومديرة قسم بحوث في المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي في موضوعات الذاكرة والهويات والعلاقات بين الأجيال. (المحرر)

التضامن. ومنذ المراهقة، كان يعيش دخيلًا من جنس خاص، يتعاطف مع جميع معذبي الأرض، ويتحدى كل جمود في الانتماء [...]. ومن المؤكد أن مسيرته والتزامه يفاجئان مدّاحي الجمود الانتمائي أجمعين، من أي مكان أتوا. كان يغضب أحيانًا أو يسخر أحيانًا أخرى، وفقًا للتعليقات أو للأسئلة الناتجة من ذلك ويكمل من دون كلل، من لقاءات إلى اجتماعات رسمية، من منتدى إلى آخر، من بلد إلى بلد، الدفاع عن القضية الفلسطينية»[32].

يتذكره رفاقه الفرنسيون «مناضلًا لا يتعب ومتحمسًا للقضية الفلسطينية، التي كان يدافع عنها بذهن صافٍ، بمرح وبقناعة»، لأن على الرغم من أنه كان ملتزمًا بشغف ويعتبر أن نضال الفلسطينيين يمتزج في نضال جميع المستبعَدين والمستعمَرين والخاضعين للتمييز العنصري، فإنه حافظ على الواقعية وعلى وضوح الرؤية تمامًا. وفي الواقع، كان يعرف، بوصفه أمميًا، أهمية التحرر الوطني لشعب محكوم؛ فقبل وصول السلطة الفلسطينية إلى الحكم بفترة طويلة، وردًّا على التأكيدات المثالية في شأن نقاء الدولة الفلسطينية المستقبلية، كان قد وضّح أن دعم نضال الشعب الفلسطيني لإنشاء دولة لا يعني دولة مثالية، بل دولة عادية، مع تناقضاتها كلها. ثم أضاف: «لا تعجبوا، فسيكون هناك سجون فلسطينية، سيئة مثلها مثل غيرها. إن صراع الطبقات هو الذي سيسمح بتطور هذه الدولة». إذًا النضال الوطني كشرط أساس ضروري لصراع الطبقات ووحدة الشعب الفلسطيني كنقطة انطلاق. هذا هو ما كان يطرحه، مقدمًا لتفسير ضرورة تجنب القطيعة بين أنصار «فتح» وأنصار «حماس». وكان أكثر ما يزعجه أولئك الذين استغلوا الشعب الفلسطيني واستثمروا فيه أوهامهم كلها، وكانوا يعطونه الدروس في التطرف وعدم المساومة؛ أولئك الذين كانوا حاضرين للمقاومة، بالبقاء حيث هم، وحتى موت آخر فلسطيني.

مثل كثير من المقربين منه، أحتفظ لوالدي بصورة لرجل قصير القامة ممتلئ ذي عينين ضاحكتين، مليء بالتفكه، راوٍ كبير للقصص والنكات، يتمتع بذاكرة مدهشة تلقي بالظل على أي محرك بحث في الإنترنت، راقص كبير وطباخ ماهر، وقد ترك فراغًا رهيبًا، سواء أكان في الاحتفالات أم في النقاشات السياسية.

(32) Nicole Lapierre, «Ilan Halévi, métèque générique,» *Médiapart*, 13/7/2013.

محيّر في تعدد لغاته، نهِم بلا حدود في انفتاحه على العالم. وعلى الرغم من تعدد أقنعته وهواياته المتحركة وفقًا للأزمنة والنضالات، يبقى إيلان أنموذجًا للنزاهة الفكرية في أسلوبه عند التطرق إلى الموضوعات من دون محرمات: كانت صراحته ودعابته تؤديان إلى كشف محاوريه. وكان يمتاز دائمًا بفن النظر إلى الأمور من مسافة معيّنة، حيث إنه كان يأخذ في الحسبان المسائل من وجهة نظر شاملة، وبالضرورة أكثر تعقيدًا وغنى من المظاهر التي تكون في أول وهلة خادعةً دائمًا. وبشكل قاطع، كانت دعاباته الانتمائية أولًا وقبل كل شيء ألاعيب عظيمة: كانت أقنعته مثل مرايا يديرها نحو العالم ليحثَّ كل واحد منا على مساءلة نفسه بطريقة استبطانية عن تحديد موقعه. كانت طريقة ملتوية تجرنا إلى طرح السؤال: «كيف يمكن واحدنا أن يكون فارسيًا؟»[33].

(33) هذه الجملة الشهيرة هي لمونتسكيو في كتابه **رسائل فارسية**، وهي عنوان رسالته رقم 30. وكان مونتسكيو يقصد بها دهشة وتعجب الباريسي أمام اكتشافه للآخر، وهو الذي كان يرى العالم متمحورًا حول ذاته فلا يفهم اختلاف الأمم والشعوب. (المحرر)

مقدمة

أخوان توأمان

ألان غريش[١]

لأن إيلان هاليفي اتخذ خيارات غير محتملة طوال حياته، وتحمّل مسؤولية القطيعة مع ارتباطاته «القبلية»، واختار القضية الفلسطينية وانضم إلى منظمة ياسر عرفات، أي حركة فتح، وهو الذي وُلد يهوديًا، فإن بإمكانه أن يفاجئنا؛ غامر، في الشهور الأخيرة من حياته، بكتابة نص عن رهاب الإسلام وحالات التمييز العنصري التي تضرب المسلمين. وهو لا يدين الحروب الإمبريالية الدائرة باسم «الحضارة» و«التقدم»، وحتى ضد الهمجيين، فحسب، بل يتجرأ أيضًا، وهذا ما يجعله يستحق، بلا شك في الحياة الثانية التي لم يكن يؤمن بها، كراهية الأديتوقراط[2] الحاليين كلهم بسبب التوازيات والمقابلات التي كان يقيمها، مثل الموازاة بين معاداة السامية، التي عاناها شخصيًا منذ ولادته تحت الاحتلال، ورهاب الإسلام الذي يمتد سرطانه داخل الطبقة السياسية والصحافيين والمثقفين، سواء أَمِن اليمين كانوا أم من اليسار؛ فنحن نستطيع أن نستعيد عبارة

---

(1) ألان غريش صحافي في جريدة **لوموند ديبلوماتيك** وصاحب كتاب **الإسلام والجمهورية والعالم**. يُنظر: Alain Gresh, *L'Islam, la République et le monde* (Paris: Fayard, 2014).

(2) مصطلح الأديتوقراط (Editocrates) هو في الأصل عنوان كتاب فرنسي يتحدث عن كتّاب الأعمدة الرئيسة في الصحف، ويُقصد بهذا المصطلح صنّاع الرأي العام من المثقفين الذين يأتمرون بالسلطة (المترجمة).

المؤرخ ميشيل دريفوس الجميلة عن معاداة السامية[3]: «إذا لم يكن هناك معاداة يسارية للإسلام، لأن المفهومين يتعارضان، فإن هناك معاداة للإسلام على اليسار، وهي ربما الأكثر خطورة».

يقوم إيلان بذلك مع شعور بوجود ضرورة ملحة تتراءى في كتاباته، وبقلق تجاه تصاعد المخاطر، أي الانحرافات التي تجرنا مباشرة إلى «حرب الحضارات». ومنذ البداية، يعترف «إلى أي حد، أن ما يقوله هو بعيد عن التجريد، وخالٍ من التجرد الذي تتطلبه الدقة العلمية من المؤرخ، والباحث بشكل عام. لكن الاعتراف بهذه الحالة الطارئة كانت كذلك مصدرًا لشرعية هذا القول، لأنها تتعلق بالحرب، بالموت والمعاناة، وبالضرورة المطلقة لمقاومة هذا كله». لكن إذا كتب هذا الكتاب وهو يناضل، فإنه يكتبه مع ثقافته الرائعة، مع معرفته العميقة بالتاريخ، تاريخ اليهود، تاريخ فلسطين، لكن أيضًا تاريخ العالم الذي شعر دومًا بأنه مواطن فيه، مهما كانت ارتباطاته (أو بالأحرى بسبب ارتباطه) بفلسطين.

يشمل عمله محورين، محور تحليل «الحرب على الإرهاب» ومحور الموازاة بين رهاب الإسلام ورهاب السامية.

منذ ولاية جورج بوش (الابن)، أصبحت «الحرب على الإرهاب» في قلب استراتيجية الولايات المتحدة العالمية واستراتيجية عدد من حلفائها. صحيح أن [الرئيس الأميركي السابق] باراك أوباما ابتعد قليلًا عن اتجاهات سلفه، ليأخذ في الحسبان الهزائم العسكرية الأميركية، وتحفّظ الرأي العام عنده، لكنه استمر في قصف العراق وسورية وإرسال طائراته (من دون طيار) في مهمات قتل على حدود باكستان، كما في اليمن أو الصومال، خالطًا في «عمليات القتل الهادفة» بين «الإرهابيين المطلوبين» والمدنيين الأبرياء.

يردّ إيلان بسخرية على الخطاب في شأن الإرهاب، وهو الخطاب المسيطر على نطاق واسع في فرنسا، خصوصًا منذ الهجوم على مجلة *Charlie Hebdo* (**شارلي إيبدو**) وعلى متجرٍ صاحبه يهودي في كانون الثاني/ يناير 2015: «يمكن رسميًا

---

(3) Michel Dreyfus, *L'Antisémitisme à gauche: Histoire d'un paradoxe, de 1830 à nos jours*, postface inédite de l'auteur, la découverte-poche. Essais (Paris: La Découverte, 2011).

أن تُعرَّف الحرب التي تنمو في ظلها 'شوفينية الحرب' بأنها مواجهة ذات أبعاد عالمية ضد 'الإرهاب'. **وبالمعنى الدقيق**، فإن الإرهاب هو تقنية حرب محرَّمة تمامًا، لكنها للأسف عالمية، حيث تتخذ من المدنيين أهدافًا لعمليات عسكرية ذات أغراض سياسية. ولا يعود العدو الجديد الإجمالي إذًا دولة أو مجموعة دول، بلدًا، نظامًا أو حزبًا، ولا حتى أيديولوجيا، وإنما تقنية! حرب شاملة ضد آلات التدمير؟ ضد دواسات غيار السرعة الأوتوماتيكية؟ هل يمكننا تصور حرب على أسلوب من دون الاهتمام بمعرفة من يلجأ إليها ولماذا؟ يقال إن طرح أسئلة كهذه هو بحد ذاته خطوة مشكوك في أمرها، لأن 'الإرهاب'، كما أعلن خوسيه أثنار حين كان في رئاسة الحكومة الإسبانية، يجب ألا يُفهم، أو يُفسَّر، بل يجب أن يُحارب!».

مهما يكن الإرهاب محط إدانة، فإنه جزء من الأغراض العسكرية، وهو، كما كررنا دائمًا، سلاح الضعفاء. وقد سُئل العربي بن مهيدي، وهو شخصية لامعة في الثورة الجزائرية، كان الجيش الفرنسي قد اعتقله في عام 1957، حين كان قائدًا للمنطقة الحرة في الجزائر: لماذا تضع جبهة التحرير الوطنية قنابل مخبَّأة في قفف في المقاهي أو في الأماكن العامة؟ فأجاب جلاديه الذين قتلوه بدم بارد بعد بضعة أيام: «أعطونا طائراتكم، نعطِكم قففنا». إن التفاوت في وسائل القتال بين أفراد حرب العصابات وجيش نظامي يؤدي إلى تفاوت في عدد الضحايا. وإذا كان يجب اعتبار «حركة حماس» وحلفائها «إرهابيين» لأنهم قتلوا ثلاثة مدنيين في أثناء حرب غزة 2014، فماذا يكون وصف دولة إسرائيل التي قتلت، وفقًا للتقديرات الأدنى - أي تقديرات الجيش الإسرائيلي ذاته - ما بين 800 و 1000 مدني، من بينهم مئات الأطفال؟ من يتجرأ على الإشارة إلى دولة تدمّر العراق أو تقوم بارتكاب مجازر في فلسطين على أنها «إرهابية»؟ من سيجر جورج بوش أو بنيامين نتنياهو إلى محكمة العدل الدولية؟

تبدو «الحرب على الإرهاب» كارثية، حتى من وجهة نظر أهداف محرّكيها. ووفقًا لمؤسسة قاعدة البيانات العامة في شأن الإرهاب في جامعة مريلاند، فإن تنظيم القاعدة وفروعه نفذا حوالى 200 عملية إرهابية ما بين عامَي 2007 و2010. وتضاعف هذا العدد 300 في المئة في عام 2013، أي وصل إلى 600

عملية. ومن المؤكد أن الأرقام في عام 2014 ستحطم الرقم القياسي مع إعلان أبو بكر البغدادي «خليفة». وماذا عن عدد الإرهابيين؟ وفقًا للتقديرات الغربية، التحق 20.000 مقاتل أجنبي بتنظيم الدولة الإسلامية والتنظيمات المتطرفة في العراق وسورية، بينهم 3400 أوروبي، ولنتذكر أن تنظيم القاعدة لم يكن موجودًا في العراق قبل اجتياح الولايات المتحدة للعراق في آذار/ مارس 2003.

سيكون هذا الحساب الختامي جزئيًا تمامًا إذا لم نأخذ في الحسبان الكوارث الجيوسياسية والإنسانية؛ فمنذ عام 2001، خاضت الولايات المتحدة، وبمساعدة حلفائها أحيانًا، حروبًا في أفغانستان والعراق وليبيا، وعبر الجو في باكستان واليمن والصومال. النتيجة: اختفت الدولة الليبية؛ غرقت الدولة العراقية في الطائفية والحرب الأهلية؛ السلطة الأفغانية تتأرجح، ولم تكن طالبان قط بهذه القوة في باكستان. وكانت كوندوليزا رايس، وزيرة الخارجية الأميركية السابقة، قد أطلقت عبارة «الفوضى البنّاءة» في عام 2005 لتبرير سياسة إدارة بوش في المنطقة، معلنة أيامًا آتية تُنشد النشيد الوطني (الأميركي) للديمقراطية. وبعد مضي أعوام عشرة، انتشرت الفوضى في كل ما تسميه الولايات المتحدة «الشرق الأوسط الكبير»، من باكستان حتى الساحل الأفريقي. وأضحت الشعوب من بين أوائل ضحايا هذه اليوتوبيا «البنّاءة».

لكن هناك ضحية أخرى لهذه الحرب، كما يشير إيلان، هي مجموع المسلمين الذين وجدوا أنفسهم عرضة للعقاب العام باسم الجماعة. أصبحت تحالفات الماضي التي ربطت الرئيس رونالد ريغان بـ «مناضلي الحرية» الأفغان طي النسيان؛ وجرى تناسي الدعم المقدّم إلى الجماعات الإسلامية، حين كانت في مواجهة إمبراطورية الشر السوفياتية، أو كانت تقاتل القومية العربية أو اليسار العربي. منذ ذلك الحين، أصبح الإسلام العدو السياسي الأول، حتى ولو أن «اللغة تصبح ملغومة»، بحسب شرح إيلان، و«أن العدو ليس الإسلام وإنما الإسلاموية (L'islamisme)، وفقًا للقادة الرئيسيين لهذه الحرب العالمية. لكن هذه الإسلاموية، المرادفة للإرهاب، هي عدو بلا وجه، على صورة أولئك الرجال الذين يقفون عارضين أنفسهم، وموارين ملامحهم أمام كاميرات وسائل إعلام أعدائهم المفترَضين. وبالطريقة عينها التي لا يصف فيها أي مجرم حرب نفسه بأنه «إرهابي»، بل يدّعي أنه يرتكب جرائمه باسم مُثُل أكثر نبلًا، لا يعلن أيٌّ من أولئك

المقنَّعين أمام الكاميرات أنه «إسلاموي»، بل يدّعي أنه يجسّد الإسلام تمامًا، راميًا كل إسلام آخر في الغياهب الخارجية للجاهلية أو بتهمة التعدي (على الإسلام)، ليؤسس بهذا للانحراف المفهومي المذكور سابقًا».

في الحقيقة، إن المذهل، وما يؤكده إيلان، هو هذا التشابك الذي يؤدي إلى جعل الدين كلية متجانسة، ومرتبطًا بالعنف أو بعدم التسامح، من خلال اختلاف المفاهيم، سواء أكان مفهوم **الشهيد**[4] أم مفهوم **الحجاب**، وهما كلمتان تُختزلان بتفسير واحد يعيدان الإسلام إلى ديانة أحادية متحجرة، من دون نقاشات، من دون فوارق، من دون تاريخ. كذلك يستعيد الكاتب مفهوم **الجهاد** وما يعنيه للمؤمنين وليس القراءة المختزلة له فحسب لدى وسائل الإعلام: «يُترجم بشكل عام بالحرب المقدسة، وهذا المفهوم يتضمن حربًا قسرية ضد غير المسلمين لهدايتهم بالقوة أو للقضاء عليهم. لنترك جانبًا الاستعمال المجازي لكلمة «croisade» (أي الحرب الصليبية) بالفرنسية، وهي كلمة يمكن أن تتطبق على كل نضال من أجل قضية عادلة، من دون الاستدلال على المحتوى الأيديولوجي أو الديني للمحاولة. وحتى حرفيًا، يبقى **الجهاد** جهدًا على طريق تؤدي إلى الله، سواء أكان داخليًا أم خارجيًا، فرديًا أم جماعيًا، كما يوحي بذلك معناه الجذري (بالعربية، يعني الجذر جـ - هـ - د الكد أو السعي)، والكلمة بحد ذاتها ليس لها جوهريًا أي معنى عسكري أو عنفي، مثلها مثل الكلمة الفرنسية «mobilisation» (تعبئة)، ويمكننا أن نتكلم تمامًا على **جهاد** سلمي».

لكن هذه المفاهيم ليست وحدها المختزلة بشعارات آتية من ثرثرات أخبار تلفزيون TF 1، وإنما هناك أيضًا القوى المتمثلة في الإسلام السياسي التي أصبحت تصوَّر بشكل كاريكاتوري، في حين أنها تتابع استراتيجيات مختلفة، وحتى مناقضة، وأنها، مثل جميع الأحزاب في العالم، تتطور وفقًا للوقائع على الأرض أكثر من كونها أيديولوجيا أحادية متحجرة. ونتذكر كيف كانت حركة الإخوان المسلمين في مصر، تحت حكم محمد مرسي، قد بررت «دينيًا» القرض مع الفائدة للدفاع عن الاتفاق الذي وقّعه قائدهم مع صندوق النقد الدولي.

---

(4) يستعمل الكاتب هذه الكلمات العربية (الشهيد والحجاب والجهاد) وليس مرادفها بالفرنسية. (المترجمة)

يحلل الكاتب استراتيجية «حزب الله»، ويخصص صفحات طويلة لحركة «حماس» التي لا يتعاطف معها البتة من الناحية الأيديولوجية - كان إيلان عضوًا في فتح، منافسة حماس - لكنه يتابع التطورات التي يرفض الغربيون والحكومة الإسرائيلية رؤيتها، في حين أن بنيامين نتنياهو يماثل ما بين «فتح» و«القاعدة».

يقول إيلان إن «حماس» «جاءت من بعيد وستذهب بلا شك بعيدًا. إن الديمقراطية الإسلامية التي ستكون بالنسبة إلى الإسلام ما هي عليه الديمقراطية المسيحية بالنسبة إلى المسيحية، هي البديل المباشر للتعصب وعدم التسامح وللعنف السياسي. اليوم، في فلسطين، ولأن حركتي «حماس» و«الجهاد الإسلامي» تحتلان مجموع المجال الفلسطيني، ليس هناك مساحة لفرق القتلة من نوع القاعدة. مع ذلك، هذا يفترض كذلك الحفاظ على المجال الذي يمكن الاستمرار في قتالهم، أو على الأقل في مواجهتهم بمشروع مختلف عن مشروعهم، كل ذلك مع الاعتراف بحقهم في النقاش كمواطنين». لنستعد مزحة لصحافي إسرائيلي صديق، «لم يقبل قادتنا بفتح، فكانت لهم حماس؛ وهم لم يقبلوا بحماس فسوف تأتيهم القاعدة».

هذه الكراهية للإسلام التي تلاقي صدى وتغذي حتى المسؤولين ووسائل الإعلام في الغرب، تتعدى الإطار السياسي أو الجيوسياسي؛ فهي تذكّر - وهذا من المساهمات الأساسية في هذا الكتاب - بمعاداة السامية في الثلاثينيات: «في هذا التشكل للحرب بين الحضارات، نسمع دائمًا الحديث عن حد 'يهودي - مسيحي' عن 'معسكر'، عن 'حضارة' يهودية - مسيحية، نستطيع وضعها في مقابل العالم الإسلامي. إنه انقلاب مفارق للمصطلحات في معادلة تاريخية مختلفة تمامًا، فالغرب المسيحي لا الشرق المسلم، هو الذي أظهر، منذ الحروب الصليبية وإعادة الفتح الإسبانية وحتى معاداة السامية الحديثة في أوروبا، أكبر كراهية لليهود، واضطهدهم».

تفترض هذه العملية الأيديولوجية تحديد من هم يهود الثلاثينيات في أوروبا (وشرح بالتالي أنه ليس لديهم أي صفة مشتركة مع هؤلاء المهاجرين الذين يصلون اليوم إلى جوارنا). هذه المهمة شائكة إذا ما تذكّرنا أن عبارة

«حضارة يهودية - مسيحية» كانت قد وُلدت في الثلاثينيات، وبالتحديد لمعارضة الخطاب الهتلري الذي كان يدافع عن الغرب والحضارة المسيحية ضد اليهود. هكذا كتب الفيلسوف الفرنسي الكاثوليكي جاك ماريتان[5] في عام 1942 أن التراث «اليهودي - المسيحي» كان مصدر القيم الغربية. وتستمر هذه الرؤية، المرتكزة على نيات مشكورة، بالتداول، خصوصًا في الولايات المتحدة، لتأكيد تفوّق «العالم الحر» على الاتحاد السوفياتي الكافر. مع ذلك، ومنذ الستينيات، فقدت هذه الرؤية صدقيتها، لأن حروب التحرير المضادة للاستعمار أزالت فكرة صراع الحضارات، حيث كان الشمال يمثّل الخير. ومن المفارقات أن سقوط جدار برلين أدى إلى إحياء مفهوم «الحضارة اليهودية - المسيحية» من جديد، عبر قبول لم يُعرف له مثيل في السابق لأن اليهود صاروا ضمن غرب أسطوري رُدت إليه الحياة، وهو يهدف إلى رفض المنبوذين الجدد، أي المسلمين. وما عاد هؤلاء «يهودًا» وإنما هُم «بيض»، وفي المواقع الأمامية في الصراع ضد الهمجية.

استطاع الكاتب الإسرائيلي عاموس عوز[6] أن يعبِّر أفضل من سواه، وإن على مضض، عن هذا الموقف التاريخي في مماهاة اليهود مع أوروبا ومع «البيض». وشرح، في خطاب بشأن ثلاثينيات القرن العشرين في فرانكفورت

---

(5) جاك ماريتان (Jacques Maritan) (1882-1973): فيلسوف فرنسي كاثوليكي. ولد في باريس لأسرة بروتستانتية، ودرس الفلسفة والعلم الطبيعي في السوربون، وأعلن عدم رضاه عن الجو الفكري السائد فيها الذي كان خليطًا من الوضعية والعلمانية وغيرهما. تشرّب الفلسفة من برغسون (Bergson) واعتنق الكاثوليكية وزوجته رايسا أونانسوف الروسية المنشأ، اليهودية الديانة، في عام 1906، وانصرف بعد عودته من ألمانيا إلى قراءة مؤلفات توما الإكويني، وأعلن بعدها انتماءه إلى التومائية (Thomism)، فصار من أشهر عارضي التومائية المحدثة (Neo-Thomism). وفي الأعوام الأخيرة من حياته درّس في جامعة برنستون الأميركية، وتوفي في الولايات المتحدة الأميركية. (المحرر)

(6) عاموس عوز (1939-): ولد باسم عاموس كلاوزنر. كاتب وروائي وصحافي إسرائيلي، وبروفيسور في الأدب في جامعة بن غوريون في بئر السبع. يعتُبر منذ عام 1967 من أبرز الدعاة والمؤيدين لحل الدولتين في فلسطين. وكان من المعارضين للاستيطان منذ بداياته، ومن المرحبين باتفاق أوسلو، والمنادين بفتح باب الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية.. حاز عددًا من الجوائز، بينها وسام الفنون والآداب برتبة ضابط في فرنسا في عام 1984. ووسام الشرف الفرنسي من الرئيس الفرنسي جاك شيراك في عام 1997. (المحرر)

في عام 2005، فقال: «في ذلك الزمن، لم تكن ثلاثة أرباع أوروبا ترغب إلا في التخلص نهائيًا من جميع هؤلاء الأوروبيين المتحمسين (لأوروبا)، المتعددي اللغات، المولعين بالشعر، المقتنعين بتفوق أوروبا الأخلاقي، هواة الرقص والأوبرا، عشاق التراث الأوروبي، الحالمين بوحدة أوروبية مابعد قومية، مجلّين للتلاطف، للزينة والموضة الأوروبية، معجبين بلا تحفظ بأوروبا التي بذلوا منذ أعوام [...] جهدًا في التملق لها، وإغنائها في جميع الميادين وعبر الوسائل كلها، واجتهدوا للاندماج فيها، لإثارة عاطفتها عبر مغازلتها بجموح، لجعلها تحبهم، تقبلهم، لإرضائها، بأن يصبحوا جزءًا منها، وأن يصبحوا محبوبين».

تجاه هذا التشويه اللامعقول للوقائع، يقول الشاعر والكاتب الإسرائيلي يتسحاق لاؤر[7]: «لم يكن اليهود الذين قُتلوا في أوروبا أمة من 'محبي أوروبا'. [...] لم يكونوا 'متعددي اللغات، ولا مولعين بالشعر، ولا مقتنعين بتفوق أوروبا الأخلاقي، أو هواة للرقص وللأوبرا' ...إلخ. إن قولًا كهذا إهانة لضحايا الإبادة الجماعية؛ إذ لم تكن الأكثرية قط من زوار الأوبرا، ولم تكن تقرأ الشعر الأوروبي». ينكر عاموس عوز ببساطة غيرية الضحايا اليهود الذين كانوا أشبه بالعمال المهاجرين اليوم منهم بالأوروبيين «المهذبين»، كما تكشف ذلك صور الغيتو في أوروبا الشرقية، لكن أيضًا الإجراءات المقيِّدة للهجرة اليهودية التي فرضتها الحكومات الأوروبية وكذلك حكومة الولايات المتحدة في الثلث الأول من القرن العشرين، والتي كانت تتهم اليهود بعبارات عنيفة عنف العبارات المستعملة اليوم ضد المسلمين.

في تحليل خطاب عدد من المثقفين الفرنسيين البارزين إعلاميًا[8]، من

(7) يتسحاق لاؤر (1948-): روائي وشاعر وناقد أدبي في صحيفة **هآرتس** الإسرائيلية. (المحرر)

(8) الأسماء التي يذكرها ألان غريش هي لمثقفين فرنسيين برزوا في العقدين الأخيرين في دفاعهم عن إسرائيل والصهيونية، تحت شعار التصدي للعنصرية ولنزعة معاداة السامية وللإسلام الارهابي. (المحرر)

برنار هنري ليفي[9] إلى ألكسندر أدلر[10]، ومن بيار أندريه تاغييف[11] إلى آلان فينكلكراوت[12]، يعترض إيفان سِغريه (Ivan Segré)[13]، وهو فيلسوف يهودي متدين، على ذوبان الديانة اليهودية وفرادتها في المسيحية وأوروبا، لأنه يعتبر أن هذا الذوبان يشكّل جزءًا من «عملية أيديولوجية ذات نطاق واسع»[14] تهدف إلى فرض أمر «الدفاع عن الغرب».

---

(9) ولد ليفي لعائلة سفاردية يهودية ثرية في الجزائر في 5 تشرين الثاني/ نوفمبر 1948 في مدينة بني صاف الجزائرية إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر. انتقلت عائلته إلى باريس بعد شهور من ميلاده. درَس الفلسفة في جامعة فرنسية راقية ودرّسها في ما بعد، واشتهر كأحد «الفلاسفة الجدد»، وهم جماعة انتقدت الاشتراكية بلا هوادة واعتبرتها «فاسدة أخلاقيًا»، وهو ما عبّر عنه في كتابه الذي تُرجم إلى لغات عدة تحت عنوان: *La Barbarie à visage humain* (**البربرية بوجه إنساني**). معروف بصهيونيته الشديدة الكره للعرب والمسلمين. (المحرر)

(10) مؤرخ وصحافي فرنسي (1950 -)، متخصص بالعلاقات الدولية. من أصل يهودي ألماني- روسي، عاشت أسرته في تركيا مدة من الزمن، وهي تنتمي إلى الأسر الدينية الحاخامية (كوهن). تنقّل بين عدد من الصحف الباريسية المهمة، وهو يفتخر بانتمائه إلى الماسونية الفرنسية. (المحرر)

(11) فيلسوف ومؤرخ لأفكار وباحث سياسي فرنسي مولود في عام 1946. يشغل منصب مدير البحوث في المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي. وهو من أب روسي وأم من أصل بولندي. اهتم منذ صغره بالثقافة اليهودية (خصوصًا الموسيقى)، على الرغم من أنه ليس يهوديًا. درس الفلسفة والسيميائية واللسانيات في جامعة باريس العاشرة (نانتير). تعمق لمدة عامين (1967-1968) في دراسة فكر فريدريك نيتشه. وابتداءً من سبعينيات القرن العشرين، أصبح مهتمًا بظاهرة اليمين الجديد في فرنسا، فدخل عالم التحليل السياسي والاجتماعي. ومن ذلك الحين وحتى الآن، كتب على نطاق واسع حول الأشكال الكلاسيكية من العنصرية ومعاداة السامية وتحولاتها المعاصرة. (المحرر)

(12) كاتب وصحافي ومعلّق إذاعي فرنسي (1948 -). تخصص منذ عام 1985 بالكتابة عن الأدب والحب والحداثة، وأثار مساجلات كثيرة بسبب حدة مواقفه في موضوع دفاعه عن الصهيونية وهجومه على العرب والمسلمين، وهو أول من دعا إلى منع الحجاب في المدارس (في عام 1989). وقف منذ حرب 1973 مع الكيان الصهيوني، وصار يدافع عن سياسات إسرائيل كلها. (المحرر)

(13) فيلسوف ودارس للتلمود، ولد في باريس في عام 1973 واشتهر بانتقاده للفلاسفة الجدد الفرنسيين وللمثقفين الذين يسميهم «الجماعاتيين»، أمثال أدلر وفينكلكراوت وتاغييف وغيرهم، لجهة ما يسميه تيار «محبي السامية» الذي يعمل على تذويب اليهودية في مخطط الدفاع عن الغرب وإفقادها - بالتالي - فرادتها وحيويتها كديانة. (المحرر)

(14) الفقرات عن نزعة «محبة السامية» (philosémitisme) والاستشهادات من: جاك ماريتان، يتسحاق لاؤر، إيفان سِغريه وعاموس عوز هي من كتاب ألان غريش: Alain Gresh, *De quoi la Palestine est-elle le nom?* (Brignon; Paris: LLL, les liens qui libèrent, 2010).

تبدو هذه الكذبة خطِرة؛ فالوقائع والمقارنات بين معاداة السامية ورهاب الإسلام متعددة. وكتب إيلان يقول: «لدينا النية الثابتة، هنا، بأن نبرهن، بعيدًا عن كل استفزاز، على أن رهاب الإسلام، الذي يشبه، مثل نقطتي ماء، خالَته رهاب اليهودية المسمى عادة معاداة السامية، يعمل بالطريقة نفسها، ويؤدي دورًا مشابهًا، وأنه، في الواقع، نمو زائد وتطور. أكثر من ذلك، فإن كل محاولة مواجهة الواحدة من دون أخذ الأخرى تمامًا في الحسبان هي بالنتيجة باطلة، لأن رهاب الإسلام، وهو فئة فرعية للعنصرية بشكل عام، يبدو في الطبيعة الاجتماعية انبثاثًا لمعاداة السامية. وسوف نلتزم بتعقب هذا المسار حتى آخره».

وهو يحدد: «إن رهابيي الإسلام يشبهون، مثل شقيقين توأمين، المعادين للسامية. وهم يفكرون، أو بالأحرى يهذرون، كمعادين للسامية. مع سوء النية نفسها، ومع راحة الضمير نفسها. أكثر من ذلك، وكما يبدو للعيان لأي مراقب محايد - هناك حالة، يجب الاعتراف بها، نادرة جدًا حين يتعلق الأمر ببعض الناس (اليهود) أو ببعضهم الآخر (المسلمين) - تُظهر أن رهاب الإسلام يقوم في المجتمع الحالي بدور مشابه للدور الذي قامت به معاداة السامية في أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية. وهي تعطي الأرضية الأيديولوجيا، الأسمنت الخطابي بين الطبقات الذي يمكن لأشكال الفاشية الجديدة أن تنمو عليه».

يلوّح بعض المراقبين بعنف الإسلاميين لإنكار المشابهة. ويتساءل شارب (Charb)[15]، رئيس تحرير **شارلي إيبدو**، في رسالته الأخيرة عن فوبيا الإسلام التي تحولت لعبة في يد العنصريين[16]: «في عام 1931، هل كان هناك إرهاب عالمي ينسب نفسه إلى اليهودية الأرثوذكسية؟ هل هدد جهاديون يهود بفرض ما يشابه الشريعة في ليبيا، في تونس، في سورية، في العراق؟ هل أرسل حاخام، مثلما فعل بن لادن، طائرة لتفجّر نفسها في ناطحة السحاب Empire State؟ [...] في عام

(15) ستيفان شاربونييه (1967-2015)، ويُعرف بـ «شارب». رسام كاريكاتور وصحافي فرنسي. اشتهر بعمله محررًا في مجلة **شارلي إيبدو** عام 2009. وكان معروفًا بالرسوم الكاريكاتورية المثيرة للجدل. قُتل شارب في 7 كانون الثاني/ يناير 2015 بعد الهجوم الإرهابي على المجلة في باريس. (المحرر)

(16) نشر بعد مقتله (المترجمة).

1931، لم يكن التعصب اليهودي مثل ما هو عليه الآن التعصب المسلم في القرن الحادي والعشرين»[17].

على هذا القول، يردّ إيلان، مسبقًا: «هذه الحقيقة الظاهرة، الواضحة، الصاخبة، الدموية للإسلاموية الغبية والشريرة عند القاعدة هي بالتأكيد الحجة النهائية التي تواجه بها المقارنة بين رهاب اليهودية ورهاب الإسلام. لأن جرائم 'الإسلامويين'، المجازر الممنهجة للأبرياء، هي من المؤكد حقيقية، في حين أنه لم يعلن أي يهودي بوصفه كذلك أي جريمة تحوّل المضادين للسامية إلى ضحايا، أو تسمح لهم بأن يقدموا أنفسهم بوصفهم ضحايا. ومن الملائم أن نعيد وضع هذا الاختلاف الظاهر في سياق معاداة السامية بالذات: من المؤكد، لم يضع اليهود 'بصفتهم كذلك'، في أوروبا ما قبل الحرب العالمية الثانية، قنابل في الأماكن العامة. كان 'إرهابيو' ذلك الزمن والإرهابيون والاشتراكيون - الثوريون أو المطالبون بالاستقلال، يمارسون في أسوأ الأحوال الاغتيال السياسي، مع أو من دون 'أضرار جانبية'، وفي نسب تبدو أمام الفظائع الحالية غير خطرة. لكن الخطاب المعادي للسامية الذي كان سائدًا في الرواية النازية، كان ينسب إلى اليهود، من دون أي حاجة لهؤلاء إلى المطالبة بأي شيء 'بصفتهم كذلك'، جميع أعمال العنف الاجتماعي والسياسي التي كانت تهز المجتمع البرجوازي، بدءًا من الشيوعية بحد ذاتها، المتهمة بتحريك الفوضى والرعب في كل مكان». ويتابع إيلان أن اليهود «كانوا متهَمين كذلك بأنهم مسؤولون عن جميع آثام الرأسمالية. يضاف إلى ذلك أنهم كانوا يُعتبرون محرضين على الحرب، وبالتالي مسؤولين عن فظائعها كلها، عن التدمير، وعن موت الملايين من الرجال ومعاناتهم، النساء والأطفال. إذا أضيف هذا إلى الاتهام اللاهوتي المسيحي القديم بقتل المسيح، فإنه سيؤدي، في الخيال الشعبي، إلى قائمة مذهلة من المسؤوليات الجنائية».

برز في فرنسا، على وجه الخصوص، نقاش يدور حول محبة السامية في الدول

---

(17) Charb, *Lettre aux escrocs de l'islamophobie qui font le jeu des racists* (Paris: Les Échappés, 2015).

الغربية[18]. وهو يستحق أن يُدار بعيدًا عن ردات الفعل الكاريكاتورية والاتهامات بمعاداة السامية، التي أفقدتها كثرة تكرارها قوتها كلها[19]. لأن هذه المحبة للسامية ليست إلا شكلًا جديدًا من استبعاد اليهود الذين لم تعتبرهم الحكومات حتى اليوم مواطنين «عاديين»، «بصورة كاملة»، مثل الفرنسيين أو الألمان أو الأميركيين. علاوة على ذلك، وباسم هذه المحبة للسامية، نستطيع، كما كتب إيلان، «أن ندّعي وأن نكتب أن الشعب الفلسطيني ليس موجودًا، نستطيع إهانة الإسلام وإنكار تاريخ الشعوب الأصيلة لثلاثة أرباع الكرة الأرضية، في اللحظة التي نعترف فيها بالمحرقة (النازية) والتسليم بها حادثًا تاريخيًا من المحاكم التي تنتصب حراسًا للحقيقة التاريخية، التي تحميها في آن من البحث ومن المقارنة». سوف نسامح جان ماري لوبان على تجاوزاته حيال الإسلام، على رهاب الإسلام الراديكالي لديه، على تشهيره بـ«الغزوات الإسلامية»، لكننا لا نرضى بأي انزلاق في ما يتعلق بالمحرقة (النازية).

الوضع طارئ هنا، وتوحي الأزمة الاقتصادية والاجتماعية، والبطالة المنتشرة، وصعود اليمين المتطرف في أوروبا بالإشارات المقلقة إلى ثلاثينيات القرن العشرين. ما العمل في هذا السياق، حيث تتواجه كتلة اسمها الغرب وحركات مثل القاعدة وتنظيم الدولة الإسلامية؟ أهو اختيار عدم الانحياز، كما فعلت الدول المستقلة في مؤتمر باندونغ في نيسان/ أبريل 1955، رافضة الخيار بين الشيوعية و«العالم الحر»؟ يجيب إيلان في خلاصته لكتابه: «هناك ضرورة للشعوب، الحكومات، الدول، لكن أيضًا للمجتمعات المسماة مدنية، إذًا وللأفراد كذلك، لعدم انحياز جديد. ومن المؤكد، كما رأينا ذلك طوال هذا التحليل، أن تركيبة الحرب الشاملة الحالية تختلف بما فيه الكفاية عن المواجهة بين الكتل التي كانت مؤثرة في القرن العشرين؛ فالعدو، هنا، غير مرئي. إنها حرب عالمية وشاملة، لكن ضد استيهام، ضد صورة ثلاثية الأبعاد تعكس باستمرار فزاعة

---

(18) يُنظر: Houria Bouteldja, «Racisme (s) et philosémitisme d'Etat ou comment politiser l'antiracisme en France?,» Parti des indigènes de la République, 11/3/2015, at: http://indigenes-republique.fr/racisme-s-et-philosemitisme-detat-ou-comment-politiser-lantiracisme-en-france-3/.

(19) ««Non au philosémitisme d'État»: Un slogan indigne !,» MRAP, 7/4/2015, at: www.mrap.fr.

ينتجها الكمبيوتر. ومع ذلك، تبقى تأثيراتها في المجتمع المعاصر قابلة للمقارنة تمامًا، وتبقى ضرورة رفض منطق الحرب مشابهة بالتأكيد. أولًا لأن التماثل مع هذا أو ذاك من 'المعسكرات' الموجودة أمر مستحيل؛ فالخيار هو ما بين الطاعون والكوليرا». من المؤكد أن هذه الطريق هي الأصعب اختيارًا، والأكثر خطورة، هي الطريق التي نتلقى فيها الضربات من جميع الجهات، ومن مؤيدي كل واحد من هذين المعسكرين، لكنها الطريق الوحيدة التي تسمح باستشعار مستقبل أفضل للإنسانية، ولن يتعجب أحد إن حثّنا إيلان على سلوكها.

توضيح

إن النص الذي نقدمه هنا هو آخر نص كتبه إيلان هاليفي قبل أن يمنعه المرض من الكتابة. وهو كتبه بشكل أساس في عام 2006 وأغناه ببعض الأجزاء حتى عام 2012. وسمح له الوقت بوضع أسس لفكره وبالوصول إلى بعض النتائج، لكنه لم يتح له دومًا عرض الحجج التي استنتجها من الأوضاع، حيث تزامنت ديناميتها وتطوراتها السريعة مع غيابه.

حين تظهر مقاطع كاملة من النص غير مدعومة كفاية بالحجج، أو غير مفصّلة، أو حين تُذكر الأفكار من دون توسيعها، أي بشكل نتف أو أجزاء من جُمل، فإننا قررنا الإشارة إليها بوقف [...]. وتأتي الملاحظات في أسفل الصفحة لتفسّر، لتوضّح، لتكمل أو لتضع في السياق أقوال الكاتب. وقامت ابنته مريم بكتابة هذه الملاحظات، إلا حين تكون الإشارة باسم إيلان هاليفي، وكانت مريم قد عملت معه في كتابه السابق، ومن ثم أوكل إليها إكمال هذه المخطوطة، وكذلك مسؤولية أعماله كلها.

على الرغم من جميع هذه العوائق، بدا لنا أن نشر هذا النص مهم، وإن يكن غير كامل، ويعود سبب أهميته إلى راهنيته ودقّته في التحليل: وهو يمتلك اليوم أهمية خاصة، ويكوّن مفتاحًا متينًا لقراءة أزمات حادة ومتأصلة، متمحورة حول العلاقة بالإسلام.

الفصل الأول

شبح يلاحق قريتنا
إنه شبح الإسلاموية

يقال لنا إن الإسلاموية هي الهوية، هي الراية، هي برنامج الإرهابيين وعقيدتهم، قتلة الأبرياء، واضعي القنابل في الأسواق، في القطارات، في المترو، في المساجد، هي العالم الفكري للطيارين الانتحاريين في 11 أيلول/ سبتمبر. الإسلاموية، المسماة أحيانًا التمامية (Intégrisme)، أو الأصولية (fondamentalisme، عند الناطقين بالإنكليزية)[1]، هي في قلب ما سمّاه جورج بوش [الابن]، بعد هجمات نيويورك وواشنطن، «محور الشر». وكان رئيس أميركي آخر قد أطلق على المحور السوفياتي قبل عشرين عامًا، اسم «إمبراطورية الشر».

في إعادة بناء الواقع هذه، وهي عملية راعبة تدسها هذه التسميات وتنشرها، يكمن خطر رهيب يهدد البشرية، يهدد حرياتنا والحضارة بشكل عام، فوجب إما مقاومة نوع العبودية هذا، وهو الأكثر إذلالًا، وإما الخضوع له؛ لأن الكراهية التي يغذيها الإسلاميون ضد الإنسانية بشكل عام والغرب بشكل خاص ليست، كما يقال لنا، نتيجة عمل ما أو تفاعُل بينهم وبين باقي العالم، بل نتيجة برنامج جوهريًا، وبمعنى آخر، نتيجة طبيعتهم.

---

(1) ظهرت جذور التعبير أصولية (Fundamentalism) الأنغلوساكسوني في نزعة دينية داخل البروتستانتية الأميركية للقرن التاسع عشر. والأصوليون هم عمومًا محافظون يريدون تعديل أو تكييف الممارسات والسلوك الفردية وفق القيم الدينية. والأصولية تعني «الرغبة في العودة إلى النصوص التأسيسية للدين فحسب، عبر تجاوز جميع مساهمات التاريخ والفلسفة وتراث الرجال». وفي حين أن الأصولية ليست في حد ذاتها راديكالية أو ثورية سياسيًا، فإنها مع ذلك لا تزال تحمل فكرة القطيعة مع المجتمع المعاصر الذي يُبعد المؤمن (عبر إغراءاته وانحرافاته الأخلاقية) عن واجبه الوحيد والحقيقي القادر وحده على ضمان الخلاص (في هذا العالم وفي العالم الآخر). والأصولية التمامية (Intégrisme) مصطلح يعبّر عن وجهة نظر ليبرالية كاثوليكية فرنسية للقرن الثامن عشر، وبالتحديد من الأوساط الكاثوليكية التقدمية لفرنسا الثورية، وكان يستهدف، من باب التحقير، أولئك الذين قاتلوا ضد انفتاح المسيحية الاجتماعي والسياسي باسم كاثوليكية رومانية تامة (من هنا التسمية: التمامية). يستخدم المؤلف التعبير الفرنسي وهو يقصد الأصولية عمومًا على اختلاف تنوعاتها وتفريعاتها. من هنا أبقينا على ترجمتها بالأصولية فحسب من دون التمامية. (المحرر)

يحمل النفور الذي يؤدي إليه هذا الهاجس، وفي الوقت نفسه يحويه، اسمًا: يُسمى رهاب الإسلام، أي الكراهية (يعني الرهاب، لغويًا، ما يجعلنا نهرب، أي الابتعاد هربًا) للإسلام. وفي شأن هذا الهاجس ننوي أن نبحث هنا: في محاولة لعرض نشأته ورؤية نتائجه.

انتبهوا جيدًا: [الكراهية] ضد الإسلام لا ضد الإسلاموية. وسوف نعود إلى هذا التمييز، وإلى هذا الخلط، حيث يخضع الإسلام لسلسلة طويلة من المفاهيم المغلوطة؛ فحين نقول الإسلام، ولا نقول الإسلاموية فحسب، نعني بذلك المسلمين لا الإسلاميين. هل يمكن أن نعلن آراء ضد الإسلام، مهما تكن (هذه الآراء)، من دون أن ترتد هذه على الفكرة التي نملكها عن المسلمين الحقيقيين، وبالتالي ترتد كذلك على تصرفات المسلمين وعلاقاتهم بالآخرين؟ تحوي طيات هذه الانزلاقات اللغوية وتتابعها سلسلة من الأخطار التي لا نقدّر كفاية عواقبها الجسيمة، وهذه الآلية بالذات هي التي ننوي مقاربتها لأننا نعتقد أن من المهم التنبيه إلى مخاطرها، في نظام الخطاب، وإيضاح الأشياء وفهمها كما في نظام الممارسة الاجتماعية.

هكذا، ومنذ البداية، نُقرُّ بحدود كلامنا البعيد عن التجريد وعن التجرد الذي تتطلبه الدقة العلمية من المؤرخ والباحث بشكل عام. لكن الاعتراف بأن هذا الوضع بات ملحًا يعطي بالتالي شرعية لهذا الكلام، لأنه يتعلق بالحرب، بالموت، بالعذاب وبالضرورة المطلقة لمقاومة هذا كله.

لئن كنتُ مصرًا على هذا البُعد العملي، فلأن الأمر لا يتعلق بآراء ماورائية (ميتافيزيقية) ولا بخلق العالم أو بجنس الملائكة. زد على ذلك أن تاريخ البشرية سجّل مجازر كثيرة كانت تُرتكب بحجة هذا النوع من الخصومة المزعومة دينيًا، إلا أننا نعرف اليوم حروبًا جيوسياسية تقتل الآلاف عبر هذا الصراع الذي أصبح عالميًا. وفي الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور [2006]، ثمة تغيرات كثيرة؛ إذ تجري تقلبات في التوتر الأميركي - الإيراني، وعدم قدرة التحالف الأميركي - البريطاني على تحويل احتلاله لأفغانستان إلى حل سياسي، وزعزعة الاستقرار في باكستان، وغرق العراق الذي لا ينتهي في الرعب المطلق، وتفاقم الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني، وإضعاف لبنان على نحو مستمر، قبل العدوان

الإسرائيلي عليه وبعده في صيف 2006، ضد سكان قطاع غزة - كي لا نذكر إلا نقاط التعقيد الأكثر بروزًا في أزمة المنطقة التي تُستعمل فعليًا كبؤرة تُرمى فيها تناقضات المجتمع الدولي - وهي تعبّر جميعًا عن الوجود الكلي لهذا البُعد[2]. وعلى الرغم من الاختلاف الفرنسي، ومن القبول الفرنسي للعلمانية، وهو الوحيد في العالم، فإن الجدال، أو بالأحرى الانفعال الذي أشعلته مسألة **الحجاب** (وهو المنديل المسمّى خطأ «الحجاب الإسلامي») في فرنسا، ومنعه في المدرسة أولًا، لكن حاليًا في المستشفى وربما، قريبًا، كما يطالب بعض الناس، في الأمكنة العامة عمومًا، للموظفين كما للمستخدمين، يدخل في هذا السياق للعولمة، حتى ولو كان هناك إنكار لهذه الحقيقة البديهة من أغلبية المشاركين في هذا النقاش المغطى بمظاهره الوطنية والجمهورية[3].

كي نتجنب أي التباس، نستعيد بشكل موجز سوابق رهاب الإسلام وتاريخه في الغرب الأوروبي. سنهتم به بإيجاز، لأن المهم لدينا قبل كل شيء هو مظاهره المعاصرة، والمظاهر الحالية منه بشكل خاص. لكننا لا نستطيع استبعاد الخلفية التاريخية لمجال فهمنا له، بوصفه أساسًا موجودًا سابقًا وأرضية صالحة لتركيبات حديثة العهد للخيال الجماعي.

منذ الفتح العربي للقدس، في القرن السابع الميلادي، حتى سقوط بيزنطية، ومن معركة بواتييه [في عام 732] حتى معركة ليبانتو [في عام 1571][4]، مرورًا

---

(2) يمكننا كذلك ذكر حملات القتل الإسرائيلية في كانون الأول/ ديسمبر 2008 - كانون الثاني/ يناير 2009 («الرصاص المصبوب»)؛ وكذلك في عام 2012 («عامود السحاب»).

(3) هكذا يمكن أن نقرأ، وبقلم ريكاردو غوتيريز، في 26 أيار/ مايو 2007، لمناسبة تقرير نشرته الجامعة الكاثوليكية في لوفان (بلجيكا) حول أسباب النفور من الحجاب، أن لبس الحجاب ترفضه غالبية سكان الوالون (Wallon) وبروكسل، وأن العنصرية السائدة هي السبب في ذلك: اعتبر أكثر من نصف الأشخاص الذين سئلوا أن الحجاب ليس «ضد تيار المجتمع الحديث». وكل فرد تقريبًا من أربعة أفراد لا يتحملون وجوده في الطريق العامة. ويعتبر قرابة سبعة أشخاص من عشرة أشخاص الحجاب رمزًا للخضوع، ورمزًا مضادًا للغرب (31 في المئة منهم)، وحتى استفزازًا (23 في المئة). وبالكاد رأى واحد من خمسة أنه تعبير عن الحرية.

(4) معركة ليبانتو من أكبر المعارك البحرية في التاريخ، انتصرت فيها «العصبة المقدسة» المكوَّنة من أساطيل إيطالية وإسبانية وفرنسية على الأساطيل العثمانية. (المترجمة)

برولان في رونسوفو، أُعطي العربي، المور (Le Maure)، السرازان[5] (Le Sarrasin)، التركي، المغولي، الأفغاني صورة للمسلم، العدو، متعددة الأشكال، لكنها ذات نمط واحد؛ عدو مطلق: موروث، تنشب ضده معركة لا مكان فيها للوجود معًا، في حرب للسيطرة التامة على الأرض، متأرجحة هكذا بين التطهير العرقي عبر طرد الشعوب وإبعادها، أو إبادتها ببساطة. وبدأت تلك المواجهة بالفتح العربي للهلال الخصيب وشمال أفريقيا، واستمرت عبر خمسة قرون من الانتصارات في إسبانيا، وألف عام من الانتشار السلافي، حققته الحروب الصليبية، قبل أن تبلغ أوجها في حروب الغزو الاستعماري.

اعتُبرت تلك الحروب، وخلال قرون، حروبًا مقدسة. وعلى كلا الجانبين، تخاض المعارك تحت راية الدين وتصبح إبادة الآخر مهمة مقدسة. ويبدو موقف الغرب المسيحي تجاه الإسلام مختلفًا عن موقفه تجاه «السكان الأصليين» في أفريقيا و«الهنود» في العالم الجديد، حيث ينافس المنطق التبشيري المصلحة الاقتصادية[6]. لكنها ليست، مع ذلك، حروبًا تتعلق بالآخر وتقصده. إنها لا تحاول هدايته ولا إخضاعه لأي مشروع اقتصادي، بل تهدف إلى طرده وجعله يختفي من الوجود. ولم يستطع الخطاب «الممدِّن» أن يتغلب على (خطاب) الحرب التي كانت تُخاض باسم الدين، الحرب من أجل الله ومملكته «الدنيوية» على الأرض، إلا بعد الثورة الفرنسية، ومع التوسع الاستعماري الحديث.

انتهى القرن التاسع عشر، وحتى بداية الحرب العالمية الأولى، بتقطيع الإمبراطورية العثمانية، أي النسخة النهائية للدولة الإسلامية المتعددة الجنسيات،

---

(5) المور، ويسمون كذلك البرابرة (Les Berbères) في القرون الوسطى. كما أن السرازان تسمية للمسلمين. والبرابرة اسم جنس ذو أصل لاتيني أطلقه الإغريق على كل من لا يتكلم الإغريقية "برباروس"، واستعاره الرومان وأطلقوه على جميع الأجانب من القبائل الأوروبية والأفريقية. (المترجمة)

(6) إيلان هاليفي: هكذا، حيث اكتشف الراهب اليسوعي بارتوليمي لاس كازاس أن الهنود في المملكة الإسبانية يملكون روحًا، لذلك قام بحملة لجعلهم يعتنقون الكاثوليكية ولتحريرهم. اقترح على المستوطنين، المزارعين ومديري المناجم الذين كانوا يستعبدون الهنود (الحمر)، استيراد الأفارقة (لأنه كان يعتبر أن هؤلاء لا يملكون روحًا خالدة)، وهكذا يُحتفى بهذا الراهب الصالح في أميركا اللاتينية بوصفه مدافعًا عن الهنود، أما في المسيسيبي، فيُعتبر مخترع العبودية!

التي سُميت «رجل أوروبا المريض». وكان الغزو الأوروبي، الفرنسي والبريطاني بشكل خاص، للمناطق الإسلامية، في أفريقيا وفي الشرق، ردًا على دعم القوى الأوروبية وتعاطف الشعوب الأوروبية بالذات مع حركات تحرر الأمم «المسيحية» الخاضعة لنير العثمانيين، وهذا صحيح، ولا سيما بالنسبة إلى اليونان، لكنه صحيح أيضًا بالنسبة إلى المقدونيين، البلغار، الصرب في كوسوفو، الألبان ...إلخ.

في الواقع، تؤدي الحروب الاستعمارية بشكل مباشر إلى حروب التحرر من الاستعمار، مع قرن أو قرن ونصف من الهيمنة، تتخللها انتفاضات وقمع، ثورات تُسحق وأحقاد تتجمع، أحزان لا تنتهي وضروب من الظلم. وهذه الأخيرة تفلت من العقاب لتصبح جزءًا من خسائر التاريخ وأرباحه.

في النصف الثاني من القرن العشرين، ومع التحرر السياسي من الاستعمار في البلدان الإسلامية، سيقوم العامل المهاجر، المغربي في فرنسا، التركي في ألمانيا، الباكستاني في إنكلترا، الليبي أو الإريتري في إيطاليا، الذي كان في أغلب الأحيان مسلمًا، برسم صورة للآخر جديدة وقديمة في آن معًا، ويعطي أرضية اقتصادية - اجتماعية جديدة للرهاب الذي تحدثنا عنه. هذا كله، ولنتذكر جيدًا، جرى في أثناء ثلاثة عشر قرنًا، ما يترك، على أي حال، آثارًا في ذاكرة المجتمعات: وذلك قبل فترة طويلة من سقوط الشاه في إيران، وقبل الغزو السوفياتي لأفغانستان، قبل ولادة «حماس» في فلسطين و«حزب الله» في لبنان، وقبل اختلاق «القاعدة» وتثبيتها، وقبل الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001.

على هذه الأرض، وهذا السماد العضوي (وهذا ما نسميه خجلًا الزبل) ينبت، ومنذ أكثر من ثلاثين عامًا، لكن بشكل متسارع خلال العقد الأخير، ما سمّيناه، باصطلاح لغوي، رهاب الإسلام الجديد. ومع ذلك، سيطلق خطاب الحرب الجديد هذا مفاهيم ومفاتيح كلمات تذهب موضوعاتها إلى أبعد من عناوينها. وحين ذكر ماركس وإنغلز، في **البيان الشيوعي** في عام 1848، طيف الشيوعية، كان ذلك للدفاع ولتوضيح هذه الأخيرة. وإذا استثنينا الفترة 1914-1946 (العصيبة)، فإن تاريخ القرن العشرين أظهر أن العالم مقسوم وفقًا لخطوط هذا التقسيم. وجرى بناءً على المواجهة بين دول تنسب نفسها بصراحة إلى الشيوعية

وأخرى عازمة على استئصال هذه بالقوة، ومارست كل كتلة جميع أنواع الضغط لفرض اصطفاف مطلق من الجميع، «إما معنا وإما ضدنا»، في منطق للمواجهة، حيث اللين يُعتبر خيانة أو تعاونًا مع العدو وتواطؤًا مع الجرائم الرهيبة التي يتهم كل معسكر الآخر بها.

هنا، تصبح اللغة، من ناحية أخرى، ملغومة، لأن العدو، وكما يعتبر قادة الأوركسترا الأساسيون في هذه الحرب العالمية، ليس الإسلام، بل الإسلاموية. غير أن هذه الإسلاموية، المتمثلة في الإرهاب، هي عدو بلا وجه، على صورة هؤلاء الرجال المتخفين وراء قناع الذين يظهرون ويعرضون أنفسهم أمام كاميرات وسائل الإعلام التابعة لأعدائهم المفترضين. وبالطريقة نفسها، حيث لا يدّعي أي مجرم حرب أنه «إرهابي»، لأنهم يدّعون جميعًا أنهم ارتكبوا جرائمهم باسم المثل الأكثر نبلًا، فإن أيًا من أولئك ذوي الوجوه المخفية أمام الكاميرا لا يعلن أنه «إسلاموي»، لأنهم جميعًا يدّعون تجسيد الإسلام تمامًا، رامين كل إسلام آخر في الغياهب الخارجية للجاهلية أو في التعدي (على الإسلام)، مؤسسين بهذا للانحراف المفهومي المذكور سابقًا.

لنؤكد إذًا، على الفور، أن اللغة هي ملغومة هنا، وأنه يجب علينا أن نستعيد كل شيء منذ البدء، مع طموحنا بأن نضرب صفحًا عن كسل الفكر وعن الاستعمال السائد للأفكار المسبقة والتخمينات؛ ففي مجال العنف الممارَس، لا يُعتبر أولئك الذين يتهمهم أعداؤهم المعلنين بالإسلاموية أنهم كذلك، في حين أن الذين هم الأكثر التزامًا في هذا الصراع الأيديولوجي ضد هذه الفزاعة يؤكدون أنهم ليسوا أبدًا مصابين برهاب الإسلام، بل إنهم يضيفون أن هذا الرهاب ليس موجودًا - إلا بوصفه كذبة اخترعها الإسلامويون أنفسهم كي يقدموا أنفسهم بصفتهم ضحايا، في حين أنهم هم من يهدد حياة غير المسلمين وحريتهم (إضافة إلى حياة المسلمين غير الإسلامويين وحياتهم).

إذًا يجب طرح هذا السؤال: هل الإسلاموية موجودة؟ لنتساءل، هل هي موجودة كظاهرة وحيدة، كموضوع فريد، خارج الإسلام **بحد ذاته**؟ ألم يكن الباحثون الأوروبيون المتخصصون بالإسلام هم أول من اختلق هذا المفهوم؟

أليسوا هم من خلقوا، بشكل منافس وإضافي، مفاهيم الإسلام السياسي (كما لو أنه يوجد إسلام غير سياسي أو لاسياسي، وكما لو أن الإسلام لم يعتبر نفسه قط دينًا ودنيا ودولة[7])، وكذلك الإسلام الراديكالي، وأخيرًا الجهادوية (jihadisme)، وبعد ذلك، مؤخرًا، الفاشية الإسلامية؟ أليس الإسلام، كما يقول كثيرون، بدءًا بالبابا بينوا السادس عشر[8]، هو الذي يطرح المشكلة في الأساس؟ وإذا كان هذا صحيحًا، فما هي المشكلة؟ وبالنسبة إلى من هي مشكلة؟

عقب انتهاء الحرب الباردة، ما إن طُرد شبح الشيوعية بشكل قاطع، حتى ظهر الإسلام في الواقع نظامًا مطلقًا ووحيدًا ومنافسًا ومختلفًا. ويبدو أن ليس هناك من يقف في وجه الهيمنة الأميركية والأورو - أميركية، غيره - فلا الشيوعية الصينية، الفيتنامية، الكورية الشمالية أو الكوبية، ولا حتى شعبوية هوغو تشافيز القومية، أو علمانية الرئيس البرازيلي لولا المعتدلة - تبدو جميعًا نظمًا منافسة وكاملة، وكحضارة مختلفة، يُنظر إلى منافسها وكأنه همجي. وحين انتقلت إمبراطورية الشر، كما سمّى ريغان المعسكر السوفياتي آنذاك، إلى محور الشر عند جورج بوش الابن، ومن ثمّ مع الإسلام (وية) كعدو جديد كليّ وبديل، بدا أن رهاب الإسلام استقر في هذا العصر في الدور الذي كانت معاداة الشيوعية تؤديه في القرن العشرين.

---

(7) كتب الكاتب هذه الكلمات بالفرنسية، لكن كما تلفظ بالعربية مع شرحها بالفرنسية. (المترجمة)

(8) المقصود هنا هو البابا بندكتوس السادس عشر: ولد باسم جوزيف راتزنغر، درس الفلسفة واللاهوت، وأصبح محاضرًا في جامعات ألمانية عدة، وسيم كاهنًا في عام 1951، ثم أصبح خلال حبرية البابا بولس السادس رئيس أساقفة ميونيخ ثم كاردينالًا في عام 1977. انتقل لاحقًا، في عام 1981، إلى روما، حيث أصبح رئيس مجمع العقيدة والإيمان، أحد أهم مجامع الفاتيكان، وظلّ رئيسًا له حتى انتخابه حبرًا أعظم في عام 2005. يُعتبر من المحافظين في الكنيسة الكاثوليكية في تعليمه اللاهوتي والاجتماعي. يشير المؤلف هنا إلى محاضرة البابا في ألمانيا يوم 12 أيلول/ سبتمبر 2006، حين تطرق إلى موضوع «آيات القتال» في القرآن، واستشهد بنص تاريخي لحوار دار بين الإمبراطور البيزنطي وأحد المفكرين الفرس حول دور النبي محمد، يقول فيه الإمبراطور إن النبي «أمر بنشر الدين بالسيف». في 25 أيلول/ سبتمبر 2006 التقى البابا سبعة عشر سفيرًا من سفراء الدول الإسلامية المعتمدين لدى الفاتيكان، وألقى فيهم خطابًا أبدى به أسفه من تداعيات الموقف، وأكّد الجوانب المشتركة بين المسيحية والإسلام، وشكّل ذلك بداية أفول التظاهرات الاحتجاجية التي عمت العالم الإسلامي بعد خطابه المثير للجدل. استقال البابا في 28 شباط/ فبراير 2013 نتيجة تقدّمه بالسن، ليكون أول بابا يستقيل منذ ستة قرون. (المحرر)

في موازاة هذا التحول في النظرة الأوروبية والأميركية إلى الإسلام بوصفه بيئة ثقافية، وهي نظرة جعلت من حليف الأمس المحافظ العدو الإرهابي الحالي، برز خليط من التيارات النيو - إسلامية تتلاعب بها إلى حد ما دول عدة، منتجة في أغلب الأحيان بشكل مستقل خطابات كاريكاتورية، وحتى ممارسات إرهابية لامركزية(9).

هكذا، لا يمكن أن نقلل من شأن مركزية التجربة الأفغانية، حيث غذّى خبراء غير مسؤولين في الاستخبارات الغربية الوحوش الذين سوف ينتقدونهم علنًا بعد ذلك، أي بعد أن يستخدموهم فترة، ويلعنونهم ومن ثم يرمون بهم إلى الكلاب. وقد أُخذ مفهوم «الأصولية» (Intégrisme) من معجم الكاثوليكية، حيث يعارض تيار يُطلَق عليه اسم «أصولي»، ومنذ عقود تحديث الكنيسة، خصوصًا التخلي عن إقامة القداس باللاتينية. وكما هي كلمة أصولية (fondamentalisme) بالإنكليزية، تبدو الأصولية (التمامية) أول وهلة بعيدة عن هذا الانزلاق، حيث تشير إلى أصناف عامة خارج الطوائف. غير أن «مفهوم الأصولية» يُعيدنا إلى تشدد متمسك بالتقاليد (تزمت) وليس، كما في أغلب الحالات التي تهمنا، إلى مذاهب لاهوتية جديدة متمردة. لكن وبشكل خاص، حين تكون الأصولية الوحيدة، أو حتى الأصولية «الأساس»، المعرضة لنفور الجماهير هي الأصولية الإسلامية، يصبح الرجوع إلى تصنيفات تشتهر بالعالمية أمرًا مفضوحًا. وهكذا، يمكن استدعاء الأصولية التمامية، وهو ما يبدو بريئًا أول وهلة، أن يُستعمل ذريعةً لرهاب الإسلام.

يقول المصابون برهاب الإسلام الذين يرفعون الصوت ضده إن تهمة رهاب الإسلام لا تستند إلى شيء، لأننا لسنا ضد إسلام متعقل (وهذا يعني وفقًا للصيغة الفرنسية إسلامًا جمهوريًا وعلمانيًا)، لكن ضد الأصولية الإسلامية التي تضطهد

(9) إيلان هاليفي: هذا، على ما يبدو، ما حدث في لندن، حيث خُطِّط للهجومات الإرهابية، ونفّذتها (بشكل سيئ) مجموعة صغيرة محلية استوحت عملها من تنظيم «القاعدة»، ودبّت فيها الحماسة عند سماع الخطب العامة لهذا التنظيم، من دون أن يكون لها صلة عضوية بالمركز. وهذا ما حدث كذلك، منذ أكثر من عقدين، عند اغتيال الرئيس المصري أنور السادات الذي راح ضحية مؤامرة حاكها بعض الأفراد المعزولين الذين كانوا يتماهون مع حركة الإخوان المسلمين وخطابهم ومنطقهم. هذا ما جرى على كل حال، بحسب الرواية الرسمية.

النساء والأقليات فحسب، وتقتل مئات الأبرياء، والتي تهدد حرياتنا. وفي طيات هذا الطرح، نقرأ أنه إذا كان الإسلام الراديكالي سيئًا بشكل راديكالي، فإن الإسلام المعتدل سيئ بشكل معتدل.

أصبح الخلط بين الأصولية الإسلامية والإرهاب عقيدة عالمية منذ 11 أيلول/ سبتمبر 2001، وصار في قلب هذه التركيبة. كانت هذه الوظيفة التاريخية الأخرى لتنظيم القاعدة، وهي كانت بؤرة واشنطن لتجنيد المرتزقة والمتطوعين المسلمين لطرد السوفيات من أفغانستان. وهذا أسامة بن لادن، الذي صرفه أسياده في الاستخبارات المركزية الأميركية (CIA) بسبب الحرب الباردة ليتحول إلى فزاعة، والعدو رقم واحد، وليؤدي بالنسبة إلى مجموع الحركات السياسية التي تدّعي الإسلام الدور الاستفزازي والمخرب الذي أدته الجماعة الإسلامية المسلحة في الحركة الإسلامية الجزائرية، أو جماعة أبو نضال في الحركة الفلسطينية: دور شديد الضرر، حيث لا يتردد المنادون بنظرية المؤامرة والمفهوم البوليسي للتاريخ عن اتهامهم بأنهم عملاء يحركهم بشكل مباشر أعداؤهم المزعومون!

من جهة ثانية، لم يتوقف منذ عام 2001 التدهور الكلامي والمفهومي عن التصاعد، وكانت تغذّيه جرائم مريعة ومجازر تطاول الأبرياء يقوم بها وينفذها من يدّعون الإسلام أو من يقدمون أنفسهم وكأنهم يملكون حق التصرف في مصير الشعوب المسلمة. هكذا استطعنا الانتقال من طلائع وكشافة رهاب الإسلام في الأدب ووسائل الاعلام، أمثال فالاشي (Fallaci) وهويلبك (Houellebecq) وإمبرت (Imbert)[10] وآخرين من الأوائل، إلى رئيس الولايات المتحدة الذي أخذ على عاتقه الخطاب المعادي للإسلام كله، وإلى تشجيع من نشروا رهاب الإسلام وكانوا الأكثر بذاءة في صفوف قادة الفكر عند النخب الغربية.

لا يمكننا إنكار أن انتخاب باراك أوباما رئيسًا للولايات المتحدة الأميركية أضعف كثيرًا هذه النزعة الثقيلة، إن لم يكن قد غيّر مسارها. وهذا ما يوضحه خطاب القاهرة، بعد خطاب أنقرة - وهما خطابان يبدو أنهما يسيران في اتجاه

(10) صحافيون وكتّاب كانوا أول من كتب عن الإسلام بشكل منحاز وحاقد. (المترجمة)

معاكس لدور عالمي لم يتغير بتاتًا في الواقع، من أفغانستان حتى فلسطين. ومع ذلك، ليس هذا المنعطف الوهمي مؤكدًا لا من حيث الفاعلية ولا من حيث المدة، ويمكن، لأسباب متعددة، ألّا يكون إلّا حادثة، وحتى حالة عابرة، في استمرارية السياسات المحافظة جدًا، لأن جماعات الضغط الداعية إلى الحرب، الذين لا يمكن أن يزدهروا إلا بوجود عدو، حتى ولو توجّب عليهم اختراعه، لم يختفوا ولم يفقدوا أسلحتهم. وهناك إشارات كثيرة كذلك عن الحذر الأوروبي، سواء على مستوى الحكومات أم في داخل المجتمعات ذاتها، تجاه اللحاق بالرئيس الأميركي إلى حد الرفض المعلن لرهاب الإسلام. إن الضرورة الملحة لوعي هذه الظاهرة، وطبيعتها ونتائجها، لم تختف إذًا، لأنها تلتحق بعملية طويلة الأمد، يمكنها أن تمر بتقلبات، أن تتباطأ أو تُسرع، من دون أن تُلغى مع ذلك.

لعل من المفيد إنشاء قائمة مختصرة لأشكال رهاب الإسلام وتياراته المختلفة، وحتى للتناقضات بين بعض هذه التيارات، من دون إعداد دليل للطوائف والأندية المصابة برهاب الإسلام؛ لأن ما هو مقلق، في هذا الصدد، أكثر من نشاط المراكز المتخصصة، هو رهاب الإسلام الزاحف، الخفي، الرخو، رهاب نيرانه كامنة، نيران راحة الضمير... ولنتذكر، في هذه النتف الإحصائية، أن علينا ترك مكان لرهاب الإسلام داخل العالم الإسلامي بالذات.

هناك بالتأكيد الخطابات الطائفية السنية المضادة للشيعة، أو الشيعية المضادة للسنّة، وهي التي تلجأ بشكل منهجي إلى أسوأ القوالب النمطية لرهاب الإسلام من أجل تحقير صورة الجماعة المعادية. وهناك أيضًا، وبشكل خاص، رهاب الإسلام الذي يُستعمل في الخارج وتختبئ خلفه الأنظمة المضادة للشعوب في المجتمعات المسلمة، وتُستعمل ببذاءة الديماغوجية الدينية الأكثر محافظة، مستندة إلى محسوبية المؤسسات الدينية. هذا ما استطعنا مشاهدته على مدى عقود عدة في مصر وسورية، وكانت هي الحال كذلك في العراق في عهد صدام حسين.

من المؤكّد أن في أوروبا والولايات المتحدة رهاب الإسلام لدى المسلمين

«الجيدين»، لدى بعض المتحدرين من بلاد المغرب (Les Beurs)[11] والمحترفين الذين يدورون في فلك السلطة أمثال بعض الجزائريين الإلغائيين. وثمة من يذكرنا بما سمّاه الأفارقة الأميركيون العم توم: تلامذة جيدون يملؤهم احتقار «جماعتهم» الأصلية، ما يسمح لهم بالنقد من دون أي مجاملة.

يوجد حتى رهاب إسلام صادق غير باحث عن مصلحة عند الفئات الحداثية داخل المجتمعات والجماعات المسلمة المهاجرة، التي تعتبر أن وضع يد الأحزاب الدينية على السلطة في الدول يشكل خطرًا مباشرًا على الحقوق المكتسبة، خصوصًا حقوق المرأة، وهو إضافة إلى ذلك ارتداد ثقافي. هنا، يتغذى رهاب الإسلام من الينابيع الأكثر احترامًا، لكنه يقع مع ذلك، وفي أغلب الأحيان، في تراتبية عملية للأولويات تنتج منها أنظمة تحالفات تجعله في وضع ملتبس، أو بالأحرى صدى يعكس السياق العام بشكل كبير؛ لأن منذ 11 أيلول/ سبتمبر، وكما كُرر لنا بصورة كافية، ما عاد العالم هو نفسه، ولا شيء سيكون أبدًا كما كان سابقًا.

ذكّرنا سابقًا، أن «القاعدة» كانت في الأصل من صناعة الـ CIA لمحاربة الاحتلال السوفياتي لأفغانستان. وكان على هذه خلية العمليات أن تحل محل التحالف العالمي المضاد للشيوعية، وهي متجر للدعاية كان قد استقبل داخله الناس الأكثر رجعية، والأكثر فاشية من بقايا الحرب العالمية الثانية، بمن فيه بعض السوريين والعراقيين والمصريين الذين كان لديهم حنين إلى محاولات التحالف المضادة للبريطانيين مع الرايخ الثالث، ما كان يضيف طلاءً عصريًا على أصوات أسيادهم ومعلميهم الوهابيين. وكانت هذه الجبهة تحافظ حتى ذلك الحين على علاقات ملتبسة ومتناقضة مع الإخوان المسلمين، في مصر وغيرها، مشجعة إياهم على الوقوف ضد أنظمة عدم الانحياز أو الأنظمة القريبة من السوفيات، وكانت تقمعهم في الدائرة الخاصة لسيطرتهم. وكان على هذا التحالف أن يبلغ ذروته مع الغزو السوفياتي لأفغانستان بالتزامن تقريبًا مع الثورة الإسلامية في إيران.

---

(11) بور (Beur) مصطلح عامي فرنسي يُطلَق على الأشخاص المولودين في فرنسا لوالدين مهاجرين من شمال أفريقيا. يُستعمل المصطلح أيضًا في دول أوروبا الغربية الأخرى، مثل بلجيكا وهولندا والمملكة المتحدة. يأتي مصطلح بور من عكس حروف كلمة arabe التي تعني «العربي» بالفرنسية. (المحرر)

على الرغم من ذلك، تُعرَّف الحرب التي تنمو في ظلّها اليوم «شوفينية الحرب» رسميًا بأنها مواجهة ذات أبعاد عالمية ضد «الـ» إرهاب. **وبالمعنى الدقيق،** فإن الإرهاب هو تقنية حرب مجرمة تمامًا، لكنها للأسف عالمية، تجعل المدنيين أهدافًا لعمليات عسكرية ذات غايات سياسية. إذًا، لا يعود العدو العالمي الجديد دولة أو مجموعة دول، بلدًا، نظامًا أو حزبًا أو حتى أيديولوجيا، وإنما تقنية! حرب شاملة ضد آلات التدمير؛ ضد دواسات غيار السرعة الأوتوماتيكية. فهل يمكننا تصور حرب ضد أسلوب من دون الاهتمام بمعرفة من يلجأ إليها ولماذا؟ يُقال إن طرح أسئلة كهذه هو بحد ذاته خطوة مشكوك في أمرها، لأن «الإرهاب» كما أعلن أثنار حين كان في رئاسة الحكومة الإسبانية، ينبغي ألّا يُفهم أو يُفسَّر، بل أن يُحارب فحسب! صحيح أن واشنطن جعلت الإرهاب مقبولًا بطريقة خاصة جدًا، لأنها تصف، كما رأينا مع الاتفاقية العالمية التي بادرت إلى وضعها بعد 11 أيلول/ سبتمبر، كل عنف «غير مسموح» بأنه إرهابي. غير مسموح به ممن؟ من الدول! المعني بذلك إذًا هو كل طموح يطرح السؤال حول احتكار الدول للعنف، ويصبح بالنتيجة إرهابًا كل عنف من خارج الدولة! وفي هذه الأثناء، يحور الأيديولوجيون، الخبراء والمعلقون، ويدورون حول مفهوم حرب الحضارات، ويمتنعون في الوقت نفسه عن الدعوة إليها. يجب علينا، في هذا الصدد، متابعة تطور لغة واشنطن لنرى كيف انتقلنا، وبعد أعوام، من هفوة بوش حين تحدث عن «الحرب الصليبية الجديدة»، إلى إرهاب «الفاشية الإسلامية». وكان هذا الرئيس، المعروف بحبه لصيغ التعبير، قد أعلن أن الحرب ضد الإرهاب كانت مشابهة للحرب الباردة. بعبارة أخرى، فإن المعني بذلك هو حرب شاملة يُفترض بها أن تعيد تركيب المجتمع العالمي خلال عقود. وبالتأكيد، هناك كوريا الشمالية وكوبا، وهما غير مسلمتين، ويمكن استخدامهما في معرض الفزاعات المقترحة والموظَّفة لإثارة هواجس الجماهير ونفورها. ويمكن دائمًا أن نلوّح بهما كذريعة لنبرهن عن عدم وجود رهاب الإسلام عند الدولة في السياسة العالمية. لكن ما يُعتبر أساسًا هو أن العدو الخفي مسلم.

لتفكيك هذه التركيبة، تبدو اللغة هنا كذلك مهمة. هكذا، تُرجع عبارات الغرب أو الغربيين، التي نستعملها من الضفتين الجنوبية والشرقية عندنا في البحر

المتوسط بالضرورة إلى مخطط حرب الحضارات. وإلى جانب أنها تعيد سياسيًا دمج «كتلة» كانت قد تشققت بشكل واضح حين رفضت أوروبا، بصفتها هذه، أن تساند الغزو الأميركي - البريطاني للعراق، وهي تستعيد لمصلحتها ازدواجية استعمارية في الأساس، فإنها مخطئة تاريخيًا ولا تتوافق مع العلاقات الحقيقية بين الدول والمجتمعات المنقسمة نسبيًا؛ ذاك الانقسام الذي عاش تاريخيًا، لكنه ما عاد بالضرورة حاسمًا، إلا في مجالات الرموز، والتمثلات والمخيال الجماعي، وهي بالطبع لا يستهان بها.

في هذا الإطار لحرب الحضارات، نسمع دومًا الحديث عن ضفة، عن «معسكر» وعن «حضارة» يهودية - مسيحية، يمكن أن نضعها في مواجهة العالم الإسلامي. إنه انقلاب مفارق للمصطلحات في معادلة تاريخية مختلفة تمامًا، حيث إن الغرب المسيحي لا الشرق المسلم هو ما كان منذ الحروب الصليبية، وحتى إعادة الفتح الإسبانية وحتى معاداة السامية الحديثة في أوروبا، قد أظهر أكبر كراهية لليهود واضطهدهم[12].

غير أن الإسلام، وكما يؤكد اليوم الخبراء الملتزمون، ينتج بشكل تلقائي كراهية اليهود، لكأن ذلك معطى جوهري، وكأن الممارسات الإسرائيلية في الشرق الأوسط ليست مسؤولة مطلقًا عن شيء. وسوف نعود كذلك إلى هذه التأكيدات التي تقودنا بشكل طبيعي إلى الانزلاق (المسيطر عليه) نحو الموضوع الثاني في طرحنا؛ ذلك أننا لا نستطيع، في هذه المرحلة، الامتناع عن ملاحظة المشابهات العجيبة التي تضع خطاب رهاب الإسلام المعاصر على أنه صدى لمعاداة السامية، أي إنه شكل أكثر دقة لرهاب اليهودية: ألا ينكر المصابون الأكثر عنادًا برهاب اليهودية حتى وجود معاداة السامية التي ليست في نظرهم إلا صناعة تهدف إلى الشعور بالذنب بما يخص الاضطهاد المختلق والمستحق؟ هذه الازدواجية التي تعبّر في المجال اللغوي والفكري عن ضعف عدم الانحياز النظري نسبة إلى هذه التأكيدات المتقاطعة والمتهورة، تُظهر تمامًا نوعًا من الشلل

---

(12) هناك تيار ما زال مهمًا وسط الكنيسة الكاثوليكية وما زال يغذي هذه الكراهية لليهود، وبالتالي للإسرائيليين، ويبررها وفقًا للأسطورة التي تقول إن اليهود هم المسؤولون عن موت المسيح.

الفكري، وهي كذلك إيضاح من بين كثير من الإيضاحات، لما سميته في مكان آخر «الصورة في المرآة»، وليس العرض الحالي إلا عيّنة منه.

إذًا السؤال المزعج يُطرح من جديد، لكن بشكل مثير: هل لموضوعنا وجود؟ أو كذلك، هل يوجد أيٌّ من موضوعينا التوأمين من دون الآخر؟

يدّعي الأكثر استبسالًا من جهة، كما من الأخرى، أنهم ليسوا موجودين كفئة. وبما أن موضوع كراهيتهم واشمئزازهم هو في نظرهم منفِّر وكريه موضوعيًا، فإن نفورهم تجاهه لا يستند، بحسب رأيهم، إلى أي منهج أيديولوجي، لكنه يشكل معاينة عقلانية لواقع فعلي فحسب. في هذه الصياغات المتقاطعة والمتوازية، ليست الكراهية التي يدّعي كل معسكر أنه ضحيتها في عيون خصومه إلا وهمًا يوحي له بأنه الضحية، خُلق لإثارة تعاطف في محله باسم عذابات وهمية، وهو مؤامرة ضد الأبرياء الحقيقيين.

لذلك، فإن من العبث محاولة فصلهم في النظرية كما في الفاعلية الاجتماعية. ولدينا النية الثابتة لنبرهن عن أن رهاب الإسلام، الذي يشبه نقطتي ماء خالته رهاب اليهودية («معاداة السامية»)، يجري بالطريقة نفسها، يؤدي دورًا مماثلًا، وأنه نمو غير عادي وتطور له. أكثر من ذلك، إن كل محاولة لمواجهة الواحد منهما من دون أخذ الآخر في الحسبان هي بالنتيجة باطلة، لأن رهاب الإسلام، وهو جزء فرعي من العنصرية بشكل عام، يبدو في الطبيعة الاجتماعية كانبثاث لمعاداة السامية. وسوف نعمد إلى متابعة هذا التفكير حتى النهاية، متفادين كل استفزاز.

ميّزنا قبلًا في رهاب الإسلام، ومن بين أوجهه المتعددة، تيارين، كلاهما في حالة إنكار: **الأول** يصرّ على الإسلاموية ويركز على الإسلام بحد ذاته، **والآخر** يصرّ على اتهام الإسلام بحد ذاته. وسوف نعود لاحقًا إلى هذه التعريفات - والمهم في هذه المرحلة ملاحظة أن الواحد لا يمكنه الاستمرار حاليًا إلا في ظل الآخر، لأن معاداة السامية الجديدة، ومعها رهاب الإسلام الجديد، أو العكس، قد حصلا. لذلك ننوي هنا أن نعرّفهما، وأن نصرفهما من أجل درء شرّهما، وأن نحاول فهم كيفية تمفصلهما وكيف يغذي أحدهما الآخر بشكل متبادل.

هناك إيضاح من بين مجموعة إيضاحات لهذه القرابة، وهو أن المسألة اليهودية في الأمس، ومسألة الإسلام اليوم، هما المكان الأفضل للهذيان الأيديولوجي، كما كان مكسيم رودنسون يقول، وهو كان يطرح السؤال لمعرفة هل كان بالإمكان الحديث عن معاداة السامية بوصفها ظاهرة وحيدة ومستمرة تاريخيًا، أم أن من الأفضل الحديث عن مجموعة، عن تعددية من رهاب اليهودية المتعددة والمتنوعة، مكرّسة في مواقف تاريخية ومساحات جغرافية مختلفة.

تروي كروبسكايا، رفيقة لينين، في مذكراتها أن لينين كان يعتبر النقاش في شأن المسألة اليهودية اختبارًا للعقلانية التي كانت توصف حينها بـ «المادية». وكان رفضه القاطع لكل أشكال معاداة السامية معروفًا. وكان يحيد بالحديث، أمام محاور يريد هو امتحان قناعاته، نحو مسألة معاداة السامية كي يرى إذا كان هذا المحاور سوف يقع في هذيان معادٍ لليهودية أم لا.

يذكر سارتر في كتابه **تأملات في المسألة اليهودية** الإثارة حين يصف الخطابات الغاضبة المناهضة لليهود. وفي فرنسا، نتذكر قضية دريفوس بوصفها تمزقًا عاطفيًا ومثيرًا في إدراك المجتمع الوطني وفي تعريفه بالذات[13].

ليس من الممكن أن نتحدث، أو بالأحرى أن نقارب حقيقة رهاب الإسلام الحالي من دون الالتفات للوصول إلى معاداة السامية، وهو ليس إلّا وليدها اللاحق. يجب قول ذلك بوضوح: يُراد هنا من هذا الرجوع المتعمد والمتكرر لمعاداة السامية الحسم بشكل جذري مع الأدبيات المتخصصة بوصف رهاب الإسلام، حيث يسود الشلل - أشرنا إلى هذه النظرية سابقًا، أي رفض أخذ الوجه الآخر للمسألة في الحسبان وإدخال مقاييس هذه النظرية الخاصة في الرؤية الشاملة. وهذا الشلل منتشر بشكل كبير، لأن رهاب الإسلام غائب تمامًا عن الأدبيات المخصصة لمعاداة السامية.

هكذا، يشبه المصابون برهاب الإسلام، مثل توأمين سياميين، المعادين

---

(13) Jean-Paul Sartre, *Réflexions sur la question juive*, collection Folio-essais; 10 (Paris: Gallimard, 1985).

للسامية (سوف نتطرق إلى ظاهرة التوأمة هذه في الفصل الخامس). وهم يفكرون، أو بالأحرى يهلوسون، كأشخاص مضادين للسامية. ولديهم سوء النية نفسها وراحة الضمير نفسها. وأكثر من ذلك، يبدو واضحًا للعيان لكل مراقب محايد - وهي حالة، يجب القبول بها، نادرة جدًا حين يتعلق الأمر ببعض هؤلاء (اليهود) أو ببعضهم الآخر (المسلمين) - وهي أن رهاب الإسلام يؤدي في المجتمع الحالي دورًا مشابهًا للدور الذي أدته معاداة السامية في أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية. وهي تعطي الأرضية الأيديولوجية والطينة الخطابية لما بين الطبقات التي يمكن أن تنمو عليها الأشكال الجديدة للفاشية. والمقصود هنا، ويجب تكرار ذلك، هو تكوينات شاملة لا يمكن أن نحصرها في أطر قومية ولا في إطار دراسات أحادية الرؤية: هذه الإشكاليات هي ذات بُعد عالمي، عولمي نقول حاليًا، بسبب الهجرات والغزوات، وكذلك تنقلات الشعوب في جميع أرجاء الأرض. كل هذا تُضاف إليه الخصوصيات الفرنسية، بالتأكيد، لكن تضاف إليه كذلك الأبعاد الأميركية والروسية والأوروبية بشكل عام، وكل بلد على حدة: عربي، إسلامي ...إلخ.

يجب إذًا محاولة رؤية الحركة الكلية، من دون الوقوع في التعميم ولا التقليل من شأن الاختلافات القومية والمحلية.

الفصل الثاني

المكان الذي نتكلم منه

ربما حان الوقت، في هذه المرحلة من موضوعنا، كي نطرح بوضوح ما نريد، وأن نعلن البديهيات التي نستند إليها.

لن نجد هنا أي دفاع عن الإسلاموية أو إيضاح لها، ولا عن الإسلام بوصفه نظامًا دينيًا ورؤية للعالم ونظرية سياسية، وأنا أترك ذلك كله للمنتمين إليهما. أما من جهتي، فأنا لا أمارس أي ديانة، وعلى الرغم من احترامي العميق للرسالات الروحية التي أتت بها الديانات المختلفة، فإني على حذر شديد حيال جميع أشكال السلطات الدينية، وحيال جميع أشكال السلطة أيضًا. لنُقرّ إذًا أن دولة القانون - أي الدولة وسلطاتها - تبقى الشر الذي لا بد منه، لأن لا أحد يفترض به أن يكون قديسًا، أو حتى رجلًا صالحًا، كي يكون محميًا من التعسف والاحتقار والعنف.

كنت قد «ارتكبت» سابقًا في وضع عدد من الكتب والمقالات الملتزمة تمامًا بالنضال من أجل إنشاء دولة فلسطينية، وما زلت أناضل لمصلحة هذا الهدف منذ أكثر من أربعين عامًا بالكلمة والقلم وأزرار الكمبيوتر. كنت خلال عقد من الزمن في اليسار المضاد للصهيونية داخل إسرائيل بالذات، وهو يسار ينادي بالدولتين، وبعدها شاركتُ القادة الفلسطينيين المنفى خلال عشرين عامًا في بيروت وفي تونس، وشاركت منذ أكثر من عشرة أعوام في العودة إلى فلسطين. مثّلتُ منظمة التحرير الفلسطينية و«حركة فتح» في مئات الاجتماعات واللقاءات العالمية، الرسمية وغير الرسمية، الجامعية أو السياسية، بما في ذلك بعض مفاوضات السلام الإسرائيلية - الفلسطينية. وعشت أكثر من أعوام عشرة في رام الله، حيث مارست، بين عامي 2003 و2005، وظائف رسمية في وزارة الخارجية للسلطة الفلسطينية. أخيرًا، ولتبديد كل التباس، أضيف أنني كنت، على امتداد أكثر من خمسة وعشرين عامًا، مقرَّبًا من ياسر عرفات الذي يؤسفني موته حتى اليوم.

هوجمت وأُدنت ألف مرة ومرة بسبب هذا الالتزام، وُصفت بالمرتزق، بيهودي البلاط، بالشاهد وبكل أسماء الطيور المنفرة. كل هذا لأقول كم أنا بعيد عن تغطية موضوعي بأي ادعاء حيادي أو بأنني على مسافة واحدة في صراع حول المركزية والمثالية، وهو ما سنعود إليه لاحقًا.

في عام 1979، وفي أثناء مؤتمر لـ «حملة حقوق الإنسان في إسرائيل» التي كانت تضم حينها في فرنسا الجزء الأساس من الحركة المناصرة للفلسطينيين، تحت عنوان «العنصرية الصهيونية ومعاداة السامية»[1]، قدّم معلمي وصديقي مكسيم رودنسون الذي ذكرته سابقًا، «يُعتبر أناس مثل إيلان ومثلي خونة!». وأضاف، بدعابة وواقعية: «هذا ما دمنا في قيد الحياة، فهُم، بعد موتنا، سيكونون قادرين على استعادتنا كصورة للعبقرية اليهودية!»[2].

أنا لست بتاتًا أنموذجًا لمعسكر «ي»: فأنا ثقافتي فرنسية، ولدت تحت الاحتلال (الألماني) لعائلة «يهودية» وفقًا لمعايير النازية وقوانين فيشي، وكانت عائلتي تعيش مختبئة بشكل منظم، لا بوصفها هاربة، بل بوصفها مقاوِمة، لذا فإن صورتي ليست كلاسيكية أبدًا. جئت من تقليد أممي، متعدد اللغات فعلًا، ولم أصل إلى فلسطين إلا بعد أن مررت وغصت ثقافيًا بأفريقيا أعوامًا عدة، وكذلك بالمهاجرين الأفارقة في أميركا. إذًا أنا لا أمثل اجتماعيًا أي شيء، وهذا بالتأكيد كان خياري، أو بالأحرى لعله كسل عندي أو محافظة، أكثر من كونه قدرًا قبائليًا. يثير التمجيد الذاتي استيائي تمامًا، مهما كان لونه، ولم أتوقف – إضافة إلى ذلك – قط، وحتى في أثناء ممارستي مهماتي الرسمية، عن التعبير بأشكال نقد مختلفة حتى تجاه المؤسسة التي أعمل داخلها، كما تجاه الأفكار أو الممارسات المختلفة داخل المجتمع الفلسطيني بذاته.

(1) نُشر جزء من أعمال هذا المؤتمر في: *Peuples méditérranéens*, no. 19 (Avril-Juin 1982).

(2) كان هذا الأمر قد بدأ في ما يخصه، بطريقة ملتوية جدًا، حين لم يتردد روبرت ريدوكير في عام 2006، وهو معادٍ للإسلام محترف، في ذكر نفوذ هذا العلّامة المتوفى ليغطي حقده الفارغ عليه، وبشكل لا أساس له من الصحة، وذلك في منتدى نشرته جريدة **الفيغارو** في 19 أيلول/ سبتمبر تحت عنوان «ماذا على العالم الحر أن يفعل، بمواجهة التخويف الإسلامي؟».

أما بخصوص «يهوديتي» بالذات، حيث كنت أسأل عنها بشكل مستمر، فكنت أرد باعتراف شخصي. أنا لا أدري (agnostique) من الجيل الثالث، أنا ابن لوالدين درسا في أماكن مختلفة عند رهبان وراهبات الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية، الرسولية الرومانية، وكذلك في المدرسة العلمانية في الجمهورية الثالثة الفرنسية، لكني ولدت في ليون في عام 1943، تحت جزمة كلاوس باربي[3]، وورِثت اليهودية تصنيفًا مفروضًا عليّ، وكانت في البدء عندي فارغة من أي مضمون ديني أو ثقافي إيجابي. لكن صار من المؤكَّد لدي، منذ المراهقة، أن من غير اللائق نكران انتماء، حتى لو كان مفروضًا، ما دام يسبب اضطهادًا جائرًا وغير مقبول. وما أحتفظ به من هذه المسيرة غير الاعتيادية، مع ذلك، هو الرفض الشديد لكل تمييز يقوم على هذا الانتماء أو أي انتماء آخر موروث. إذًا أطالب لليهود، كما أطالب للآخرين، بالحق العام، من دون أي استثناء، أي امتياز، أي إفلات من العقاب، أي تعظيم خاص، أو وضع على جانب. ويبدو لي أن محبة السامية عند المسيحيين التائبين وعند المعادين للسامية في الأمس، وكذلك الانغلاق الإثني عند يهود اليوم المحترفين، يتضمنان انحرافًا وأخطارًا تهدد حتى اليهود أنفسهم ويماثلان الاتهامات والإهانات التي يوجهها إليهم معادو اليهودية الكلاسيكيون؛ لأنه إذا لم تكن حقوق بعضهم مضمونة عبر حقوق الآخرين، في نظام يحفظ حقوق الجميع، فإنها لا تكون إلا امتيازات قابلة للعكس ما إن تتغير علاقات القوى أو مزاج الأمير.

أما في الوضع الفلسطيني، فهذا يعني مقاربة مواطنية وغير طائفية، أي يعني في آخر الأمر التضامن مع مشروع المجتمع الذي حملته «حركة فتح» تاريخيًا

---

(3) إيلان هاليفي: ذكرت في الطريق ظروف ولادتي في المقاومة السرية في فرنسا المحتلة، وذلك في مقالة نُشرت في: Ilan Halevi, «Hypocrisies: Du bon usage du révisionnisme,» *Revue d'études palestiniennes*, no. 26 (Hiver 1988), pp. 3-12.

وهو كلفني 120 صفحة هجومات المستهجَنة لم أرد عليها بتاتًا، وحيث تصدى لها سيرج تيون، الأب الروحي للإنكارية «اليسارية»، في: Serge Thion, «Du bon et du mauvais usage du révisionnisme (réponse à Ilan Halévi),» *Annales d'histoire révisionniste*, no. 4 (1988).

مئة وعشرون صفحة لإنكار ست صفحات، وقد قلت لنفسي لعلي قد أثرت فيه بـ «مكان ما»! وقد أعطيت كذلك وصفًا روائيًا في كتابي *Allers-retours* (2005).

خلال نصف قرن، لدولة «علمانية وديمقراطية»، وهو مشروع تختصره الصيغة المصرية التي أسست للقومية العربية الحديثة: «الدين لله والوطن للجميع»[4].

في الواقع، إن هذا الاقصاء المزدوج أو المثلث، بالذات، هو الذي يعوّقني بوصفي سوسيولوجيًا «غير أنموذجي»؛ إنه عدم انسجامي مع الأنموذج المنتظَر من الأنموذج الأصلي الجماعي - وليس خبرتي الممكنة فحسب، النظرية والعملية، في شأن هذه الموضوعات - هو الذي يعطيني النفوذ الذي يسمح لي بأن أؤكد ما سوف أقدمه هنا. هذا، في ما يخص النقاش الحيوي الدائر حول السلم والحرب، حول الحرب الحقيقية والسلام الممكن، حول جذور الكراهية وشروط التعايش معًا.

إن المكان الذي أتكلم منه هو قبل كل شيء نظام مرجعي للقيم: القيم التي ورثناها، والقيم التي مارسناها؛ الخيارات، ومن ثم التجربة المكتسبة والدروس التي تعلمناها بالتجربة. من تاريخي الشخصي، بوصفي طفلًا «يهوديًا من الناحية الإدارية» في فرنسا المحتلة، وبوصفي مراهقًا في فرنسا المتورطة في حروبها الاستعمارية، ومن ثم بوصفي «شرقيًا» في إسرائيل، وأخيرًا فلسطينيًا، وكان هذا بالتأكيد خياري، لكن أيضًا، ومنذ أكثر من ثلاثين عامًا، وعبر تجربتي التي اكتسبتها، أقول إن الشر المطلق، الجريمة ضد الفكر البشري وضد البشرية بشكل قاطع، هو العنصرية.

قبل أن نذهب أبعد من ذلك، يجب أن نوضح ما نعنيه بكلمة «مطلق». يمكن أن نقول «جريمة قصوى»، لكننا لسنا حتى مجبرين أن نضع سلّم قياس؛ في الحقيقة، إنه خيار. ليس هناك، ولم يكن هناك قط، كما نعلم اليوم، تناقضات أساسية وتناقضات ثانوية. ليس هناك إلا كمية من الصراعات والتوترات التي تدخل أنظمتها بالذات في تناقض بعضها مع بعض. وفي آخر المطاف، أقرّ - بطيبة

---

(4) إيلان هاليفي: إنها هذه الصيغة «المتعددة الطوائف» - وهي الأقرب - كما نظن - إلى ما يسمّى عند الفرنسيين العلمانية، في حين يكتفي الناطقون بالإنكليزية بصفة «العلمنة» التي تؤسس لفصل الدين عن الدولة في المجتمعات العربية المعاصرة. ومن المؤكد أن هذه الصيغة التي يفهمها كل مواطن يملك الحد الأدنى من الثقافة العامة، هي التي كان المعني بها شعار «رام الله للجميع»، والذي استخدمته رئيسة بلدية رام الله المنتخَبة، وهي مسيحية، في أثناء حملتها الانتخابية، في عام 2005، والتي دعمتها «حركة حماس»!

خاطر - بأن ليس هناك إلا الأولويات التي نحددها بأنفسنا وفقًا لرغباتنا، خياراتنا، حبنا أو كرهنا، مصالحنا ونزواتنا. بالنسبة إلي، فإن العنصرية هي الهدف الأول لرفضي واستيائي: وحتى الرفض العقلاني لوضع تراتبية لأعمال العنف الممارَسة على الرجال، وحتى على النساء والأطفال بأكثر من ذلك، في المجتمع كما في العائلة، في المؤسسة كما في الشارع، لا يمكن أن يلغي هذه الأولوية لرفضي هذا، أو حتى أن يطمسها. ومن هذه الخلفية الذاتية بامتياز، أحتفظ كذلك بالحق، إن لم يكن بالواجب، في المقارنة؛ فالمقارنة ليست تسطيحًا في تعادل ما، ولا تعني التفاهة. لا شيء، خصوصًا الجريمة، يمكن أن يُخفى بالسر، بالخطورة، بالتفرد، حيث يصبح خارج النقاش، وكل شيء قابل للمقارنة. لا شيء هو **مسبقًا** خارج المقارنة. وأنا أعتبر أن النظرية المطلقة التي تقول إن مصير اليهود (أو أي جماعة بشرية) لا يمكن مقارنته بأي مصير آخر، وبأنهم الاستثناء لكل قاعدة، هي خطأ نظري، بل أساسًا خطأ أخلاقي يؤدي إلى نتائج سياسية خطِرة بالنسبة إلى اليهود، كما بالنسبة إلى الآخرين.

لا يخطر في بالي أبدًا وهْم وجود عقلانية من دون مشاركة؛ فأنا أطالب بتجذّر هذا الالتزام وهذا النظام للأولويات في تجربتي الشخصية، في تاريخي، حتى إنني أرى في ذلك شكلًا من أشكال الاستمرارية، وتعلقًا بنظام قيم وأخلاقية اجتماعية منقولة كتقليد عائلي، إنها إذًا ميراث؛ إنه هنا المكان الذي أتحمل مسؤوليته وأخاطب منه رجال عصرنا ونساءه.

يجب أن يكون لنا في مجتمع ديمقراطي الحق في نقد الدين بشكل عام، والأديان، بما فيها ديننا، بشكل خاص. وهنا يُطرح التساؤل عن الوظيفة العملية لهذا النقد: إلى أي حد يساهم بتحرير الأفراد والمجتمعات؟ وإلى أي حد يندرج، رغمًا عنه، في خطاب واستراتيجيات حرب وكراهية وتجريد الآخر من إنسانيته؟[5].

(5) إيلان هاليفي: هناك مثال مثير يوضح هذا التناقض، وذلك في **تقرير برنامج الأمم المتحدة للتنمية** (PNUD)، لعام 2003، في ما يتعلق بالتنمية البشرية في الشرق الأوسط. كتب هذا التقريرَ الكارثي حول تأخر المنطقة العربية في مجالات أساسية، باحثون من المنطقة حريصون بكل تأكيد على خدمة شعوبهم. لكن هذا التقرير الذي وصل إلى مكتب بوش أصبح الحجة المعتمدة للهجوم على هذه الشعوب، التي أعطت العمليات العسكرية حجة «التحرير» وسمحت بكل الضغوط لجعل الشرق الأوسط الكبير «ديمقراطيًا».

الفصل الثالث

عن العنصرية

تكون العنصرية حين يُعتبر الآخر أقل إنسانية أو ما دون الإنسانية أو ضد الإنسانية أو غير إنساني. ويبدأ ذلك باللغة، وفي النهاية يصل إلى تجريد الآخر من إنسانيته، ويصبح استبعاده شرعيًا، وكذلك إخضاعه وقمعه، وأخيرًا قتله، ما أدى إلى أكبر الجرائم في تاريخ الإنسانية. كانت العنصرية تبرِّر، وحتى توحي بالأعمال الأكثر بشاعة وبالوحشية وسوء المعاملة الأكثر بغضًا، منذ غزو «الهندو - أوروبيين» شبه القارة الهندية، لينشأ نظام الطبقات، حتى معاهدة تجارة الرقيق ونقل الأفارقة كعبيد، ومنذ الغزو الإسباني وحتى سياسة اعتبار المناطق التي تسكنها شعوب أخرى، تسمى «تركية - منغولية»، وفرض ذلك بالقوة، ومنذ إبادة التسمانيين أو سكان جزر الكاريبي وحتى غزو الغرب الأميركي، وهو الذروة في تدمير مجتمعات سكان أميركا الأصليين. وهناك ما هو أقرب منا كذلك، أقصد الإبادة الجماعية للأرمن، للغجر، ليهود أوروبا، الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، إبادة التوتسي في راوندا ومجازر الهوتو في بوروندي، التصفية العرقية في البلقان، إرهاب الدولة ومهاجمة المدنيين في الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني، إضافة إلى مجازر دارفور، هذا كله يوضح، وكلٌّ على طريقته، الحدة القاتلة لهذا المرض العالمي وغير المحتمل.

يجب بالتأكيد إعادة وضع هذه الظاهرة في الإطار العام لأعمال العنف الجماعية والنزاعات التي يتصف بها التاريخ البشري بشكل عام. وقام مكسيم رودنسون مرةً، ومن الواضح أنني تأثرت به فكريًا، بوضع لائحة منظَّمة، أي نوع من التصنيف لأشكال العداوة بين الجماعات البشرية، من الأقل ضررًا (ما يسمّى «أبناء العمومة بالمزاح» عند مجتمعات غرب أفريقيا) حتى الأكثر توتاليتارية، مثلًا ما سمّاه الـ «pan-ekhtrisme»[1] - وبكلمة أخرى، حين «يكون العالم بأجمعه

(1) هذا اللفظ الجديد الذي جاء به مكسيم رودنسون يعود بأصله إلى اليونانية «pan» (كل) =

ضدنا!». هذا مع المرور بما يسمّى «شوفينية الحرب»، وحيث كان المثل الصارخ لها هو الشعار الذي رافق المعارك الأخيرة لتحرير باريس: «لكل واحد ألمانيّه A chacun son Boche!)»[2].

لا نستطيع كليًا تجاهل إصرار فرويد، ضد ماركس، في شأن التشابهات التكوينية والوظائفية بين التناقضات الاجتماعية والوطنية، وكلها استرجاعات، وهي تعود إذًا، بطريقة أو بأخرى، إلى ما قبل تاريخ القبائل والعشائر، والحاجة إلى الانتماء، وحرارة الوجود ضمن القطيع، أي إلى حيوانية الجنس البشري.

لكن التجربة علّمتنا أنه يجب أن نكون حذرين تمامًا إزاء المذهب الطبيعي (الطبيعوية) المطبّق على البشر، وهو الحقل المفضَّل عند أنصار اللامساواة وقانون الغاب. وها هو فيكتور كليمبيرر، في بحثه السري المتعلق بلغة الرايخ الثالث[3]، الذي يؤكد تأثير جان جاك روسو في الخطاب النازي في شأن القوانين الطبيعية وعلاقة «الآريين» بالطبيعة والحيوانات – ومن المؤكَّد أن هذا كله يناقض «النزعة الثقافية» المنسوبة إلى اليهود.

تنطلق العنصرية بالتأكيد من فكرة العِرق، ومن إرادة تقسيم الجنس البشري إلى أقسام تتميّز بخصائص جيدة أو بنواقص خاصة بها. إنها شكل خبيث من المذهب الطبيعي المطبَّق على الجنس البشري، والمستند إلى الأوهام العلموية التي رافقت الثورة الصناعية. ويمكننا حتى القول إن ادعاء العلمية هذا، وتسجيل خطاب الكراهية والاحتقار في مادية البيولوجيا وعلم الوراثة بشكل خاطئ، هما ما يحوّلان الكراهيات القديمة المتجذرة في الصراعات والنزاعات ذات الأثر التراكمي إلى

= و«ekhtros» (مكروه، بغيض). ويقول رينيه غاليسو إن مكسيم رودنسون اختلق هذا التعبير كي «يُذكّر بأن قبل العنصرية الواضحة، تؤدي كراهية العدو والحرب إلى الجريمة». والمعني هنا هو الأفكار المسبقة الجماعية التي تُستخدم للقتل والاستعباد. يُنظر: Maxime Rodinson, «Ethnisme et racism,» *Pluriel*, no. 3 (1975).

هو إذًا شكل من أشكال ماقبل العنصرية، حيث يُعتبر كل غريب معاديًا بالجوهر: كل علاقة مع الخارج تحمل تهديدًا بالملاحقة حين تكون الجماعة مكروهة من الجميع.

(2) كلمة Boche بالفرنسية الألماني، وهي تتضمن احتقارًا للفرد الألماني وكرهًا له. (المترجمة)

(3) Victor Klemperer, *LTI, la langue du IIIe Reich: Carnets d'un philologue*, trad. de l'allemand et annoté par Élisabeth Guillot; présenté par Sonia Combe et Alain Brossat, Agora; 202, nouv. éd. (Paris: Pocket, 2003).

عنصرية. هذه الظاهرة هي، مع ذلك، ليست بجديدة؛ هذا في حال اكتفينا بالنظر إلى إسبانيا بعد حرب الاسترداد (Reconquista) التي أرادت تهميش اليهود والمسلمين الذين تحولوا إلى المسيحية الكاثوليكية، أي الماران والموريسك[4]، وذلك بأن أصدرت، في بداية القرن السادس عشر، مرسومًا عن «نقاوة الدم».

في الواقع، تمثّل العنصرية الموصوفة بالحديثة، على الرغم من ادعاءاتها الإيجابية حين تشدد على «الدم» وعلى «حقه» في التعارض مع حق الأرض، تراجعًا نحو المجتمع العشائري[5] (gentilice)، أي نحو ماقبل الأمة المحدَّدة بأرض، وهو مجتمع يعظّم القبيلة. ومع ذلك، تعرف كل قبيلة إجراءات التبنّي أو الاندماج أو التحول والخروج، وهي كذلك اتفاقات بشرية منتزَعة من النظام «الطبيعي»: وفقًا لقوانين القبيلة، وحده الأب أو الأم ينقل الهوية أو الانتماء؛ هذه الاتفاقية تختفي في الوحشية الأدبية عند العنصرية المعاصرة، كما رأينا ذلك خلال مجازر رواندا، حيث جرت تصفية الأطفال الذين هم من أمهات من التوتسي وآباء من الهوتو، الذين كانوا يُعتبرون تقليديًا من الهوتو، بوصفهم «هجائن». ومن المؤكد أن الهوتو والتوتسي كانوا في مملكة رواندا القديمة نظامين اجتماعيين مختلفين ضمن إثنية واحدة، وكانوا يتكلمون اللغة نفسها، لكن الغزاة الألمان، ومن ثم البلجيكيين، هم الذين قرروا، ثم فرضوا وأسسوا في ما بينهم اختلافًا «عرقيًا» مفترضًا.

على غرار العنصرية التي ترتكز على الرومانسية القومية، نجد هنا أننا أمام ما سمّاه جورج لوكاش «تدمير المنطق»، أي الانتقال من النظام البشري إلى النظام الحيواني، وهو ما يمجده الخطاب العنصري عبر تسميته بـ «الطبيعي»، واستبدال نظام دولة القانون، الذي لا يعرف في المبدأ الأخلاقي إلا نوعًا واحدًا من المواطنين، بشريعة الغاب والفوارق «الطبيعية».

---

(4) Marranes: المارانوس هم اليهود الذين تحولوا إلى الكاثوليكية بالقوة، أما الموريسكوس (morisques)، فهُم المسلمون الذين تحولوا إلى الكاثوليكية بالقوة. (المترجمة)

(5) هو اسم العشيرة أو الفخذ في المجتمع الروماني، وكان هناك تقليد ينص على وضع اسم العشيرة gens بين الاسم الأول واسم العائلة، وذلك للافتخار به. هذا يعني تقسيم العائلات الكبرى في روما بحسب العشائر التي تنتمي إليها. (المترجمة)

هكذا، يتوجب علينا أن نملك القدرة على التمييز بين العنصرية وكراهية الأجنبي التي يمكن أن تمارَس ضد الجار الذي نشاركه الديانة والثقافة، وحتى اللغة أحيانًا؛ ذلك لأن المرجعية العرقية تستعين بفكرة الاختلاف التكويني القائم في الجينات، لكن الحقيقة أقل ميكانيكية. وفي الواقع، ليس الاختلاف هو الذي يؤدي إلى العداوة، بل المنافسة هي ما تفعل ذلك: الصراع على السلطة، على الأرض، للسيطرة على الثروات، على تقاسم الملكيات والموارد ...إلخ. وكي أبرر نهب قريبي، جاري، ابن عمي، وحتى أخي، أخترع اختلافه، وأخترع في الوقت نفسه اختلافي. من البلقان حتى لبنان وأفريقيا البحيرات الكبرى، تحتدم صناعة الاختلاف، على أرضية النزاعات الحقيقية على السلطة، وتفرض نفسها قاعدةً لإعادة كتابة التاريخ على نحو متحيز.

على هذه الخلفية، ماذا عن العنصرية في فرنسا؟ بالنسبة إلى العنصرية تجاه اليهود، نعرف أنها موجودة: منذ الحروب الصليبية والطرد في العصور الوسطى، حتى قضية دريفوس وحكومة فيشي ومزايدة الشرطة الفرنسية في ترحيل يهود فرنسا. هذه الفصول الحزينة وُثِّقت بما فيه الكفاية، وأكثر من ذلك، يمكننا القول إن هذا الشر عمَّ أوروبا بأسرها؛ ففي بداية القرن العشرين، كان رهاب اليهودية يعمّ القارة إلى حد الابتذال، وكأنه كان عنصرًا مبكرًا لما سمّي، في ما بعد، العولمة، وكان يسميه الاشتراكيون «السوق العالمية»، وحتى «الإمبريالية».

ثم هناك العنصرية الاستعمارية، ومعها واقع تاريخي ثقيل: العبودية، تجارة الرقيق، ثروات مدينة نانت، بوردو وحتى سان مالو التي ازدهرت في التجارة المثلثة[6]. وفي السجلات التجارية، تُسجّل الكائنات البشرية المبيعة كالماشية بوصفها «خشب الإبنوس» (bois d'ébène)، حيث نلاحظ أن اللغة صارت هكذا مشفّرة، كما ستصبح لاحقًا لدى النازيين، وهذا التمويه يشكل بحد ذاته اعترافًا بالذنب. بعد ذلك، جاء الاستعمار والعمل القسري والأفارقة المعروضون في أقفاص في المعارض الباريسية الاستعمارية، أو حتى العمال الصينيون الذين جندهم الجيش الإنكليزي في عام 1916 وأنزلهم قرب قرية نوايال سور مار

(6) أي التجارة بين أوروبا وأفريقيا وأميركا لتوزيع العبيد. (المترجمة)

الفرنسية، في خليج السوم، ومُنعوا من أي اتصال بالسكان المحليين (لم يمنع هذا بعض الزيجات) قبل أن يقضي عليهم وباء غير معروف، في عام 1919، ليُدفنوا بعد ذلك في المكان عينه. إنها البطاقات البريدية للأجداد، مع ما سُمّي حينها «البدويات الشابات» ذوات الصدور العارية واللباس الخفيف. إنها أمنية سنغور بـ«تمزيق الابتسامة البانانيا من جميع جُدُر فرنسا». بعد هذا، جاءت العنصرية النيو - استعمارية (أو مابعد الاستعمارية) لتكمل المسيرة: مستندة إلى المشكلات المرتبطة بالهجرة وانعدام الأمن الآتي من «الطبقات الخطِرة» التي هي من الآن فصاعدًا غريبة، ومن ثم حاليًا، الوضع الجديد، وهو الحرب الصليبية العالمية ضد الإرهاب وحرب الحضارات اللتان جاءتا لتعزيز العدوانية وراحة الضمير!

مع ذلك، وبعكس رهاب العرب الذي يُذكّر بأشكال العنصرية «الكلاسيكية»، أي الإصرار على التحديد المزعوم جينيًا للصفات الجسدية أو النفسية للجماعة المستهدفة، فإن رهاب الإسلام لا يرجع إلا إلى الصفات «الثقافية»، لكن هذه تُقدِّم جزءًا من برنامج تطبيع للأفراد والمجتمعات، له صفة حاسمة محدِّدة، مثله مثل الوراثة.

إذا كان الإطار العام أوروبيًا تمامًا وعالميًا إلى حد كبير، فإن هناك بالتأكيد خصوصيات، وحتى مميزات فرنسية؛ فالتركيز على المنديل (الشال)، الذي سمّي - خطأ - حجابًا، هو ميزة من هذه المميزات التي تجعل البريطانيين يبتسمون، لكن هذه ليست حال البلجيكيين. هناك أيضًا عدم الترابط: حين تمكّن لاعب الكرة الجزائري زين الدين زيدان من تحقيق الانتصار للفريق الفرنسي، أعلن شارل باسكوا، على الرغم من أنه كان قد أصدر قوانين قاسية ضد المهاجرين، على الفور[7] «أن فرنسا الرابحة تستطيع أن تسمح لنفسها بأن تكون كريمة»[8]، واقترح،

---

(7) بوصفه وزيرًا للداخلية يومذاك. (المترجمة)

(8) إيلان هاليفي: في 15 تموز/ يوليو 1998، وفي مقابلة نشرتها جريدة **لوموند**، اقترح شارل باسكوا تصحيح أوضاع 70.000 مهاجر غير شرعي، وتطرق إلى انتصار فريق فرنسا في ألعاب كرة القدم العالمية، «الحماسة التي ألهبت شبان الضواحي» و«مشاركة الجزائريين، المغاربة، التونسيين والأفارقة في تحرير فرنسا»، كي يبرر اقتراحه قبل الرجوع إلى بطل الحرب العالمية الثانية الذي لا يمكن نكرانه: «يمكن فرنسا أن تكون كريمة، يمكنها القيام بعمل ما، قام ديغول بذلك من قبل».

عبر وعد ديماغوجي خالٍ من كل مضمون إداري فعلي، تصحيح أوضاع جميع المهاجرين غير الشرعيين! لأنه، كما جاء في افتتاحية جريدة **الفيغارو** لمناسبة انتصار يانيك نوا[9]، يجب أحيانًا الاختيار بين أن تكون عنصريًا وأن تكون وطنيًا!

في فصل الاختلاف الفرنسي، يجب بالتأكيد وضع ميزان القوى غير الثابت في العالم السياسي بإزاء الجبهة الوطنية وقائدها، والمجاملة تجاه مارين لوبان، وحتى منافسة الجبهة في التلاعب بالموضوعات نفسها. وخلف عدم الانسجام هذا مع الذات، نرى احتقار الشعب، والاقتناع النخبوي بأنه يجب الكذب على هذه المجموعة من العجول العنصريين، والتأكيد لهم أن عنصريتهم ليست كذلك، وأنها لا تعبّر إلا عن معاناتهم ومرارتهم المشروعة بوصفهم «منبوذين».

هل العنصريون هم إذًا أناس طيبون «يخطئون بغضبهم»، كما كان يقول سنغور؟ أم هم أوغاد كما يقول سارتر؟ أم أن ناخبي الجبهة الوطنية يمكن أن يتملقهم السياسيون من دون التسبب بانحطاط دراماتيكي في النقاش وفي النظام بحد ذاته؟ هل كان من الواجب البقاء على التهذيب أمام جان ماري لوبان في التلفزيون؟ هل يمكننا تجاهل يورغ هايدر؟ هل كان المهاتما غاندي على حق في عام 1938، حين أرسل إلى فوهرر الرايخ الثالث رسالة يرجوه فيها أن لا يحتل تشيكوسلوفاكيا، مخاطبًا إياه بـ «صديقي العزيز»؟

يختبئ في طي هذا التساؤل سؤال مكمل للسابق: هل هناك عنصرية يسارية؟ هل أن انتساب العمال إلى الخطاب المعادي للغرباء هو دائمًا متلائم مع الأفكار السائدة، أي أفكار الطبقة الحاكمة، أم يمكن أن يبدو **نسيج وحدهم (نوعًا خاصًا بهم ومتولدًا ذاتيًا)**؟

في فرنسا، كما ذكّرتنا مادلين ريبريو، كانت غالبية الحركة العمالية، حتى قضية دريفوس، وبشكل أكثر تحديدًا حتى صرخة إميل زولا: «أنا أتّهم»، بالعموم، مضادة للسامية[10]. ومع زولا كانت نهاية معاداة السامية العمالية واكتشاف معاداة

---

(9) لاعب تنس فرنسي من أصل أفريقي، حاز بطولة عالمية. (المحرر)

(10) شددت المؤرخة الكبيرة للحركة الاجتماعية على هذه النقطة في كثير من أعمالها، وجعلت =

السامية عند البرجوازية والاستخدام المضاد للشعب الذي تلجأ إليه. علاوة على ذلك، كانت قضية دريفوس موضوعًا لأفلام وكتابات ارتجاعية صدرت حديثًا، وكلها مدموغة بختم محبة اليهود النادمة، وذات أثر رجعي ومفارقة تاريخية، وقد فرضها الوضع الحالي للفكر الواحد. وتبقى هذه المأساة حلقة ذات رمزية مهمة في التاريخ، وما زالت تنتمي إلى عالم المكبوت الجماعي في الذاكرة الفرنسية على الرغم من احتفالات الذكرى الرسمية. يقال، إن السؤال لن يُطرح. كيف إذًا، يمكن أن نبقى مهذبين وبين أناس محترمين؟ فالسؤال الذي يقسم عبر إثارته المشاعر والأحقاد داخل الجماعة الوطنية الواحدة حتى، هو بالتأكيد سؤال سيئ، سؤال خاطئ، سؤال يجب تجنبه. إضافة إلى ذلك، فإن ثيودور هرتسل، الشاب الذي كتب في قضية دريفوس لمصلحة جريدته في فيينا، وكان حينذاك من مؤيدي استيعاب اليهود في البلدان التي يعيشون فيها، تحوّل إلى القومية اليهودية وأرسى قواعد الصهيونية السياسية. وما لم يستطع المجتمع الفرنسي تطهير نفسه من هذه الصفحة في ذاكرته، ومن ذكرى فيشي، أو من معركة الجزائر، فإنه سيبقى محكومًا بأن يكرر ذلك دومًا وكأنه قدر محتوم.

إن برودون (Proudhon) نفسه لا يذهب في التمييز بين رأس المال الجيد والمنتج ورأس المال النقدي الطفيلي بعيدًا عن المياه العكرة التي منها ظهرت «مناهضة الرأسمالية الوطنية» عند درومون[11] وظهر المناهضون للسامية الفرنسيون الذين كانوا أسلاف النازية الألمانية.

إضافة إلى ذلك، استمر الفوضويون في رفض مساندة الدفاع عن دريفوس حتى آخر لحظة، ووقعوا على ذلك، معتبرين أنه مواطن فرنسي عسكري ومحافظ! وفي الثمانينيات، تراجعت بعض الحركات الفوضوية وانتمت إلى الحركة التي

= منها نقطة مركزية في المؤتمر، المذكور سابقًا الذي نظمته في باريس في عام 1979 الحملة من أجل حقوق الإنسان في إسرائيل.

(11) إدوار درومون (1844-1917) صحافي وكاتب وناشر وسياسي فرنسي، كان من كبار المعادين لدريفوس والمنادين باللاسامية والوطنية الفرنسية. أسس العصبة الوطنية اللاسامية في فرنسا. (المحرر)

تنكر المحرقة النازية، مثل حركة راسينيه[12] والخلد العجوز[13]، لأنهم في حماستهم المضادة للرأسمالية، يتساوى كل شيء لديهم: هتلر، ستالين، تشرشل، وهم يرفضون أي سلّم تدرجي للجرائم، هذا إذا لم يذهبوا أبعد من ذلك، ولمجرد التمرد، وكي يبقوا في التيار المضاد، ويُطلقوا صيغة مضادة للصيغة السائدة التي تجعل من الأول شيطانًا، وتتهم الثاني وتُبرّئ الأخير. وتبدو الماكينة النازية في قتل الحشود بالذات قمة في الهمجية في الخيال الشعبي، كما يبدو بسبب تعقيداتها التقنية والصناعية، أن من الأسهل إنكار، إذا لم يكن حقيقتها، فعلى الأقل خصوصيتها، والأعداد في جميع الأحوال، ما يثير نقاشًا خاطئًا يحوّل بالواقع الحقيقة التاريخية إلى حقيقة سياسية، وهذا ما يتمسك به أنصار إنكار المحرقة.

يجب أن يضاف إلى ذلك القولُ إن رجال القلم، في القرن التاسع عشر، لم يكونوا حذرين إزاء إلقاء أحكام نهائية في شأن هذا البعض أو ذاك. وكره فولتير، قبل ماركس، اليهودية بوصفها جوهر المسيحية. أما ماركس الشاب، فكتب في عام 1844 أن «إله اليهود هو المال»، وكان سيواجه مشكلات مع العدالة لو كتب هذه المقولة اليوم، وكذلك مع المحاكم الفرنسية - على كل حال مع تلك التي حاكمت إدغار موران[14] ورفضت بتّ دعوى السينمائي الإسرائيلي إيال سيفان الموجهة ضد فينكلكراوت الذي شهّر به[15] - كانت هذه المحاكم ستعتبر ماركس

(12) بول راسينيه، مدرّس، كان سابقًا عضوًا في الحزب الشيوعي الفرنسي بين عامي 1923 و1932، ثم في الشعبة الفرنسية للعالمية العمالية (SFIO) ابتداءً من عام 1934، وجرى اعتقاله بتهمة مقاومته الألمان. بعد الحرب، صارت سلميته مصبوغة بأحقاد مضادة للسامية من خلال كتاباته. طُرد من SFIO في عام 1951، وأصبح بعد موته الأب المؤسس للحركة التي تنكر المحرقة النازية في فرنسا.

(13) La Vielle Taupe، يأتي هذا الاسم من نص لكارل ماركس حول الثورة، الذي استخدمه بيار غيوم أولًا لتسمية مكتبته ومن ثم مجموعة من مناضلي اليسار المتطرف الذين أيدوا أطروحات فوريسون التي تنكر المحرقة.

(14) تعرّض عالِم الاجتماع والفيلسوف الفرنسي إدغار موران لحملة تلتها دعوى قضائية ضده وضد زملائه الذين نشروا في جريدة **لوموند** بتاريخ 4 حزيران/ يونيو 2002 نصًا اعتبرته بعض الجمعيات الصهيونية الفرنسية معاديًا للسامية. بعد 4 أعوام من المحاكمات، صدر القرار بأن ما نشرته **لوموند** يدخل ضمن حرية الرأي والتعبير. (المحرر)

(15) إيال سيفان منتج ومخرج وكاتب إسرائيلي من مواليد حيفا 1964، مشهور بأفلامه ومواقفه المعادية للصهيونية، أقام دعوى في عام 2006 ضد الفرنسي آلان فينكلكراوت الذي كان قد اتهمه بأنه معاد للسامية. (المحرر)

مناهضًا للسامية! وفي المسألة الاستعمارية، في فرنسا، لا يُعتبر اليسار بريئًا بالتأكيد: من جول موران إلى غي موليه وحتى تردد الحزب الشيوعي الفرنسي (PCF) في اتخاذ موقف حيال الجزائر[16]، ومن رجال الكومونة المنفيين في المستعمرات، إلى اقتراع «الأقدام السوداء» (pieds-Noirs)[17] لمصلحة الشيوعيين في أعقاب الحرب... إذًا، كان الاستعمار الاشتراكي في فرنسا مرتاحًا دائمًا من جهة اليسار.

اليوم، نشهد ازدهارًا لرهاب الإسلام «اليساري» الذي يعبّر عن نفسه عاليًا وبقوة، من دون تعقيد، وذلك باسم الدفاع عن العلمانية والجمهورية والديمقراطية والتقدم. ونجد في هذا المعسكر خليطًا عجيبًا،؛ فإلى جانب مؤيدي إسرائيل، وهُم كُثُر في صفوف الاشتراكيين المتعصبين للعلمانية الذين لا يزعجهم وجود أصوليين مسيحيين أو يهود معهم، نجد شيوعيين جزائريين قدماء يحنّون إلى دكتاتورية جبهة التحرير الوطني [الجزائرية]، ونجد شيوعيين فرنسيين متضامنين مع رفاقهم الجزائريين على طول الخط، وسياديين نيو - شوفانومانيين[18]، ومدافعين عن حقوق الإنسان والطفل والمثليين والأقليات الإثنية والدينية، وأخيرًا وليس آخرًا، عن حقوق المرأة. ونحن نتذكر على كل حال زيارة سيمون دو بوفوار إلى الشرق الأوسط في عام 1967، حين رفضت دعم العرب والمعسكر الاشتراكي وحركة عدم الانحياز والعالم الثالث ضد العدوان الإسرائيلي في حزيران/ يونيو[19]، وكانت حجتها أن وضع المرأة في مصر مقارنة بوضعها في إسرائيل يمنعها من وضع التقدم في جهة العرب! ونتذكر كذلك دور الحركة النسائية في الولايات المتحدة

(16) إيلان هاليفي: في 1947-1948، في **دفاتر الشيوعية** *Les Cahiers du communisme* دافعت قيادة الحزب الشيوعي عن الفكرة القائلة إن الجزائر هي «أمة في طور التشكيل» حيث السكان الأوروبيون، أي المستعمرون، هم من مكوناتها! ولم يدعم الحزب استقلال الجزائر، وتحت غطاء الأممية، والتصدي لاستهداف الإمبريالية الأميركية وصراع الطبقات، تخلّى عن تطبيق حق تقرير المصير الذاتي للجزائر.

(17) الأقدام السوداء تسمية أُطلقت على المستوطنين الأوروبيين الذين سكنوا أو وِلدوا في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830-1962). (المحرر)

(18) أي أنصار السياسي الفرنسي جان بيار شوفنمان (Chevènement). (المترجمة)

(19) حرب 1967 التي احتلت إسرائيل بنتيجتها شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة وانتزاعهما والجولان والضفة الغربية، بما فيها القدس الشرقية، ما أدى إلى توسع سيطرة إسرائيل على أراضٍ توازي ثلاثة أضعاف مساحتها. هذه الحوادث الحربية لا تزال تدمغ جيوسياسة المنطقة، لأن هذه المناطق لا تزال، في غالبيتها، تحت الاحتلال الإسرائيلي.

في إدانة إقامة الجمهورية الإسلامية في إيران، وفي الحملة الأولى العالمية لعزل نظام طهران، مباشرة بعد سقوط الشاه، في حين أنه كان هناك خيارات ديمقراطية مختلفة حينها، ممثلة في رئاسة بني صدر ووجود منظمة مجاهدي خلق، وحتى، بشكل غير مباشر، كان هناك الحزب الشيوعي الإيراني، توده، في التحالف الحاكم يومها[20].

أما في الولايات المتحدة، وعشية حرب الانفصال التي يسمّونها هناك الحرب الأهلية، اعتبرت الحركة النسائية المطالِبة بحق المرأة في الانتخاب أن مجتمعها لن يكون قادرًا على تحمّل صدمتين دفعة واحدة: إلغاء العبودية وحق النساء في الاقتراع، وكانت النتيجة اختيارها الوقوف إلى جانب حق الاقتراع على حساب إلغاء العبودية. لكن حركة النساء هذه، وكانت في مجملها مكونة من نساء بيض ومتعلمات، لم تكن تنكر حينها عدم أخلاقية العبودية؛ كانت هذه مسألة أولويات سياسية لا مسألة مشاعر سياسية مناهضة للسود. في حين أنه عندما تتعلق المسألة برهاب الإسلام، فإن عددًا كبيرًا من الحركات النسائية في أوروبا وأميركا الشمالية لا يكتفي بالصياح والمطالبة بأولوية نضال النساء على جميع المسائل، بل إنه يزيد، ويزايد، من أجل التشهير بالإسلام والمسلمين والمجتمعات الإسلامية.

لنخرجَ من الإطار الفرنسي، يجب علينا التأمل في ما كانت عليه الإمبراطورية السوفياتية الراحلة، ومحاولة فرض الاشتراكية الروسية على الجمهوريات السوفياتية المتحدة» مع روسيا: استعمار السكان، سيطرة إمبريالية على الأطراف - تحمل سمة سياسية عسكرية وسمة اقتصادية - ونزعة عنصرية في المركز. لكن يمكننا كذلك التأمل، على المستوى الأدبي، في شأن الكاتب الكبير إسماعيل كاداريه، الوطني الألباني الناطق بالتركية تقليديًا، وفي شأن فيض العنصرية المضادة للصينيين والفيتناميين التي يعرضها للقارئ في كتاب مثل *Le concert* **(الحفلة الموسيقية)** (1988). وليس من المهم كثيرًا هنا تفكيك المكونات الموضوعية للعداوة التي تؤدي إلى الكراهيات الجماعية عبر تحليلها، لكن يكفي

(20) هذا العزل بالتحديد هو الذي سمح للثورة الإيرانية بأن تفرض الجمهورية الإسلامية على حساب مكونات المجتمع الأخرى.

أن نلاحظ وجودها وخطرها. من جهة أخرى، لا تبدو السيطرة الصينية على التيبت خاضعة لمنطق مختلف، حيث إنها تربط كذلك بين السيطرة الاستعمارية في خدمة احتلال استيطاني وخطاب اشتراكي «تحريري»[21]. يمكننا أيضًا أن نتذكر أعوام منغستو هيلا مريام في إثيوبيا، حين ورث النظام «الأحمر» من الحكم الملكي الذي قام بانقلاب ضده، وإدارة الحرب الاستعمارية في إريتريا، علاوة على تحالفه العسكري مع إسرائيل. وتستمر إعادة الإنتاج هذه للصورة الاستعمارية وتكمل حياتها على الرغم من تغيير النظام أو الهجرة الجغرافية. ويختصر هذا الأمر الجندي الإسرائيلي، المهاجر الجديد من روسيا، الذي يتعامل بعنف مع الفلسطيني على الحاجز ويناديه بـ«الشيشاني الوسخ»!

أما الصهيونية العمالية، فهي صورة أخرى بارزة توضح الانسجام الكامل تمامًا بين العنصرية واليسار. هذا هو ما أسميه الاشتراكية - الاحتلالية، وما يسميه التأريخ الصهيوني نفسه «الاستعمار العمالي». وعلى العكس من الاستعمار الصناعي للقياصرة على أراضي الباشكير والكالموك، حين وطنت كاترين الثانية هناك، وبهدف جعل المنطقة روسية، «عبيد معامل»، أو حين رُحّل رجال الكومونة إلى الجزائر، فإن الاستعمار العمالي الصهيوني هو حركة استعمار تقودها المنظمات العمالية: يعود رأس مال دولة المستعمرين الإسرائيلية، منذ تأسيسها، إلى الاتحاد المركزي للنقابات، أي الهستدروت الذي يملك تروستات عدة، من بينها مؤسسة سوليل بونيه للبناء، وشركة تنوفا لإنتاج منتوجات الحليب وتوزيعها. ويدير هذا الاتحاد كذلك منظمة كوبات حوليم، أي ما يوازي الضمان الاجتماعي، وهو في الوقت نفسه، وحتى الآن، أكبر رب عمل في البلاد. وتمثل حركة الشبيبة الصهيونية الاشتراكية هشومير هتسعير (أي الحرس الشبابي) حالة متطرفة، وهي توضح بشكل خاص الاستعمار اليساري. وكان تأسيس هذه الحركة في أوروبا في

(21) إيلان هاليفي: ألم يكتب ماركس وإنغلز في عام 1847، في **البيان الشيوعي**، أن الولايات المتحدة الأميركية تمتاز بأعلى شكل موجود من الحكم الشعبي؟ كان ذلك قبل خمسة عشر عامًا من إلغاء العبودية! ما يؤكد تمامًا إلى أي حد لا يتعارض الحكم الشعبي - داخل نطاق جماعة المحتلين أنفسهم - مع القمع الأكثر همجية للآخر، للغريب. وحتى في جمهورية أفلاطون المثالية، لم يكن الغرباء، المحكومون بالموت البطيء في الظلمات الخارجية للملكية الخاصة، مقبولين على الطاولة المشتركة للناس المتساوين، وقد كانت الديمقراطية الأولى المعروفة بهذا الاسم، أي ديمقراطية أثينا، ديمقراطية مالكي العبيد.

بداية عام 1920، وكان على هذا الجناح اليساري في الحركة الصهيونية، مع حركة العمال الموحدة مبام، أن ينشئ حزبًا سياسيًا؛ حيث كان بن غوريون يقول إن على هذا الحزب أن يحقق ثلاثة أهداف تاريخية - أن يكون في طليعة حركة الاستعمار الصهيوني، وتكوين مجتمع عمل يقوم على المساواة، وإلحاق إسرائيل بالمعسكر السوفياتي - ويجب الاعتراف بأنه لم يحقق شيئًا من هذا ما عدا في المجال الأول. يبقى أن حركة الشبيبة الصهيونية الاشتراكية تريد أن تكون في مجموعة الحركات التقدمية والتغييرية، في كثير من دول أوروبا وأميركا اللاتينية، خصوصًا في حركة مناهضة العولمة، وهي تتهم كل محاولة لقطع الطريق أمامها أو لوضع شروط على وجودها بمعاداة السامية.

إن مفهوم العنصرية اليسارية (أيديولوجيًا)، ويُعتبر في أول وهلة أنه متناقض، أو العنصرية الشعبية أو العمالية (اجتماعيًا)، هو مفهوم أساس هنا من أجل مقاربة حقيقة رهاب الإسلام بوصفه ورمًا خبيثًا لمعاداة السامية؛ لأن مما لا شك فيه أن ما شكّل في تاريخ أوروبا الضراوة الخاصة في معاداة السامية، وهي التي أصبحت في ما بعد الأرضية الملائمة لنمو التوتاليتاريات والشعبويات المذهلة، كان واقع أنها أصبحت المكان الموائم لهذيان إجماعي ما بين الطبقات، حيث كان يمكن أن يكون ثمة تواصل بين النخبة والحثالة، اليمين واليسار، أرباب العمل والعمال. وضد اليهود الآتين من كل مكان، مهاجرين بؤساء، ناشطين ثوريين، مخربين للعالم القديم وللنظام الاجتماعي القائم، حشود آسيوية، تحركت العنصرية المحافظة لليمين القومي، في حين ماثل، من جهة أخرى، ضحايا النظام البرجوازي اليهود بسلطة المال. أما المضادون للإكليروس، فرأوا في اليهودية كل ما كانوا يكرهونه في المسيحية. باختصار، كان هذا ما سمّاه أوغست بيبل (August Bebel)[22] بـ «اشتراكية الأغبياء»!

---

(22) كان قياديًا في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني ووجهًا من وجوه الاشتراكية الديمقراطية الثورية في نهاية القرن التاسع عشر. وفي أثناء فترات اعتقاله كناشط اشتراكي، كتب بشكل خاص *Die Mohammedanisch-Arabische Kulturperiode* (**الحقبة الثقافية العربية الإسلامية**)، مناديًا بالحوار بين الثقافات. وكان كذلك يناضل من أجل المساواة بين المرأة والرجل، ومما كتبه في هذا الشأن *La Femme et le socialisme* (**المرأة والاشتراكية**) في عام 1883.

لا يمكن التقليل من شأن أهمية هذا البُعد بين الطبقات وعنفه؛ فهو الذي يعطي الإبادة مساحتها الاجتماعية، لكن أيضًا دعائمها، سلاح مشاتها، لحم مدافعها، منفذيها، شعب هجومها وأبطالها في الصف الأول؛ لأن من المعروف أن النخبة، على الرغم من معرفتها قصة إبراهيم والتضحية باسحق، لا تميل إلى التضحية بأبنائها، وتفضّل لنفسها متعة القيادة على السعادة المحدودة في الجبهة.

لنتوقف لحظة أمام راحة الضمير التي تغطي رهاب الإسلام المعاصر وأهمية مكوناته «المستنيرة» و«التقدمية» و«التحررية»، كي نستطيع اتخاذ موقف أمام هذا التشابه المذهل، الذي هو القمة في أثر المرآة الذي ذكرناه سابقًا.

بغضّ النظر عن مسألة أن لا أحد يستطيع ادعاء وجود «عِرق» مسلم، فإن رهاب الإسلام هو بالتأكيد شكل من أشكال العنصرية، أي الكراهية والنفور تجاه جماعة بشرية ما، مثله مثل مناهضة السامية التي يتشارك معها بعدد من نقاط محددة.

مثل الصهيونية؟

في تشرين الأول/ أكتوبر 1975، اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار 799 الذي يؤكد أن الصهيونية «شكل من أشكال العنصرية والتمييز العرقي». كان ذلك نتيجة اقتراع حصلت عليه «الأكثرية الأوتوماتيكية» المكونة من تحالف المعسكر السوفياتي وحركة عدم الانحياز والعالمين الثاني والثالث. وما لا يعرفه كثير من الناس هو أن هذا القرار قدّمه الرئيس المصري أنور السادات داخل المجموعة العربية لتفشيل مشروع عراقي كان يرمي إلى قرار يطالب فيه بإخراج إسرائيل من المنظمة الدولية. وكان السادات نفسه هو من طرد السوفيات من مصر واصطف إلى جانب واشنطن من دون أي تحفظ، وكان يريد إقامة سلام مع إسرائيل مهما كان الثمن، كما ظهر لاحقًا: بعد عامين كان الرئيس المصري ضيف مناحِم بيغن في البرلمان الإسرائيلي. لكن هذا القرار، الوحيد من نوعه، الذي لا يتضمن ورقة عملانية، يقارب ما يبدو أنه إنتاج أيديولوجي.

في مجلة **لونوفال أوبسرفاتور**، تثور أعصاب جان دانيال، ويوجه فيها تحت عنوان «*Trop, c'est trop!*» («هذا كثير») انتقاده إلى «أسياد الأمم المتحدة

الجدد»[23]. وفي عام 1993، حين لم يبق معسكر سوفياتي يسمح لجبهة عدم الانحياز بالوجود كتكتل، أجرت الجمعية العامة للأمم المتحدة التي أصبحت بلا حول ولا قوة في وجه الضغوط الأميركية، وتحت ضغط الأوهام المبتهجة المرافقة لعملية السلام (نحن هنا ما بين مدريد وأوسلو)، تصويتًا بهدف إلغاء القرار 799، على الرغم من التزام الدول الأعضاء في عدم الانحياز، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، وحتى جامعة الدول العربية، التي خضعت للضغوط من جميع الجهات. هكذا ألغي القرار ببساطة، ومنذ ذلك الحين، بذلت الحكومة الإسرائيلية وأصدقاؤها، وكذلك البيت الأبيض بالذات، ضغطًا كبيرًا من أجل جعل محتوى هذا القرار غير شرعي، حتى أصبح الآن، وفي الخطاب العام السائد في أوروبا والولايات المتحدة، اتهام الصهيونية بأنها شكل من أشكال العنصرية يُعتبر شكلًا من أشكال معاداة السامية.

مع ذلك، وحتى لو اعتمدنا تعريفًا بسيطًا للصهيونية، أي تعريفًا مقبولًا من كل من يدّعي أنه صهيوني، بمن في ذلك الأكثر قبولًا بالحد الأدنى للأمور[24]، سواء في ما يخص موضوع الأراضي أم في ما يخص مجال التمييز بين المواطنين اليهود وغير اليهود (الدولة لكل مواطنيها، هل يمكن أن تكون يهودية وديمقراطية في آن؟ بحسب السؤال الذي أطلقه عزمي بشارة وصار شعبيًا)، يبقى أن كل صهيوني يريد دولة «يهودية» دستوريًا ومؤسساتيًا، مهما كانت حدودها. ماذا يعني ذلك، عمليًا؟

في عام 1947، وعشية اعتماد مشروع تقسيم فلسطين في الجمعية العمومية للأمم المتحدة، وحين سأل صحافي غولدا مائير: «إذا قدّم العرب إليكم في دولة عربية الحقوق نفسها التي تقدمونها إليهم في دولة يهودية، هل ستقبلون...؟»،

---

(23) إيلان هاليفي: شاءت المصادفة أن أعمل مراسلًا للجريدة اليومية **ليبراسيون** في القدس، وكنت مارًا بباريس في ذلك اليوم. طلب مني سيرج جولي أن أردَّ على افتتاحية **لونوفال أوبسرفاتور** بافتتاحية أخرى. ذكرت فيها تاريخ هذا القرار، لكننا لم نكن نعرف حينها إلى أي حد سيذهب السادات، بالتالي نحو القدس، وحتى وفاته، بقيت لديه الإرادة لتقديم بدائل قابلة للتصديق و«واقعية» للراديكالية اللفظية التي ترافق العجز عادة.

(24) إيلان هاليفي: حزب ميرتس - ياحاد مثلًا، أو حركة «السلام الآن»، وبشكل أكثر عمومية، حزب العمال، وغيرها من فناني اللغة المزدوجة.

فأجابت بحماستها المعتادة: «لا، يا سيدي، لأنه يجب أن يكون هناك، في مكان ما في العالم، مكان يكون اليهود فيه أكثرية!».

كان الرئيس الأول للدولة الإسرائيلية، حاييم وايزمان، وهو الذي كان قد أعلن أن التاريخ سيحكم على إسرائيل وفقًا للطريقة التي تعامل فيها الدولة مواطنيها العرب، يصف هجرة أكثر من 800.000 فلسطيني في عام 1948، بـ «تبسيط عجائبي لمهمات إسرائيل»! لأنه، وكما يشير يوسف فايتس، رئيس الصندوق الوطني اليهودي[25] في مذكراته في عام 1941: «بيني وبينك، يجب أن يكون واضحًا أنه لا يوجد مكان لشعبين في هذا البلد»[26].

في شهادة نُشرت في عام 1976 في مجلة *Politique Hebdo*، تحكي هافا غلوغوسكي شفارتز، متزوجة من هاليفي، كيف أنها، في حرب 1948، وكانت طفلة حينها وأصابها قلق، في الكيبوتس، حيث عاشت في غان شموئيل، رأت بيوت قرية خربة السركس العربية المجاورة[27] تُدمّر بالديناميت. وعندما سألت ببراءة الطفولة: «ماذا سيقول العرب حين يعودون ويجدون بيوتهم مدمرة؟»، أجابها الكبار: «دمّرنا منازلهم بالضبط حتى لا يعودوا، حتى يفهموا أنهم لن يعودوا».

كانت هذه هي الخطيئة الأصلية: كان التطهير العرقي هو المؤسس للأمة. لكن هذه هي الحال أيضًا في الولايات المتحدة وفي غالبية الدول في القارة الأميركية. وهي كذلك الحال في روسيا، حتى ولو كانت القصة معروفة بدرجة أقل. إذًا ليست هي حالة استثنائية في تفاهة الجريمة المحزنة في التاريخ البشري. ويجد الصهيونيون لأنفسهم هنا رفاقًا جيدين فلا يعودون منبوذين وحدهم (وهذه

---

(25) مؤسسة مستقلة عن المنظمة الصهيونية العالمية، أُسست في عام 1911 للحصول على أراضٍ في فلسطين من أجل الاحتلال اليهودي.

(26) ترجمه بالكامل إيلان هاليفي في كتابه *Sous Israël la Palestine* **(تحت إسرئيل: فلسطين)** (1978).

(27) تقع في أقصى جنوب قضاء حيفا، على بعد 42 كلم من حيفا، وترتفع 25 مترًا عن سطح البحر، بلغ عدد سكانها في عام 1931 383 نسمة، منهم 366 عربيًا و17 يهوديًا، ويرجع اسمها إلى الشركس الذين فروا من قيصر روسيا إلى ملاذ الولايات العثمانية. أنشئت على أراضي القرية مستعمرتان: غان شموئيل في عام 1913، ومستوطنة تلمي أليعيزر في عام 1952. وتوجد في فلسطين المحتلة قريتان شركسيتان: الريحانية وكفركما. (المحرر)

مواساة هزيلة). لكن في الحقيقة، وبشكل عام، يشجع هذا النوع من المعاينة الفعلية أولئك الذين يعتقدون أنهم المستفيدون من ذلك على الاستمرار بالطريق نفسها، بدلًا من قلب الصفحة، كما فعلت، أو كما تحاول أن تفعل، أمم أخرى ذات أصول استعمارية، من أميركا اللاتينية حتى جنوب أفريقيا.

الدولة اليهودية، مهما يكن شكلها، هي دولة تحدد نوعين قانونيين مختلفين من المواطنين: اليهود و«غير اليهود». إذًا هي دولة تفرّق بين مواطنيها المعروفين كيهود من الإدارة الإسرائيلية وفقًا لمعايير محددة بالاتفاق مع السلطات الدينية اليهودية، ومواطنيها العرب، مسيحيين ومسلمين، حتى داخل الخط الأخضر، أي في الأراضي الملحقة بدولة إسرائيل منذ اتفاقات الهدنة في رودس في عام 1949. وهؤلاء هم بالذات مقسمون إداريًا إلى جماعات دينية (مسيحيون من مختلف الملل، ودروز، وسنّة - ويسمون «مسلمين») أو إلى جماعات قومية (شركس، إثيوبيون، أرمن)، أو اجتماعية ومناطقية، وهذه حال البدو مثلًا - وهم مصنَّفون رسميًا تحت اسم «الأقليات». وفي حين أن المسلمين السنّة لا يدخلون في الجيش الإسرائيلي، فإن الدروز خاضعون للتجنيد، أما البدو والمسيحيون فلهم الحق في الخدمة العسكرية. لكن هذه الخدمات المقدّمة إلى المؤسسة غصبًا عنهم لا تعطيهم أبدًا الحق، مهما كانت ديانتهم، بالإقامة في كرمئيل[28] أو في الناصرة العليا[29]، أو في أي «مدينة في طور النمو» يديرها قانونيًا الصندوق

(28) أُقيمت على أراضي قرية الرمية في الجليل، ضمن اللواء الشمالي. أُسست في عام 1964 وأصبحت مدينة في عام 1986. بلغ عدد سكانها في عام 2009 قرابة 44.000 نسمة، معظمهم من المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفياتي، في سبعينيات القرن العشرين. قررت الحكومة الإسرائيلية توسيع القرية وجعلها مدينة، وصادرت لهذه الغاية 5000 فدان من الأرض الزراعية التابعة لأهالي مدينة سخنين العربية. في 30 آذار/ مارس 1976 تظاهر أهل سخنين ضد هذه الخطة مع مواطنين عرب من مناطق أخرى في الجليل، ما أدى إلى اشتباكات مع الشرطة الإسرائيلية التي قتلت ثلاثة من أبناء سخنين. لا يزال هذا الحادث يُحتفل به سنويًا، في سخنين ومدن عربية أخرى، في إطار ما يُعرف بـ«يوم الأرض». (المحرر)

(29) أُسست الناصرة العليا في عام 1957 قُرب مدينة الناصرة العربية (أكبر مركز لعرب 48 حاليًا)، لتكون بمنزلة ثقل موازن لليهود في الجليل. خُطط لها لتشرف على مدينة الناصرة العربية ومرج ابن عامر، وتصبح مركزًا للواء. رافق ذلك قيام الحكومة بمصادرة أراضي شرق مدينة الناصرة وأراض للقرى المحيطة. أصبحت مدينة في عام 1974. (المحرر)

الوطني اليهودي الذي هو فرع من الحركة الصهيونية أُسس منذ أكثر من خمسة وثمانين عامًا قبل تأسيس الدولة، حيث تنص بنوده على أن الأراضي التي يملكها الصندوق هي «ملكية غير قابلة للتصرف للشعب اليهودي»، ولا يمكن بأي حال من الأحوال «بيعها أو تأجيرها أو الإجارة الزراعية لغير اليهود». وخلال السبعينيات، اضطر كثير من سكان الكيبوتس[30] والموشاف[31] إلى دفع غرامة لأنهم خالفوا هذه القوانين. وفي الفترة نفسها، تخلت الدولة عن حل البلدية العربية في الناصرة لإنشاء مدينة موحدة مع الناصرة العليا، لأن ما إن تحررت هذه الأخيرة من وضعها كمدينة في طور النمو ومن القوانين التمييزية للصندوق الوطني اليهودي، حتى بدأ سكانها يبيعون بيوتهم أو يؤجرونها لعرب الناصرة (السفلى).

في عام 2004، ونتيجة قرار من المحكمة العليا، وبعد أن تقدم مواطن عربي إسرائيلي باستئناف، رسم المستشار القانوني في الحكومة الإسرائيلية هذا الأمر العنصري غير الشرعي (أي إن الأراضي التي يملكها الصندوق هي «ملكية غير قابلة للتصرف للشعب اليهودي»). وكي يستفيد من هذا الحكم القضائي، اقترع البرلمان الإسرائيلي، في قراءة أولى، في 18 تموز/ يوليو 2007، على قانون جديد سمّي «قانون في شأن الصندوق الوطني اليهودي»، يحوّل التمييز الذي نص عليه دستور وأنظمة الصندوق الوطني اليهودي إلى قانون، الأمر الذي أعطى صحيفة **هآرتس** فرصة نشر افتتاحية (وليس منصة حرة أو رأي، بل افتتاحية) تحمل عنوان «القانون في شأن الصندوق الوطني اليهودي يجعل من إسرائيل دولة عنصرية».

---

(30) الكيوبتس مستوطنة زراعية عسكرية (وبالعبرية تجمُّع، وجمعها «كيبوتسيم»، أو بالعربية «كيبوتسات»). هي تجمع سكني تعاوني يضم جماعة من المزارعين أو العمال اليهود الذين يعيشون ويعملون سويًا، ويبلغ عددهم بين 40 و1500 عضو. ويُعدُّ الكيبوتس من أهم المؤسسات التي استندت إليها الحركة الصهيونية في فلسطين (قبل عام 1948) أو إسرائيل (بعد تأسيسها)، والتي أثرت في الحياة السياسية والاجتماعية في إسرائيل حتى بداية الثمانينيات من القرن العشرين، وقتما بدأ انحطاطها. والكيبوتس كيان مستقل إداريًا عن السلطات المحلية، ويوفر خدمات تعليمية وصحية وحِرفية، معتمدًا على جهد ذاتي للمقيمين فيه، ويلقى دعمًا من الدولة. أسس أول الكيبوتسات في عام 1909 على ساحل بحيرة طبرية، على بعد 10 كلم جنوب مدينة طبرية، وسمي «كفوتسات دغانيا»، أي «مجموعة دغانيا». (المحرر)

(31) الموشاف: مصطلح عبري يشير إلى قرية زراعية تُكَوِنُ فيه الأسر وحدات اقتصادية تدير قطعة الأرض بشكل خاص بها، وتعود ملكية أراضي الموشاف إلى الصندوق القومي اليهودي. وقد أقيم أول موشاف عمالي في عام 1921 في شمال مرج ابن عامر. (المحرر)

في هذا المجال، تبدو قراءة الحوليات الإحصائية الإسرائيلية الرسمية مهمة، لأننا نكتشف فيها أنه لا يوجد في إسرائيل وفيات أطفال واحدة، بل اثنتين، واحدة يهودية وأخرى غير يهودية، ونجد حتى أن البندورة تُصنّف وفقًا لـ «جنسية»[32] منتجيها إلى بندورة يهودية وبندورة غير يهودية!

إذا كانت دولة إسرائيل تمارس التميز الإداري تجاه مواطنيها العرب الذين تصفهم بشكل سلبي «غير اليهود»، وإداريًا تقسّمهم إلى «أقليات»، فإن احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة في عام 1967 فتح الباب على «جنوب أفرقة» للاقتصاد الإسرائيلي، مع أراضٍ محددة (بانتوستونات)[33] تدعى مستقلة ونظام فصل عنصري وتقسيم للمكان عبر الجدار الذي يعبّر عن عجز الإسرائيليين عن تصور آخر للسلام غير تصورهم الحالي، أي السيادة الحصرية والسيطرة على جميع المناطق من الغيتو الخاص بهم والمدجج بالسلاح.

هذه الصهيونية العنصرية والتمييزية بالنتيجة تجاه الفلسطينيين هي كذلك مضادة للسامية في بداياتها وفي اعتقاداتها. وهي تشارك المعادين للسامية فكرةَ أن الوجود اليهودي في الشتات كان غير طبيعي، وأنه يجب ألّا يكون كذلك. وهي تؤيدهم حين كانوا يرفضون الاستيعاب، أو حتى ببساطة اندماج اليهود في المجتمعات الأوروبية التي كانوا هم جزءًا منها. وهي تتشارك معهم في الأحكام المسبقة السلبية التي تحتقر اليهود «المهجرين». ويعطي هرتسل بعض الأمثلة في مذكراته، ويعرض آرثر كوستلر هذا المنطق في كتابه *La tour d'Ezra*[34] (برج

---

(32) تذكر بطاقات الهوية الإسرائيلية، وهي باللغتين العبرية والعربية، الديانة في خانة Le'om التي تعني الجنسية بالعبرية، وفي مقابل إشارة Milla التي تعني الجماعة، بالعربية، في المفردات الموروثة من الإدارة العثمانية. نجد هنا المزيج الاستعماري الكلاسيكي (الدين، الجنسية، الإثنية، العِرق...)؛ وكان الحديث في الجزائر عن الفرنسيين والمسلمين وفي كل أفريقيا الغربية الفرنسية، كان السكان الأصليون يشيرون إلى المستعمرين المنقسمين وفقًا للانتماءات العرفية. وحتى الآن، تطلب فرنسا من الرعايا الأفارقة الراغبين في الزواج من فرنسي أو فرنسية شهادة خاصة تذكر الإثنية أو الديانة.

(33) تتشكل كلمة بانتوستان من بانتو، أي شعب، وستان، أي أرض، باللغة الفارسية. والبانتوستان هي المناطق التي أقامها الحكام البيض خلال مرحلة التمييز العنصري في جنوب أفريقيا لتكون أماكن تجمع السكان السود، فكأنها هي وطنهم الصغير. (المحرر)

(34) في هذا الكتاب يروي آرثر كوستلر (1905-1983) تجربة انضمامه في عام 1926 إلى شباب صهيونيين للعيش بضعة شهور في كيبوتس صغير في فلسطين. (المحرر)

عزرا)، غير أن حنه آرندت تعتبر أن الصهيونية ذات القومية الواحدة تمثّل الانتصار النظري للمضادين للسامية، واعتماد اليهود فلسفتهم. ومن المهم ملاحظة أن ميشال عفلق، المنظّر الكبير لحزب البعث، وهو كذلك أكبر منظِّمي تيارات القومية العربية التحديثية و«العلمانية»، كان يطمح أيضًا إلى تأسيس دولة عربية من الطراز الحديث، لأنه كان يمقت القبائل والعشائر وجميع الأوضاع المتخلفة في المجتمع العربي، ويخجل منها، أليس هذا عند بعض الشعوب كما عند بعض الشعوب الأخرى، ما يسميه الصهيونيون «كراهية الذات»[35]؟

ترتكز الصهيونية على فرضيات تجعل من العنصرية القاعدة المقبولة في العلاقات بين الجماعات. ويوحي رفضها وجود الشتات ودوغمائيتها القومية وهوسها بالهجرة برضى غريب تجاه معاداة السامية[36]. وفي عام 1903، التقى هرتسل الكونت سيرجي ويت (Sergei Witte)، وزير مالية القيصر الروسي نيقولا الثاني، ما أثار حفيظة الصهيونيين الروس، ومن ثم قابل في العام نفسه وزير الداخلية الذائع الصيت فون بليف (Von Plehve) الذي نظم مذابح كيشينيف، والذي اغتاله «الفوضويون» بعد ذلك بعام واحد، وكان كلاهما معاديًا للسامية ويجاهر بذلك. وحين شرح هرتسل لويت في 9 آب/ أغسطس 1903 أنه يجب تشجيع الهجرة، أجابه هذا الأخير (ويت): «هذا ما نعطيه فعلًا من تشجيع. ركلات، مثلًا!»، وأضاف: «كنت معتادًا القول للقيصر ألكسندر الثالث المسكين: 'إذا كان ممكنًا، لجلالتكم، إغراق ستة أو سبعة ملايين يهودي في البحر الأسود، فإنني سأكون في قمة السعادة، لكن هذا مستحيل، لذلك يجب تركهم يعيشون!'». كل هذا لم يمنع الصحافي النمساوي (أي هرتسل) الذي أسس الحركة الصهيونية قبل ذلك بأعوام عدة، من أن يقترح على محاوريه تحالفًا سياسيًا واضحًا، وكان يشدد على أن كل تقدم للصهيونية سيشكل نكسة للحركة الثورية، والعكس صحيح.

---

(35) إن مفهوم كره الذات يلّوح به الصهيونيون بانتظام ما إن يرفض أي يهودي المشاركة في التمجيد الذاتي للجماعة، أو ببساطة حين ينتقد السياسة الإسرائيلية. وبالطريقة نفسها التي يتهم فيها أي شخص ينتقد إسرائيل بمعاداة السامية، يصبح كل يهودي ينتقد إسرائيل يهوديًا معاديًا للسامية، أي يهوديًا يكره نفسه.

(36) هذا الموقف يتجلى بشكل دائم في تصريحات بنيامين نتنياهو الذي يدعو يهود فرنسا إلى «العودة» إلى إسرائيل لأنهم سيكونون هناك في أمان.

إن هذه الرؤية الاستعمارية للعالم والمتمركزة حول أوروبيتها تطبع الثقافة السياسية للحركة الصهيونية منذ بداية الاحتلال، أي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر[37].

هكذا، يبدو لنا من الشرعي تمامًا، أي بما يتوافق مع حقيقة الحوادث، أن نشدد على الصفة العنصرية والتمييزية للصهيونية، وكذلك لمؤسسات دولة إسرائيل، ولا أرى في أي خدعة في الخطاب يمكن هكذا تأكيد أن يمثّل ظاهرة عنصرية تجاه اليهود! ومن المؤكد أن الخلط بين يهودي وإسرائيلي أمر مؤسف، ويمكن أن يشجع كثيرين من الزلات المختلفة. لكن هناك تناقضًا حين تجري المطالبة بلا هوادة بالطابع اليهودي للدولة وبالاعتراف عالميًا بها، وفي الوقت نفسه اتهام كل من يشير إلى يهودية الإسرائيليين بمعاداة السامية؛ فالمستوطنون الإسرائيليون في الأراضي المحتلة الفلسطينية، مثلًا، وفي مستوطناتهم، هم بالتأكيد يهود، لأن يهوديتهم تؤمّن لهم نعمة العيش على أراضٍ مسروقة من الفلسطينيين. وفي هذا الصدد، ليس من المستغرب أن يشددوا على يهوديتهم أكثر من تشديدهم على هويتهم الإسرائيلية، نظرًا إلى أن عددًا كبيرًا منهم مهاجرون جدد - الأكثرية تأتي من الولايات المتحدة ثم من فرنسا!

لكن من الحقيقي أن أحابيل اللغة هي هنا، وبشكل خاص، مراوغة. هكذا أدى ميل المجتمع الفلسطيني، تبعًا للثورة النفسية التي سببتها محادثات أوسلو قبل أن تسقط، إلى التفكير في تسوية تاريخية مع دولة إسرائيل، على أن تعود إلى حدود ما قبل 1967، وأن تبقى صهيونية. هذا الميل حمل معه تقهقرًا في اللغة. وبعد عقود من التربية السياسية، حيث قامت منظمة التحرير الفلسطينية بتعليم الأطفال الفلسطينيين الفارق بين يهودي وإسرائيلي وصهيوني، عاد كلام الشارع الفلسطيني إلى تعميم «يهودي» للإشارة إلى أي إسرائيلي. لكن هل يمكن

---

(37) إيلان هاليفي: كان الكاتب آحاد هعام الذي كان يكتب بالعبرية في روسيا، يبدو قائدًا روحيًا وأخلاقيًا لحركة عشاق صهيون التي جاءت قبل ظهور الصهيونية السياسية وكانت تطالب بـ «مركز روحي» في فلسطين ليهود أوروبا. وهو وصف بشكل جيد هذا الجو والأفكار التي كانت تنتقل بين المهاجرين اليهود في أوروبا بخصوص فلسطين في مقالته الشهيرة «حقيقة أرض إسرائيل» التي كتبها في عام 1893 وقمت بترجمته في كتابي **تحت إسرائيل فلسطين** (1978).

أن نطالب الفلسطينيين بأن يكونوا أكثر دقة من الإسرائيليين أنفسهم في العبارات المستخدَمة للاشارة إليهم؟

في هذا الوضع، يصبح من غير المنصف تجاه الحقيقة، وكذلك تجاه من يتلقون ذلك، ألّا تُذكر العنصرية والتمييز اللذان يطاولان اليهود «الشرقيين»[38]، وهم يكوّنون مع ذلك أكثرية يهود إسرائيل، في المؤسسات كما في المجتمع «المدني» الإسرائيلي. هذا وجرى انتقاد هذا التمييز تجاه الشرقيين، منذ عقود، وحتى من النخبة السياسية من «الأشكيناز»، ما أدى إلى تراجع هذا التمييز في عدد من المجالات، لكنه لا يزال موجودًا في مجالات أخرى. وكانت الدراسات قد بيّنت أن اللامساواة بين «الجماعات» لا تختفي مع مرور الأجيال وإنما تتكرّر. وفي التحليل الأخير، فإن الاحتقار «الثقافي» الذي يطاول يهود «أفريقيا وآسيا» هو نتيجة لا يمكن تفاديها للعنصرية الاستعمارية التي هي قوام المؤسسة الصهيونية في فلسطين منذ نشأتها الأولى.

لكن يجب التشديد على أن العنصريين ليسوا أكثر وحشية من المستوطنين؛ فالاحتقار المتعالي الذي أبداه الفرنسيون القاطنون في فرنسا تجاه الفرنسيين الذين عاشوا في الجزائر أو المغرب، بعد استقلال الجزائر، كما لو كان هؤلاء مسؤولين أكثر منهم عن الجرائم والفظائع التي قام بها المستعمرون الفرنسيون في الجزائر، لم يكن مبررًا مثله مثل المحاكمة الأخلاقية لجميع البيض في القارة الأميركية بتهمة مشاركتهم في الإبادة الجماعية للهنود الحمر. لكن نجد، والحق يقال، أن العنصريين المعلنين، أي الذين يتحملون وزر خيارهم، هم دائمًا من المفتونين بالقوة، من أنصار العنف المنظَّم، من أتباع اللامساواة: وبكلمة مختصرة، ليسوا أبدًا أناسًا طيبين تملكهم غضب رديء، كما يدّعي أولئك الذين يحاولون جذبهم من أجل أصواتهم. أما الآخرون، العنصريون الخجلون، فهم أسرى تناقضاتهم،

---

(38) أن يسمى «شرقيين» في إسرائيل، اليهود المغاربة، أي الآتين من المغرب – ما يعني بالعربية «غربيين» – ليس إلّا واحدًا من تناقضات هذا النظام المتناقض في التسميات. هكذا، لا تحصي الإحصاءات الرسمية التي تذكر الآتين من «أفريقيا وآسيا»، من بين هؤلاء، يهود جنوب أفريقيا، وتضعهم في صف «الآتين من أوروبا». وتخضع التصنيفات العرقية والاستعمارية أولًا لمقتضيات سياسية انتهازية لا لمحاولات وصف موضوعي لحقيقة مادية أو اجتماعية.

والأفكار المسبقة، أسرى محافظتهم أو تقليدهم، بل خضوعهم لأفكار الطبقة الحاكمة، أي ما يمكننا تسميته كلاب حراسة اللامساواة الاجتماعية. إنها كذلك عنصرية **العاهرة المحترمة** عند جان بول سارتر[39]، المجبولة من المحافظة والخضوع للنظام الاجتماعي نفسه الذي يحكم عليها، مع عدم القدرة على إعادة النظر فيه.

خلال عدة عقود، كان من المثير ملاحظة تنوع القراءات في الولايات المتحدة وفرنسا حول حركات الشعب التي هزت دوريًا نسيج المدن أو أشعلتها: غيتوات هناك أو ضواحٍ هنا - تُقرأ بمفردات أخلاقية في الهناك، واجتماعية - اقتصادية في الهنا.

أسقط علينا إعدام خالد قلقال في 29 أيلول/ سبتمبر 1995 في ضاحية ليون، الذي جعل منه شهيدًا بالمعنى «الإسلامي» للكلمة، صورته ومواصفاته كسبّاق لسيناريو لم يكن بعدُ قد حصل: لم تكن أعمال العنف والخراب التي أشعلت ضواحي مدن فرنسية عدة بين عامَي 2005 و2006 مرتبطة قط بالمجموعات الإسلامية التي ظهرت بالأحرى عناصرَ لحفظ النظام؛ ذلك لأن أعمال العنف في فرنسا في زمن قلقال كانت مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالوضع الجزائري وأشكال التلاعب هناك، لأن ذلك كان قبل 11 أيلول/ سبتمبر 2001. لكن الإشكالية السياسية - الأمنية المرتبطة بـ«الإرهاب الإسلامي» مهدت الطريق لأولئك الذين يعتبرون العربية والإسلام، على طريقة فينكلكراوت أو هويلبك، عناصر إجرامية جينية محدِّدة[40].

---

(39) إشارة إلى عنوان إحدى مسرحياته *La Putain respectueuse*. (المحرر)

(40) انظر المقابلة التي أثارت كثيرًا من النقاش التي أجرتها اليومية الإسرائيلية هآرتس مع آلان فينكلكراوت، في 18 تشرين الثاني/ نوفمبر 2006، حيث شن هجومًا عنيفًا على كلٍّ من السود والعرب.

الفصل الرابع

مناهضة العنصرية؟

إذا كانت هذه حال العنصرية، فما هي حال مناهضة العنصرية؟ هل هي عكس العنصرية أو، بالعكس، وكما ادعت مدرسة فكرية في فرنسا وكانت هذه أولى مسلّماتها، ليست إلا وجهها الآخر؟ وبين منطق الجماعة والاندماج، بين الانغلاق في غيتو، تحت غطاء الحق بالاختلاف، والاستيعاب بالقوة، بحجة الاندماج، تصبح حرية التحرك في الاتجاهين بين الانغلاق الانتمائي والمواطنة الكاملة، هي التي تكوّن الرهان الأكبر. ولا يمكن أي دوغمائية اندماجية أو اختلافية تفادي هذه الحقيقة المزعجة للدول، التي تعتبر دائمًا، وبشكل قاطع، أنه يجب دومًا الاختيار بين الحقوق الوطنية والحقوق المدنية، بين الحقوق الجماعية والحقوق الفردية، وأنه لا يمكن مطلقًا الجمع بينها. وفي الحقيقة، فإن الحركات المناهضة للعنصرية وذات النيات الحسنة الأفضل تغرق دائمًا في الانخراط الأعمى في أحد الاتجاهين.

إن أنسنة كوكبنا كانت دومًا مرتبطة عمليًا بالهجرة: فالشعوب المهاجرة كانت دومًا جزءًا مهمًا في الإنسانية، ما عدا في نشأتها الأولى في شرق أفريقيا. وفي كل مكان، كان المهاجرون يرتطمون بمقاومات، بحالات رفض، بالتمييز. لكن، وكما قال شاندرا مظفَّر[1] في المنتدى الاجتماعي الاجتماعي الذي عُقد في بومباي في عام 2004، «في عالم معولم، نحن جميعًا أقليات»؛ فالمجتمع الدولي صار بأكمله بحاجة إلى معايير جديدة، قانونية وأخلاقية في آن واحد، لتنظيم التفكير في العيش المشترك. هذا ما كانت ماري روبنسون التي كانت حينها المفوضة العليا للأمم المتحدة لحقوق الإنسان، تظن أنها ستستطيع التوصل إليه في دوربان في عام 2001.

(1) جامعي ماليزي مناضل من أجل عملية إصلاح داخل الإسلام، وكان رئيسًا للحركة العالمية من أجل عالم عادل. أوقفته حكومة بلاده في تشرين الأول/ أكتوبر 1987 باسم قانون السلامة الداخلية.

بعد أعوام من طرد الاستعمار المرهقة، بدأت ردات الفعل، وكانت الصدمة بعد أن استعاد المستعمر راحة ضميره. سمّى جاك بيرك عملية إنهاء الاستعمار «نزع امتلاك العالم» من بعض المستعمِرين. كما أن سارتر ترك في مقدمته لكتاب فرانز فانون **معذبو الأرض** صدى معبّرًا عن ذلك، مع انتهاء الحرب الباردة وتعفنها، وحيث ظن غيلبو (Guillebaud)[2] أنه يستشعر «نهاية القضايا الكبرى». وفي فرنسا، اكتشف «الفلاسفة الجدد»، وهم كانوا في أغلب الأحيان يساريين سابقين تابوا ومحافظين جدد قبل الأوان، ملذات المحافظة السياسية والاجتماعية والحلف الأطلسي، سخر باسكال بروكنر (Pascal Brukner)[3] من **دموع الرجل الأبيض**. بعد ثلاثة عقود، ونتيجة اعتداء في ضاحية (فرنسية) على شباب «فرنسيين أصيلين»، رفع فينكلكراوت دعوى، بوصفه الطرف المدني، ضد مجهول بسبب «العنصرية ضد البيض»، قبل أن يرتكب، في مقابلة ذكرناها سابقًا، الشرح غير المعقول، حيث قال إن «مناهضة العنصرية سوف تكون في القرن الحادي والعشرين ما كانت عليه الشيوعية في القرن العشرين!»، هنا نتساءل: هل هذا هو العدو؟ هل هذه هي إمبراطورية الشر؟

صحيح أن من المستحب عند الأنتليجنسيا الفرنسية البصق على مناهضي العنصرية والسخرية من طغيان «الصحيح سياسيًا» حول هذا الموضوع، الذي يعني تحميل الأوروبيين المسؤولية بشكل دائم تجاه ضحاياهم المزعومين في المستعمرات القديمة[4]، لكن هذه الاستقلالية الفكرية الرائعة لا تذهب، مع ذلك، إلى حد الاهتمام بإدانة معاداة السامية التي أصبح الأوروبيون بأكثريتهم مضطرين لاظهار ندمهم تجاهها، مؤكدين بذلك أيضًا «ازدواجية المعايير» التي هي علامة الخبث والتزوير لهذا الخطاب الذي يدّعي التحرر، لكنه شيء ملحوظ بأن إعادة الاعتبار إلى العنصرية الاستعمارية الأكثر سفاهة تمر عبر نقد راديكالي ظاهريًا لحدود الحركة والخطاب المضادين للعنصرية وتناقضاتهما.

---

(2) صحافي وكاتب فرنسي مولود في الجزائر (1944). اشتهر بمقالاته في **لوموند** الفرنسية. (المحرر)

(3) ولد في 15 كانون الأول/ ديسمبر 1948 في باريس. روائي وكاتب فرنسي. مشهور بتأييده المطلق لإسرائيل وبحملته ضد عنوان «الإسلاموفوبيا». وهو يدعو في كتابه **دموع الرجل الأبيض** إلى عدم انتقاد الذات والشعور بالذنب ثم كره الذات بسبب تاريخ الاستعمار الأبيض. (المحرر)

(4) انظر خطاب الرئيس الفرنسي السابق نيكولا ساركوزي، في دكار في 26 تموز/ يوليو 2007.

مع تقديم مناهضة العنصرية كنوع من المازوخية التي تجلد نفسها، وتقديم الذين يقاومونها وكأنهم أقلية مضطهدة، نلامس بذلك جوهر جميع أنواع العنصريات: ألا وهي قلب الأدوار في نظام العرض، حيث تصبح الضحية الآتية تهديدًا وخطرًا، وتصبح الجريمة دفاعًا ذاتيًا. من المؤكد أن المعني بذلك هو دفاع ذاتي مسبق، لكن، أليس من الأفضل دائمًا الوقاية قبل العلاج؟ يقدم حاليًا جميع عنصريي العالم أنفسهم وكأنهم أناس في حالة دفاع شرعي عن النفس، مهدَّدين من المهاجرين والبطالة وانعدام الأمن الذي يربطه العنصريون بالمهاجرين، وهم مهدَّدون كذلك بالديموغرافيا وأزمة الطاقة، بالإرهاب، بالإسلام أو بالإسلاموية، بالعولمة والتمازج... وفي ضوء هذه النزعة لدى المعتدين للقيام بدور الضحية، يصبح من الملائم إعادة النظر بأخطار الإسلام(وية) المزعومة التي يفرضها على المجتمعات الديمقراطية وعلى العالم بشكل عام.

لا تهدد إيران الولايات المتحدة الأميركية أكثر من كوبا، أو كوريا الشمالية أو فنزويلا. وكما أشار إلى ذلك نوام تشومسكي، في مقابلة مع ميكائيل شانك في 16 شباط/ فبراير 2007، بأنه منطق مافيوي في إعطاء المثل، في الولاء والخضوع، وهو الذي يحرك عدائية الولايات المتحدة تجاه إيران، وليس وجود أي خطر. وكان ذلك هو الموقف نفسه من العراق زمن صدام حسين، الذي كان أبرز ضحاياه الشعب العراقي، أكراد العراق والشعب القريب من إيران[5]. لكن أمن الولايات المتحدة والشعب الأميركي لم يكن يومًا مهدَّدًا من العميل السابق للاستخبارات الأميركية.

لا نستطيع مع ذلك أن نتجنب، في ما يخص هذه القضية، الالتفاف عبر تفكير جديد حول مناهضة السامية، عبر تقويم تفاهة الشلل النصفي الفكري المذكور سابقًا.

«لكنك كنت تريد الحديث عن الإسلام، فما معنى الحديث هنا إذًا عن

(5) إيلان هاليفي: وبالتأكيد، كذلك، وبشكل غير مباشر، شعوب المنطقة الأخرى بسبب تدخلات سيد بغداد، وبشكل مباشر أحيانًا مثل شعب الكويت في أثناء احتلال العراق للكويت مدة سبعة شهور، ما بين آب/ أغسطس 1990 وأول آذار/ مارس 1991.

مناهضة السامية؟». نعم بالضبط، لأن مناهضة السامية هي الحلقة الناقصة، الممر الإجباري الذي لا يمكن تفاديه، ما بين العنصرية بشكل عام ورهاب الإسلام المعاصر؛ فالمصابون برهاب الإسلام «الصادقون» هم معادون للسامية من النوع الثالث. أما الآخرون، فهُم يستعملون موجة رهاب الإسلام في سبيل مصالحهم الخاصة فحسب، سواء أتعلّق ذلك بديماغوجية انتخابية أم بعقود عسكرية. ويؤكد الأوروبيون والأميركيون الشماليون المصابون بالإسلاموفوبيا أن الإسلام(وية) هو بطبيعته معادٍ للسامية، وهم يقصدون بذلك القول إن عداوة الإسلاميين، والمسلمين بشكل عام، تجاه اليهود بشكل عام، ودولة إسرائيل، التي تدّعي، بموافقة عالمية، أنها تتكلم باسمهم[6]، لا علاقة لها بالتاريخ والممارسات، ولا بمصالح السلطة المادية، الأرض، مصادر المياه، النفط، السياسة والحرب. ليس هناك علاقة إذًا بين هذه العداوة وتلك الأمور، بل العداوة تعبير عن جوهر/ ماهية. فهي تقوم ببساطة على نظام قيم المسلمين أنفسهم، من برنامجهم، كما يمكن القول. ونستطيع بالتالي تقدير حسنات هكذا تأكيد يجعل كل تغيير أو مراجعة لسياسة الدول بلا فائدة، وبالتحديد بلا تأثير. هذه الجوهرانية/ الماهيوية هي في قلب آلة الحرب.

إن اتهام الإسلام عمومًا، والمسلمين خصوصًا بمعاداة السامية يُستعمل أساسًا لمفهوم «معاداة السامية الجديدة». وتشرب هذه المرة من ينابيع الإسلام، لا من المعاداة المسيحية لليهود أو من الإثنية العضوية للحركات القومية الأوروبية. هذا التبديل بالأدوار يزيل الشعور بالذنب أخيرًا عند الأوروبيين وعند أبناء عمهم في الجانب الآخر من الأطلسي، لأنهم كانوا، وهنا أستشهد بإيمي سيزير من جديد، مسؤولين «أمام المجتمع الإنساني عن أكبر أكوام من الجثث في التاريخ». وعندما يزايد وارثو رهاب اليهود الأوروبيون عبر فكرة أن كراهية اليهود هي من مكونات

(6) إيلان هاليفي: في أثناء إعلان بلفور، في الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، خاطب العرش البريطاني روتشيلد، لكن سرعان ما تعاملت السلطة المحلية الإنكليزية مع المؤسسات الصهيونية، التي أزاحت تدريجيًا، كمحاور، وجهاء اليشوف القديم، أي مواطني الدولة العثمانية سابقًا الذين كانوا الممثلين الرسميين والحكومة المستقلة لليهود في فلسطين. [اليشوف هو التسمية العبرية لأولئك اليهود المولودين في فلسطين قبل إنشاء دولة إسرائيل]. (المحرر)

الإسلام، فإنهم يجعلون هذا الرهاب تافهًا بأثر رجعي، ومعه فظائع الحرب العالمية الثانية، ويكتسبون هكذا عذرية جديدة تقريبًا، مثلما يحصل دائمًا حين يتقاتل ضحاياهم القدماء في ما بينهم. وهذا يدخل بلا شك في لعبة افتتان لاعبي السياسة الأوروبيين بهذه النظرية، بغضّ النظر عن خضوعهم للضغوط الأميركية أو الابتزاز الصهيوني. هل انتقاد إسرائيل التي تصر على الاعتراف بها كدولة يهودية، هو إذًا معادٍ للسامية؟ في الحقيقة، يمكن أن يكون ذلك أولًا، لكن ليست المشكلة هنا؛ فنقد الدكتاتوريات الأفريقية يمكن أن يغذي الخطاب المعادي للسود. هل هذا سبب للسكوت؟ كما أن رفض رهاب الإسلام لا يمكن أن يضع المسلمين، الدول، المؤسسات، التنظيمات أو الأفراد الذين يتكلمون باسمهم بمأمن من كل انتقاد؛ فالإفراط في الاتهام برهاب الإسلام كلما جرى انتقاد أي مسلم يشابه الاتهام بمعاداة السامية كلما أُعيد النظر في دولة إسرائيل. من المؤكد أن من غير الممكن قبول أي من هذين الاتهامين!

في حالة التصعيد الراهنة، تصبح أي إعادة نظر في حق إسرائيل في أن تكون دولة يهودية، أي دولة تميّز رسميًا بين مواطنيها، وفقًا لكونهم «يهودًا» أو «غير يهود»، أي دولة عنصرية، رسميًا موازية لمعاداة السامية. وكنا قد رأينا، حتى في الخطاب الرسمي للبيت الأبيض، الترويج للنظرية القائلة إن «مناهضة الأمركة» شكل من أشكال معاداة السامية، هذا في حين انخرط محلل نفسي مشهور في كتابات في الصحافة الفرنسية يقول فيها إنه تبيّن له أن هناك في محاولة بيار بورديو دراسة أشكال اللامساواة الاجتماعية معاداةً للسامية! إذًا يصبح رفض اللامساواة، حتى من دون التطرق بتاتًا إلى اليهود بوصفهم كذلك، أحد أقنعة كراهية اليهود!

لكن بمقدار ما تصبح معاداة السامية غير شرعية ومدانة، وأسطورية في الوقت ذاته، يأخذ رهاب الإسلام مكانها. إنها إحدى سخريات التاريخ أن يبدو هذا الأخير اليوم وكأنه تطور للأولى، وهذا الترابط يعكس اتجاه تطور قديم للقرون الوسطى؛ ففي إسبانيا، في زمن استرداد البلاد، على كل حال، ومن ثم عملية الطرد التي تلتها ملاحقة المارانوس والموريسكوس، ظهر رهاب اليهودية تقريبًا كدرجة فرعية من كراهية الإسلام. والحقيقة أن من غير الممكن فصل هذين

الأخوين العدوين والسياميين، لا في التحليل ولا في الممارسة. وفي الواقع، كل واحد منهما يشوه سمعة كل خطاب لا يستند إلى خطابه الخاص في شأن الآخر. لكن هذا الابتزاز بحصرية القول ليس السبب العميق لهذه التوأمة التي تجد أساسها في تاريخ الأفكار والتصرفات، في تاريخ العالم كما في تاريخ فرنسا. فلننظر إلى ذلك فعلاً.

الفصل الخامس

أساطير وساميّة ومعاداة للساميّة

علينا هنا أن نستعيد اللغة من النقطة صفر، كي نسرق التعبير الجميل لرولان بارت، وكي نفكك الأساطير.

اختُلقت عبارات معاداة السامية لإضفاء مظهر علمي على كراهية اليهود، المترسخة في معاداة اليهودية داخل الديانة المسيحية وفي وجود اليهود وتمثيلهم، في أوروبا وفي فترة القرون الوسطى، في أعمال سوسيو مهنية مكروهة من الشعب، مرابين أو مقرضين، رجال مال أو أصحاب بنوك. أما في أوروبا الشرقية، وفي أراضي بولونيا الكبرى سابقًا التي كانت تمتد من بحر البلطيق حتى البحر الأسود، فإنهم كانوا كذلك أصحاب فنادق ومزارعين عامين وجامعي ضرائب على أراضي الإقطاع وملّاك الأراضي الكبار. لكن مساهمتهم في الفنون الحرفية والطب والموسيقى، التي كانت مع ذلك مهمة، لا تبدو أنها تركت أثرًا لا يُمحى في الخيال الشعبي لهذه البلاد[1]. وفي إسبانيا الكاثوليكية تمامًا والمركزية في زمن محاكم التفتيش التي كانت صورة مسبقة عن أوروبا الحديثة في نواح كثيرة، لكن أيضًا في تنظيم بعض المدن المسلمة في العصور الوسطى، كان بعض المهن التي كانت تُعتبر ملوِّثة أو مهينة - عامل تنظيفات، حفار قبور - مخصصًا لليهود ومفروضًا عليهم، وكذلك كانت حال الغجر، وهم شعب طبقي آخر.

---

(1) تشدد إستر بن باسا في كتابها *La Souffrance comme identité* **(العذاب كهوية)**، وهي تشغل منصب أستاذة تاريخ اليهودية الحديثة، على أن في العصور الوسطى في أوروبا، «كانت أوضاع اليهود، ولفترة طويلة، أفضل من أوضاع العبيد، على الأقل بما يخص حرية الحركة النسبية التي كانت لديهم، حيث كانوا يستطيعون الانتقال من سيد إلى آخر، ولم يكونوا كذلك الأقلية الوحيدة في العصور الوسطى. ففي العالم المسيحي، كان المسلمون يحملون، على غرار اليهود، إشارة خاصة تفرّقهم عن الأكثرية الحاكمة». وتضيف لاحقًا: «من المؤكد أن اليهود عانوا الاحتقار، لكنهم كانوا يشكّلون أقلية ذات امتيازات نسبية في الأماكن التي كانوا مقبولين فيها. إضافة إلى ذلك، وبما أنهم لم يكونوا ملزمين بالخدمة العسكرية، فإن الحروب لم تقضِ عليهم». يُنظر: Esther Benbassa, *La Souffrance comme identité* (Paris: Fayard, 2007).

سيطرت هذه الصفة لشعب طبقي قبل ظهور الرأسمالية الحديثة في أوروبا الشرقية، حيث كانت متمركزة، وحتى بداية القرن العشرين، المجموعات اليهودية الأكبر عددًا. وقد تكلم على ذلك كارل ماركس وماكس فيبر وأبراهام ليون في ما بعد في كتابه المتعذر تجاوزه، **المفهوم المادي للمسألة اليهودية**، وكذلك مكسيم رودنسون في مقدمته لهذا الكتاب[2]. كان 90 في المئة من يهود العالم يسكنون حينئذ في هذه المنطقة المقطعة عبر تقسيم بولونيا على نحو متكرر؛ وكانوا، في نهاية القرن التاسع عشر، يمثّلون حوالى 70 في المئة من سكان المنطقة التي تتداخل مع الحدود الحالية لبيلاروسيا وأوكرانيا ومولدافيا، وجزءًا مهمًّا من سكان غاليسيا. ومع الثورة الصناعية، بدأ هذا الانغلاق الاجتماعي - الاقتصادي يتضاءل، من دون أن يأخذ الخيال الجماعي «المسيحي» بالضرورة علمًا بذلك.

على كل حال، عرفت معاداة اليهودية في أوروبا طفرة جديدة في الوقت الذي تحرر فيه اليهود وخرجوا من الغيتو (Shtetl، أي القرية اليهودية)، واندمجوا في المجتمعات التي أصبحوا مواطنين فيها. وبالنسبة إلى أحزاب اليمين المحافظة، القومية المتطرفة والرومانسية، التي اكتشفت بحماسة لذّات مفهوم العرق، كان اندماج اليهود في الدول الأوروبية خديعة، وكان في الوقت تطورًا مشؤومًا. لكنه، وبشكل خاص ملائم للحفاظ على النظام الاجتماعي القديم من أجل ركوب موجة معاداة اليهودية الشعبية، الدينية والاجتماعية في آن واحد، وكذلك لتوجيه سخط العمال والفلاحين والمنتجين الصغار الذين دمّرهم تطور الاقتصاد الحديث نحو كبش محرقة جاهز تمامًا، هذه هي وظيفة معاداة السامية السياسية، «اشتراكية الأغبياء». هكذا يغطي مفهوم العِرق السامي الذي نشأ من صيغة علماوية كانت دارجة، هذا الرهاب الذي له مردود سياسي بغطاء نظيف. وكما ذكّرت زميلتي البلجيكية المحترمة في دوربان، ليس هناك أعراق. لكن هذا لا يعني أن العنصرية، أي الاقتناع بأن الأعراق موجودة، وأننا نستطيع، بل يتوجب علينا بناءً على ذلك، أن نتحرك، غير موجودة.

---

(2) انظر مساهمة الكاتب في إنجاز جدول قراءة وفك للشيفرة لهذا التاريخ المعقد في كتابه *Question juive: La Tribu, la loi, l'espace* (**المسألة اليهودية: القبيلة، القانون، الأرض**) (1981).

إذًا ليس هناك كذلك عِرق يهودي؛ فالشعوب والأمم والإثنيات والجماعات والشتات، وحتى القبائل، ليست أعراقًا بالمعنى الحيواني، كما يعني بذلك العنصريون، أي إنهم لا يكوّنون جماعات مبرمجة جينيًا وحاملة صفات ثابتة. واليهود أقل من غيرهم في ذلك، لأن مجموع اليهود لم يتوانَ عن الاختلاط مع الشعوب المحيطة بهم، وعن استيعاب جماعات ممن اعتنقوا دينهم، أفرادًا ومجموعات، على قاعدة الانتماء إلى الأمم في أغلب الأحيان. وخلال الستة قرون التي فصلت ظهور المسيحية عن نشوء الإسلام، جرت تحولات دينية على نطاق واسع، من جنوب الجزيرة العربية حتى بحر قزوين، ومن فارس حتى شمال أفريقيا، ما أدخل تنوعًا كبيرًا في المخزون «الجيني» لجماعة ما زالت، وعلى الرغم من كل ما تلقته من تنوع دائم، تصر على التعريف بنفسها لاهوتيًا على أنها قبيلة، أي مجموعة يربطها الدم. وجرى عدد كبير من هذه التحولات الدينية الجماعية بوساطة «القرائين»[3]، وكان، من نتائجها، عملية إدخال في الوهم القبلي جماعات كاملة من البربر واليمنيين والخزر. لكن، وفي القرن السابع عشر، وبعد كثير من الاغتصابات التي رافقت ثورة «القوزاق» للدوق بوغدان شميلنكي في بولونيا الكبرى، أصدرت الربانية المحلية تشريعًا بأن الأطفال المولودين من أعمال التعدي هذه هم أبناء شرعيون لأزواج أمهاتهم. ويكفي بالأحرى مشاهدة التعدد والتنوع في أشكال البشر، في إسرائيل، وكذلك قسمات الوجوه المشتركة بينهم وبين شعوب البلدان التي أتوا منها، كي نقتنع ببطلان مفهوم العرق إذا ما طُبّق على اليهود.

أما الساميون، من جهة أخرى، فهم صنف وهمي كليًا مأخوذ من سلسلة

---

(3) إيلان هاليفي: هم في الأصل مدرسة فكرية في اليهودية ترفض سلطة التلمود، أي القانون الشفوي المؤلَّف وفقًا لتفسيرات الحاخامات وتعليماتهم، على حساب النص التوراتي. وقام الحاخامات بتهميشهم، فما كان منهم إلا أن تفرقوا في الأطراف و«هدوا» بالدعوة إلى شكل تعميمي لديانة إسرائيل القديمة عند كثير من الشعوب، وبشكل خاص عبر تحوّل النخبة الحاكمة عند هؤلاء: عند اليمنيين في جنوب الجزيرة العربية، والخزر على ضفاف بحر قزوين، والبربر في شمال أفريقيا. وكانت تلك حال مملكة ذو نواس اليمنية التي تحوّلت إلى القرائية قبل قرن من الإسلام، وكذلك «الكاهنة» الجزائرية - التونسية و«المعلمة» الإسبانية - المغربية.

النسب التوراتية. وفي الواقع، فإن أبناء نوح الثلاثة هم حام وسام ويافث، ومن المفترض أن هؤلاء الأخوة الثلاثة هم الأسلاف المباشرون للبشرية جمعاء. وقد حلّت اللعنة على حام الذي يوحي اسمه بالشمس والحرارة، لأنه سخر من والده حين رآه عاريًا، وكان عقابه أن يصبح عبدًا لأخويه.

يجعل التفسير الحاخامي، ومن ثم المسيحي في القرون الوسطى، من حام سلفًا لشعب أفريقيا السوداء، ولجأ الغرب المسيحي بكل ارتياح إلى هذه الخرافة كي يبرر العبودية دينيًا، مثلما فعلت لاحقًا الكنيسة البروتستانتية في هولندا لتجد فيها أساسًا للتمييز العنصري. ثم صار يافث الذي يُذكّر اسمه في لغات هذه المنطقة بالجمال وبالمدينة الفينيقية - الكنعانية يافا أيضًا، نسبة إلى ملكتها يوبّا، أبًا للأوروبيين ولـ «برابرة الشمال» الآخرين (وهذه العبارة مأخوذة من بودلير)؛ في حين أن سام أصبح سلف إبراهيم واسحق ويعقوب وقبائل إسرائيل الاثنتي عشرة. إضافة إلى ذلك، وهذا تفصيل مهم، ووفقًا للمصادر نفسها المتعلقة بالرواية التوراتية، فإن إسماعيل هو السلف الميثولوجي الكبير للقبائل العربية بحسب الكتابات الإسرائيلية والرابينية والمسيحية في ما يخص العرب الذين اعتمدوا بأنفسهم هذه الأسطورة الخاصة بسلسلة النسب والمصدَّق عليها في القرآن، بوصفها الرواية المؤسسة لوجودهم بالذات، على الرغم من أن اسم إسماعيل لم يكن موجودًا عند العرب قبل الإسلام.

هنا يجب عليّ أن أعترف اعترافًا شخصيًا: إنني، وفي أغلب الأحيان، وفي أثناء النقاشات العامة، أقطّع أسطورة «السامية»، وفي قلبي غصة لأنني أهدم أسطورة تصالح اليهود والعرب؛ أسطورة هي بشكل أَوَّليّ صالحة سياسيًا، لكنها غير مقبولة على أكثر من صعيد.

أولًا، يجب أن نستعين بمقياس العلمية النسبية جدًا في التأكيدات التوراتية، خصوصًا في ما يخص الأنساب. كان يوجد، عند شعوب أفريقيا الغربية، قبل الاستعمار، مؤسسة جميلة جدًا، وكان اسمها السلام الدائم: لتفادي الوقوع في الحرب من جديد، كانت القبيلتان تخترعان سلفًا مشتركًا. والتوراة مليئة بأمثلة متناقضة. وكي أتفادى الحماية التي تعطيها القرابة لأخي أو لابن عمي، أنكر القرابة

وأعلن أنها وهمية، وهكذا أفتح الباب لانتزاع الميراث ولخصومات وانتقاصات الفلاحين وسارقي الماشية. ويجب أن نقول بوضوح، إن الكتابات المقدسة تصف قبائل إسرائيل كجماعة من اللصوص ومغتصبي المسافرين (كما في آخر كتاب القضاة) وفي أغلب الأحيان كقتلة أمام الخالق، كما كانت حال أبناء يعقوب في شكيم[4]. هكذا، يكون إسماعيل الابن البكر لإبراهيم، العادل. أما اسحق فهو الابن الثاني.

لكن، وكما يقول النص التوراتي، كان إسماعيل ابن الخادمة المصرية، ما لا يسمح له بأن يكون الوريث، على الرغم من حق الابن البكر الذي كان سائدًا حينها. وهكذا تتميز الكتابات المسماة مقدسة باعتبارات تتعلق بالسلالة تهدف إلى إنكار علاقات أبناء العم التي يُعترف بها في فصول أخرى مع قبائل وأمم منافسة، أصبحت عدوة علنًا وحلّت عليها اللعنة. ويُعاد التذكير بلعنات قديمة، وبجرائم جماعية لا يمكن نسيانها، كما حصل مع العماليق[5] الذين كان من الواجب إبادتهم! ويسمي فرويد ذلك، في كتابه **موسى والتوحيد**، حيث لا يتمكن الحدس العبقري دائمًا من سد عجز النقص في التبحُّر، «الميول المشوهة» في الرواية، التي يجب قراءتها في ضوء المصالح السياسية والأيديولوجية الخاصة بالكاتب. والكتاب الخامس في التوراة (سفر التثنية) هو مثال صارخ لذلك، ويعطي فكرة محددة عن آليات تزوير الذاكرة، لأنه كتاب يعود إلى موسى، كان قد ضاع، ووُجد في أوانه (في بابل، بعد قرون)، حيث يُعاد تلخيص الكتب الأربعة السابقة مع تغييرات وتحريفات خفية، لكن جوهرية، تخدم تمامًا المخطط السياسي - اللاهوتي لإعادة بناء المعبد، لا كدولة ثيوقراطية بل كثيوقراطية من دون دولة، محمية من جانب الإمبراطورية وتُخضع للضريبة أمة منتشرة في جميع أنحاء هذه الإمبراطورية، الفارسية في هذه الحالة. غير أن النص مليء بإيعازات من نوع «أنتم تتذكرون»، «لقد كنتم أنتم بالذات شهودًا» ...إلخ - التي ترافق بشكل عام أي تجديدات ومراجعات للصيغ المحفوظة سابقًا.

---

(4) شكيم الاسم التوراتي لمدينة نابلس. (المحرر)

(5) هم قوم من العمالقة من الأدوميين، تصدوا لليهود في مدينة أريحا، بحسب العهد القديم. (المترجمة)

إذا ما طُبقت هذه الطريقة على جغرافية وعلم أنساب القبائل والعشائر في الهلال الخصيب وحوله، فستفسر التناقضات وعدم التوافق وتكرار أسماء العائلات والقبائل هنا وهناك. وهي تدعونا بشكل خاص إلى الحذر الشديد حين يتطلب الأمر الرجوع إلى هذه النصوص كمصادر للمعلومات.

في القرن التاسع عشر، اكتشف علماء اللغة: اللغات «السامية»: العبرية والآرامية والعربية. وجُمعت معها اللغات «الحامية»: الجعزية (لغة إثيوبية قديمة) والأمهرية (لغة إثيوبية قديمة أيضًا) والتمازيغت (لغة البربر) والمصرية القديمة. ومع تصنيف الفارسية والكردية من بين اللغات الـ «هندو – أوروبية»، تصبح الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس الجديدة في ما يخص تصنيف اللغات عمليًا مطابقة للكتابات. لكن المشكلة هي أن هذا كله لا يستند إلى شيء آخر غير إرادة تأكيد شرعية هذه النصوص والانصياع لقراءتها المفروضة. ويتفق اليوم جميع الباحثين الجديين في هذا المجال على الاعتراف بعائلة لغوية متنوعة، سمّيت حاميّة – ساميّة أو مجموعة لغات أفرو – آسيوية أيضًا، والاعتراف بالتالي بقرابة لغات تُعرَّف بأنساب كانت النصوص تعتبرها مختلفة منذ أمد بعيد. لكن، وبشكل خاص، لا شيء يسمح بأن نستنتج من لسان مشترك ما وجود أصل «عرقي» أو إثنو – قبلي مشترك. اللغات (الألسن) تتحرك، تنتشر، عبر الغزو والتجارة، عبر الجوار وعلاقات المصاهرة. وهي تذوب كذلك بلغة واحدة، وتتطور في تفاعل مع اللغات الأخرى، تستعير وتتكوّن من جديد بلغات حديثة، مختلفة؛ فأكثرية الناطقين بالعربية حاليًا هم أبناء الشعوب التي أصبحت عربية، التي كانت تتكلم لغات أخرى غير عربية في فجر الإسلام، ولا يثبت ميلهم إلى البحث عن ذواتهم وفي إيجاد أجداد لهم في شبه الجزيرة العربية بأي حال هكذا نسب، حتى ولو كان هذا النقص قد عُوّض بعلاقات الزواج. ولا تثبت إنكليزية الأميركيين أو لغة البرازيليين البرتغالية الأصل الأنغلوساكسوني أو البرتغالي لذرية العبيد الذين نُقلوا من أفريقيا ...إلخ. وتعود فرنسية أهل الكيبك في أغلب الأحوال إلى فرنسا، مهما كان ذلك بعيدًا. لكن ما هو حال السويسريين أو البلجيكيين؟ هل سكان الألزاس من «عرق ألماني» لأنهم يتكلمون الألمانية، كما كان النازيون يدّعون؟ وعكس ذلك، أليس من المثير أن نشهد، على هامش التراجيديا في البلقان، على الجهد المؤثّر لعلماء اللغة القوميين الصرب والكرواتيين، الموحدين في العدوانية

التي يغذونها في ما بينهم، في محاولتهم تفكيك اللغة المسمّاة صربية - كرواتية من أجل إيجاد اختلاف نظري أساس فيها؟

باختصار، إن فكرة مطابقة لغة ما لإثنية وحيدة، و**بالأحرى** لـ «عرق»، هي مجرد هذيان أيديولوجي. لذلك، فإن «الحديث عن عرق آري أو سامي هو علمي بمقدار ما هو علمي الحديث عن لغات شقراء!»، كما كان يقول ساخرًا المستشار النمساوي برونو كرايسكي الذي نشعر بغيابه بأسى في أيام الكوليرا هذه. وما قاله لم يكن إلا إعادة صوغ لقول اللغوي الألماني فريدريش ماكس مولر، مخترع كلمة «آري» الذي كتب في عام 1888: «بالنسبة إلي، فإن أي عالِم أنثروبولوجيا يتحدث عن عِرق آري، عن عينين أو شعر آري، يرتكب خطأ كبيرًا يوازي خطأ عالِم لغة يتحدث عن علم نحو مستطيل الرأس Dolichocéphale أو قصير الرأس Brachycéphale»[(6)].

لهذا السبب، فإن الحجة التي يلوّح بها عمومًا بعض العرب، والتي تقول إن من غير الممكن لهم أن يكونوا معادين للسامية، لأنهم هم أيضًا ساميون، هي باطلة نظريًا وعمليًا: أولًا لأن سامية العرب (أو اليهود!) خرافة، ولأن مفهوم معاداة السامية كان قد اختُلق في وضع أوروبي للدلالة على كراهية اليهود، من دون أن يتوجه بأي شكل إلى العرب الذين كانوا غائبين حينها عن الخيال الجماعي، أو عن المشهد الأوروبي الاجتماعي في ذلك الزمن على أي حال. يمكننا بالتأكيد التساؤل: إذا كانت هذه هي الحال، فلماذا الموافقة على هذا الاتفاق اللغوي؟ لأن الاستعمال كرّس المفهوم، بغضّ النظر عن النسب الاستيهامي.

هكذا إذًا يصبح رهاب اليهودية، المسمى عادة، وبلا حق، معاداة السامية، شكلًا من أشكال العنصرية. ومع ذلك، يصطدم هكذا تأكيد بمجموعة من الاعتراضات التي يجب تقويمها جيدًا. الأولى، تتعلق في الإدراك العام، بالصفة الطبقية للعدوانية المضادة لليهود، وقد شرح لي طبيب فرنسي، صديق لفلسطين ومثقف جيدًا، في عام 1979، حين كنت أنظّم مؤتمر «العنصرية، الصهيونية

---

(6) In: *Biographies of Words and the Home of the Aryas* [1888], p. 55, réédition Whitefish, Kessinger Publishing, 2004, p. 120, cité par: Alfred C. Haddon, *History of Anthropology*, Thinker's Library; no. 42 (London: Watts and Co., [1934]), p. 97.

ومعاداة السامية»، أن: «العنصرية احتقار الغالب للمغلوب، واقتناعه بأن الآخر أقل منه فكريًا. أما معاداة السامية، فهي عكس ذلك لمواجهة تفوّق اليهود، الذي يُعتبر سيطرة لهم. باختصار، العنصرية تأتي من فوق، ومعاداة السامية تأتي من تحت!». وأنا أميل إلى الاعتراض على هذا التبسيط في توصيف المواقف والسلوك، لكنه ذو معنى لأنه يلقي الضوء بالتحديد على التلاقي والتقاطع والتطعيم بين «اشتراكية الأغبياء» والعنصرية المحافظة. وفي استيهام جهنم النازية الدموي، تحوّل اليهود الذين كانوا - كما قيل - يعتقدون أن باستطاعتهم السيطرة على العالم (من خلال القدرة المالية وتدمير الثقافة، التي كانت الشيوعية الأداة المزعومة لها) إلى حالة ما دون الإنسان، إلى عبيد، مرمي بهم إلى دونية جليّة. ويجب قراءة شهادة بريمو ليفي الرائعة في شأن هذا الموضوع، عن عالم معسكرات الاعتقال وعن الحفاظ على إنسانية السجناء بوصفها رهانًا في مواجهتهم مع جلاديهم[7]. وهذا الخفض إلى العبودية يذكّر بما كتبه إيمي سيزير في عام 1955 في كتابه **خطاب عن الاستعمار**: «ما لا يسامح به المسيحيون البرجوازيون الأوروبيون في القرن العشرين هتلر [...] هو أنه طبّق على أوروبا إجراءات استعمارية كانت حتى ذلك الحين لا تُطبَّق إلا على عرب الجزائر، والعمال الزراعيين في الهند (التسمية هي كولي، وهي احتقارية من أصل تاميلي أو خليط ياباني - صيني يشير إلى الأجر المحصل وسط العذاب)، وزنوج (النيغرو) أفريقيا»[8]. مع ذلك، وقبل ثلاثة عقود من مجيء النازية، كان لينين قد كتب عن روسيا القياصرة، وكان يسميها «سجن الشعوب»، أنها كانت تخص اليهود بمعاملة «أسوأ من معاملة الزنوج» في أميركا[9].

مع ذلك، لا يمكن إنكار أن الخصوصية «الاجتماعية» لرهاب اليهودية تجعل منه حالة خاصة في العنصرية، وبالتحديد حتى ظهور رهاب الإسلام الجديد،

---

(7) Primo Levi, *Si c'est un home*, trad. de l'italien par Martine Schruoffeneger (Paris: Julliard, [1947]: 1987).

(8) Aimé Césaire, *Discours sur le colonialism*, collection le colonialisme; 1 (Paris: Présence africaine, 1955), p. 12.

(9) لينين: «يتعرض اليهود على يد البوريشكيفيتش إلى قدر أسوأ من قدر الزنوج»، وردت في: Vladimir Il'ič Lenin, «L'Autonomie «nationale culturelle», Notes critiques sur la question nationale,» sur la question nationale et coloniale (Pékin: Editions en langues étrangères, 1970).

الذي يشكّل بصورة شبه ميكانيكية صورة مشابهة: يبرز الإسلام فيها قمعيًا ومهددًا للإنسانية بأكملها، والمسلمون كأناس يبتزون العالم وهم جالسون على مصادر الطاقة في الكرة الأرضية، تحركهم إرادة استعباد الغرب الذي يكرهونه. وقد اتهم من هم ضد مناهضي العولمة هؤلاء بمجاملة الإسلاموية والإسلامويين، وبأنهم أداة في هذه المؤامرة العالمية. ونجد هنا العناصر عينها التي نجدها في هذيان البوليس السري في روسيا القيصرية المعادي للسامية، هذا الذي ابتدع بالذات كتاب **بروتوكول حكماء صهيون**. وتعمل الآلية ذاتها، بعد حين، في إعادة بناء العالم عند النازية، حيث أصبحت الشيوعية إحدى أدوات مؤامرة البنك اليهودي من أجل السيطرة على العالم، وأصبح نشر أفكار الحرية تقنية لتدمير المجتمعات المنظمة! واليوم، وفي كمية الهذيان الخائف من الإسلام في فرنسا، هنا وهناك، والمتخفي بشعار رفض «الجماعاتية»، يشار إلى بعض مناضلي مناهضة العولمة كبيادق في المؤامرة الإسلاموية ضد العلمانية والجمهورية والحرية ...إلخ.

يمكن لمن يريد التفريق ما بين العنصرية بشكل عام ومعاداة السامية بشكل خاص أن يتخذ طرائق شتى، لكنها جميعًا تبرز من شكل أو من آخر من الشلل النصفي الفكري الذي ذكرناه سابقًا. ورأينا، مثلًا، في فرنسا أن «الاتحاد العالمي لمناهضة السامية» (LICA) القديم جدًا وجد نفسه مجبرًا، بعد إنهاء الاستعمار، على تغيير اسمه الرمزي إلى LICRA، ليصبح «الاتحاد العالمي ضد العنصرية ومعاداة السامية»، في حين أن «الحركة المناهضة للعنصرية ومعاداة السامية ومن أجل السلام» (MRAP)، غيرت بعد جيل واحد صيغة اسمها الرمزي الذي لم يتغير، والمؤلف من أول أحرف للـ «حركة ضد العنصرية ومن أجل الصداقة بين الشعوب»!

يمكن لهكذا تمييز في الواقع أن يخفي نوعين متناقضين من الضوابط الذهنية: **الأول** هو أن العنصرية بحد ذاتها هي ظاهرة كريهة ومستهجنة، لكن صيغتها في رهاب اليهودية تستطيع أن تتمتع ببعض الأوضاع المخففة. **والثاني** هو أن العنصرية بشكل عام (ضد السود والعرب والغجر والآسيويين و«الأقليات الظاهرة» الأخرى) مبررة، أو على كل حال مفهومة، لأنها ترتكز على مشكلات

وصراعات اجتماعية واقتصادية ملموسة، على عكس العنصرية ضد اليهود التي هي محض انحراف. وهذه الفرضية الأخيرة تتضمن في طياتها خيطًا موحدًا هو «فكرة فرنسية»، يتراوح أربابها بين تاغييف وفينكلكراوت، تهاجم الدكتاتوريةَ المزعومة لمناهضة العنصرية ذات الوزن الفكري والمعتبرة سياسيًا صحيحة، وتساهم هكذا في رد الاعتبار إلى العنصرية، بوضعها جنبًا إلى جنب فكرة إنكارها التي تبدو «نسخة» عنها. مثلًا، لا تعود العدائية تجاه الشعوب المهاجرة عنصرية، بل إنها التعبير عن مشكلات اجتماعية واقتصادية وثقافية ملموسة، في حين أن كراهية اليهود، وبالتحديد لأنها تطاول مجموعة «بيضاء» لا يمكن **أول وهلة** تمييزها من باقي المجتمع (أي الطبقة المتوسطة الفرنسية «الأصيلة»)، وهي أقلية غير ظاهرة، تصبح هي العنصرية بكل معنى الكلمة، وفي أقصى حد، العنصرية الوحيدة الحقيقية، وعلى أي حال الوحيدة المدموغة بختم القذارة الفكرية والأخلاقية!

أشعر بأقصى نفور، والقارئ فهم ذلك، وعندي ريبة شديدة تجاه هذه الطريقة في وضع معاداة السامية على حدة، حيث أرى في ذلك وضع اليهود أنفسهم على حدة، وهي مسلّمة لا أقبل بها. يملك كل رهاب تجاه شعب ما مميزاته الخاصة، وهو يعكس علاقات حيكت تاريخيًا بين الجماعات، ويصبح المحتوى الاجتماعي أو الثقافي أو الديني لدى الخصومات المنتجة للأحقاد الجماعية حاسمًا في تشكيل الخطابات النوعية التي ترافقها. لكنها جميعًا تلجأ إلى النوعية العمومية ذاتها من الوعي الخاطئ، وجميعها تطلق الآليات النفسية التعويضية نفسها التي تجعل من العنصرية منهجًا ساقطًا وخسيسًا، ومن العنصري شخصًا مستقيلًا من العنوان الإنساني، وله أخلاقية مريبة: محبًا ومثمنًا لعدم المساواة، معجبًا بالقوة، وآخذًا عبر تقليد النظام الحيواني تبريره شريعة الغاب.

تشكّل الذاكرة اليهودية المثال الساطع والمقلق لهذا الإفراد؛ فهي وحدها فحسب محمية قانونيًا في غالبية الدول الأوروبية[10]، وهناك مبادرات جارية لتشريع قانون ضد إنكار المحرقة داخل الوحدة الأوروبية كما داخل الأمم

---

(10) في فرنسا، ينص قانون غايسو لعام 1990 على عقوبات بالسجن وغرامات لأولئك الذين يطعنون في وجود جرائم ضد الإنسانية كما حددها نظام محكمة نورمبرغ.

الفصل السادس

شطب دوربان

في نهاية آب/ أغسطس 2001، اعتُرف رسميًا في دوربان، وأول مرة في القانون الدولي، بأن رهاب الإسلام شكل من أشكال العنصرية، بالتحديد إلى جانب معاداة السامية. ومنذ ذلك الحين، عُقد في جنيف مؤتمر متابعة دوربان الذي سمّي دوربان 2، فكانت خطوةٌ إلى الوراء، تحت الضغط الإسرائيلي، في شأن مسألة رهاب الإسلام. وكانت رهانات المؤتمر كبيرة؛ إذ طُرحت، أول مرة في حضن مولِّد للقوانين، وضمن فصل العنصرية، المسألة المزدوجة المتعلقة بتجارة الرقيق واستعباد الأفارقة في القارة الأميركية ومسألة الاستعمار. وكان هذا المؤتمر أيضًا سابقة من وجهة النظر الإجرائية، لأن حكومة جنوب أفريقيا، القوية بوصفها البلد المضيف، وبسبب وضعها الأخلاقي تجاه موضوع المؤتمر، فرضت قاعدة غير مسبوقة: لم تكن المنظمات غير الحكومية تتمتع بالتسهيلات كلها من أجل إقامة محاضرة هناك بالتوازي، وفي الوقت الذي تجري فيه اجتماعات الدول، فحسب، بل كان للمشاركين كذلك الحق بالمشاركة في النقاشات التي تقودها الدول. وفي الواقع، لم يتوانَ بعض هذه الدول عن الاعتراض على هذه الشفافية غير المسبوقة، وادعاء أن وجود هؤلاء المشاركين غير الحكوميين، علاوة على تصفيقهم، كان يزعج هدوء النقاشات!

مع ذلك، كان مؤتمر دوربان، المنسي عمليًا اليوم، غنيًا بالحوادث الخطِرة أحيانًا، والأكثر خفة أحيانًا أخرى. وفي ما يخص هذه الأخيرة، حصل بعض الحوادث المضحكة إلى حد ما؛ فحين اعترضت ممثلة الرئاسة البلجيكية في الاتحاد الأوروبي، حيث يُعتبر حتى مفهوم العِرق غير مقبول، على عبارة «متعدد الأعراق» (multiracial) التي اقترحها ممثل جامايكا، فردّ هذا قائلًا: «إذا كنت أفهمكِ جيدًا، نحن نشارك هنا إذًا في مؤتمر دولي حول الـ isme والتمييز iale!»

قبل بدء المؤتمر الذي قاطعته الولايات المتحدة تمامًا، كان من الممكن أن نخمّن أي عقبات سيقع فيها. وكانت اللقاءات التحضيرية قد أوضحت صورة

التعقيدات فيه: كانت الدول العربية أو الإسلامية، وكذلك دول عدم الانحياز، تريد استعماله من أجل الدفاع عن القضية الفلسطينية وعزل إسرائيل مثلما حصل مع نظام الفصل العنصري لجنوب أفريقيا.

كانوا مدعومين في هذه الخطوة من ائتلاف المنظمات غير الحكومية الأفريقية الجنوبية (سانغوكو) الذي كان قد أرسل إلى فلسطين لجنة تحقيق، مؤكدة أن الاحتلال الإسرائيلي كان «'أسوأ' من نظام الفصل العنصري»[1]!

قبل أسابيع عدة من افتتاح المؤتمر، حاولت واشنطن بشكل واضح أن تنزع عنه الصدقية سلفًا، وأن تدحض مسبقًا نتائجه المتوقعة، متهمة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي والفلسطينيين، بتحويل نقاش، كان مفترضًا به أن يسمح لشعوب الكرة الأرضية كافة الخاضعة للقمع بأن تُسمِع صوتها، إلى مصلحتها الخاصة فحسب.

هناك، حصلت على أرض الواقع حركتان متوازيتان؛ ففي حين كانت قمة المنظمات غير الحكومية قد تحوّلت إلى عملية جرد للجرائم المرتكبة، وذلك تحت راية إعطاء الكلام للضحايا، قامت قمة الدول، المرتبطة بتضامن محترفي الابتزاز العرقي وكره الغرباء، بالتخلص من كل مرجع مزعج لمواقف فعلية تخصهم، ما عدا إرادة الدول العربية بإدانة إسرائيل. هكذا تم كليًا استبعاد وضع المنبوذين الهنود (daliths)، الذي طرحته المنظمات غير الحكومية،

---

(1) أصرّ رئيس الولايات المتحدة الأسبق، جيمي كارتر، ووقّع صحة المقارنة بين نظام التمييز العنصري في جنوب أفريقيا وفلسطين المحتلة، على الرغم من التهجم عليه، وكذلك الأمر في ما يخص المؤرخ الإسرائيلي إيلان بابيه. ومن المؤكد أن هناك ما هو مشترك كثيرًا بين الوضعين من حيث التركيبة، لكن أشياء كثيرة تميّز بينهما، بدءًا من الجغرافيا والديموغرافيا والنظرة العالمية إلى طبيعة الصراع. ولا يتعلق هذا النقاش بالوضع بحد ذاته فحسب، بل أيضًا بالطرائق التي من الممكن استعمالها، كمواطنين وعلى مستوى الدول، لوضع حد نهائي للاستعمار. ومن المهم هنا ذكر حملة المقاطعة، عدم الاستثمار، العقوبات (BDS) التي أطلقتها 171 منظمة غير حكومية فلسطينية، في 9 تموز/ يوليو 2005 - بعد عام تمامًا من إنذار محكمة العدل الدولية في ما يتعلق بجدار الفصل الإسرائيلي - في إشارة صريحة إلى حملات المقاطعة الموجَّهة ضد نظام التمييز العنصري في جنوب أفريقيا - من أجل طلب ممارسة ضغوط على دولة إسرائيل كي تمتثل بدورها للقانون الدولي، خصوصًا لقرارات الأمم المتحدة.

في حين أن الأوروبيين والأميركيين الشماليين التزموا بلعبة تخبئة معقدة مع الأفارقة والمهاجرين الأفارقة في أميركا في شأن مسألة تجارة الرقيق والاستعباد والاستعمار، وفي شأن فرضية الترضيات والتعويضات والإصلاحات المحتملة، خصوصًا تجاه الأميركيين - الأفارقة، بحجة أن من الضروري قبل كل شيء مواجهة الأزمة التي سبّبها «العرب»!

في اليوم الثالث من المؤتمر الذي كان من المفترض أن يدوم أسبوعًا، انسحب الوفد الإسرائيلي للاحتجاج ضد نص اعتمدته المنظمات غير الحكومية، وأعلن الوفد الأميركي كذلك انسحابه، تاركًا هناك بعض الدبلوماسيين للتعبير عن وجهة نظر واشنطن، القائلة إن فلسطين مسألة «سياسية»، ولا مكان لها في مؤتمر في شأن العنصرية! فناب الأوروبيون عنهم، تحت رئاسة وزير الخارجية البلجيكي، لويس ميشيل، وهو رجل شجاع ويهتم بترك محل للأخلاق في السياسة، في المفاوضات الدائرة تحت مظلة الدولة المضيفة من أجل وضع قرار للتسوية في الشرق الأوسط. وجرى هناك بعض الحوادث الطارئة: صدور إنذار أوروبي (رُفض لحسن الحظ) وحتى اقتراح فلسطيني بالتخلي عن كل قرار يخص الشرق الأوسط، وترك الأوروبيين يتدبرون أمرهم وحدهم بمواجهة الأفارقة (اقتراح رُفض فورًا).

على الرغم من «الانتصار» الذي ادّعته المنظمات غير الحكومية المجتمعة في دوربان ادعاء صبيانيًا تهنئ نفسها به اليوم على الورق، كان المؤتمر فاشلًا؛ ففيه اعتُرف رسميًا بتجارة الرقيق والاستعباد والاستعمار بوصفها جرائم ضد البشرية، لكن هذا المكسب بقي محض أخلاقي، وفشل أصحاب الحق من العبيد الأفارقة في أميركا وكذلك ضحايا الاستعمار في الدفع لتحقيق عملية تعويض عن قرون من العمل القسري والنهب والاستغلال.

كان هناك كذلك فشل لمنبوذي الهند الذين كان لقاؤهم مع غجر أوروبا، أبناء أعمامهم البعيدين، من أهم اللحظات المؤثرة في هذا اللقاء غير الحكومي، لكن مصيرهم لم تناقشه أي دولة من الدول. كان ثمة أيضًا فشل للّاجئين في بلدان الجنوب الذين كانوا ضحايا تحالف الحكومات الموجودة. أخيرًا كان ذلك فشلًا

لرئيسة لجنة حقوق الإنسان المقدامة، ماري روبنسون التي بذلت ما وسعها من جهد لجعل دوربان مناسبة لتقدمٍ حقيقي في الحقوق.

تلقت دولة جنوب أفريقيا درسًا (بما في ذلك فقدان عشرة في المئة من قيمة عملتها المحلية، خلال أيام المؤتمر الثمانية)، كانت نتيجته تحويل دبلوماسيتها نحو الواقعية، وأخذ مسافة تجاه خطابات المنظمات غير الحكومية، وهو ما رأيناه لاحقًا، لأن حكومة بريتوريا قامت، خلال الأعوام اللاحقة برعاية سلسلة من اللقاءات الإسرائيلية - الفلسطينية موجّهة نحو الحوار وتشكيل الشروط الملائمة لاستعادة المفاوضات، ولم تقم باستنكارٍ واحد لما تعرضت له الحقوق من خروقات.

على صعيد النصوص المعتمَدة، لم يتعدَ نجاح المؤتمر تجريم التمييز ضد مثليي الجنس، وتأكيد حق جميع اللاجئين في العودة [إلى ديارهم]، والاعتراف برهاب الإسلام كشكل من أشكال العنصرية. وبعد ذلك بأيام، حصل هجوم 11 أيلول/ سبتمبر 2001، وكان أن امّحت دوربان ومعها البرجان التوأمان في آن معًا. وصارت مسألة إعادة النظر في غلبة الغرب الأخلاقية مستحيلة، مجرمة، وأصبحت منسوبة إلى الدفاع عن الإرهاب، وبالتالي إلى خيانة الضحايا.

[...]

بعد 11 أيلول/ سبتمبر، أصبحت قضية رهاب الإسلام منتشرة بسرعة أكبر وعلى مستوى عالمي؛ صار من الضروري ترك المنادين بالنزعة الفرنسية، أو بالمركزيات اليهودية أو العربية، وكذلك أصحاب الرؤى الإقليمية، والتراتبيات القديمة في احتساب حقول النزاعات وتمثّلها، لأن من الآن فصاعدًا، أصبحت الولايات المتحدة هي التي تحدد الإيقاع وتضبطه على أساس ما قارنه جورج بوش الابن، وبصورة هادئة، بالحرب الباردة، أي باستقطاب جديد للعالم وتقسيمه إلى معسكرات أيديولوجية وسياسية - عسكرية متناحرة. ومن أجل هذا الهدف، كانت أميركا بحاجة، منذ اختفاء الإمبراطورية السوفياتية، إلى عدو شامل بديل. وقد وجدته في «القاعدة»، الكاريكاتور والفزاعة، الغول المصمَّم لإخافة الفقراء، وكانت (الولايات المتحدة) قد صنعته وموّلته في زمن سابق.

الفصل السابع

معاينة الإسلامويات من جديد

قلنا سابقًا إن الإسلام يعرِّف نفسه بوصفه دينًا ودنيا ودولة، في آن معًا: إذًا هو بالطبع سياسة، لكن مفهوم الإسلام السياسي يفترض أسبقية السياسي على الأخلاق، وهذا ما لم يؤكده بشكل واضح أي حديث ديني. وفي نهاية الأمر، ألا يفترض أن العمل السياسي والوصول إلى السلطة، وحتى الدفاع عن الحقوق الطبيعية، فاعلية في الفعل البشري قادرة على تغطية العناية الإلهية أو الإرادة الإلهية؟ إن في الإسلام، كما في المسيحية واليهودية، تتعايش المدارس الفكرية والعملية كلها، من غير أن يكون ذلك سلميًا دائمًا: من الأكثر التزامًا (فرسان المعبد، اليسوعيون، أوبوس داي) حتى الأكثر تأملًا (الصوفيون من أتباع الطرق المختلفة، الرهبانيات المسيحية، الكابالا اليهودية ...إلخ). هذا، وحتى إلى حد رفض كل فعل، يبدو أنه يعارض المخطط الإلهي كما كان ينبغي أن يجري من خلال مجريات الحوادث التلقائية.

إذا كان بإمكاننا التساؤل عن حقيقة الإسلاموية كظاهرة فريدة، فإن من غير الممكن أن نتجاهل انتشار خطابات سياسية إسلامية، ومذاهب سياسية ترمي إلى تغطية ذاتها بالشرعية الإسلامية، ومشروعات سلطة ترتدي عباءة الضرورة الدينية، وتكون هذه الخطابات في أكثر الأحيان متعارضًا كليًا بعضها مع بعض، كما هو واضح في إيران، حيث المعارضة الأكثر راديكالية وعنفًا للنظام، أي مجاهدي خلق، تدّعي الإسلام، مثلها مثل النظام نفسه. ويجب القول إن حتى الإصلاحيين والحركات النسائية في إيران إسلامية[1]. وفي الواقع، فإن الاختلاف الأصلي بين السنّة والشيعة الذي يعود إلى ما بعد وفاة النبي، يتعلق بشخص الخليفة وإجراءات تعيينه، أي البديل، لا بنقاط في الشعائر أو في الديانة. إنه حقًا صراع على السلطة، ولذلك ليس من المستغرب أن نجد أن خلط السياسي بالديني لا يزال يسيطر على النقاش في العالم الإسلامي.

(1) لا تُذكر هنا المساهمة العلمانية، ولا سيما الشيوعية التي كانت سرية ومرغَمة على الهجرة.

من جهة أخرى، يلاحَظ أن قبل قرون عدة من تأسيس حركة الإخوان المسلمين في مصر في عشرينيات القرن الماضي، كانت الجماعة الأخوية، أي التجمع الطوعي على قاعدة القناعات المشتركة داخل الجسم الديني المسيطر بالذات، تشكّل إطارًا مزدوجًا للولاء والعمل في قلب المجتمع. ومنذ أعوام الإسلام الأولى، كانت الجماعات والمدارس الصوفية، خصوصًا **القادرية والتيجانية**، تؤدي دورًا سياسيًا أساسًا، لكنه كان مخفيًا في أغلب الأحيان. وفي الفترة الاستعمارية، ومن موريتانيا حتى السودان، نظمت الأخويات المقاومة الاجتماعية ضد الاستعمار، لكنها تعاونت معه في بعض الأحيان، وبالتحديد حين بدا لها أن من الممكن أن يخدم المحتل مخططها الخاص.

على الرغم من ادّعاء أن نعطي ما لقيصر لقيصر، كما جاء في الإنجيل، فإن الخلط نفسه سيطر على تاريخ المسيحية وعلى مجتمعاتها؛ ففي أوروبا، وما بين أول مجمع والحروب الصليبية، توالت الانشقاقات على خلفية صب اللعنات على المدارس المعلَن أنها مهرطقة، مثل الألبيجوا (Albigeois) والكاتار (Cathares) في فرنسا: محاكم التفتيش، المحارق، الإعدام حرقًا ومجازر في حق الأبرياء. بعدها جاء الإصلاح الديني، والحروب التي لا تنتهي والمسمّاة دينية، والتي باركها جميعها رجال الدين الذين كانوا في خدمة السلطات المختلفة. وفي الإسلام، حصل عند الشيعة انقسامات متعددة، مع مد وجزر، مع نوع من الميل نحو التركز في الأطراف، حيث توقف التعريب قبل الأسلمة، هناك حيث عشّش التشيّع في تقاطع الإشكاليات الاجتماعية والقومية. وحتى داخل الإسلام السنّي، كان هناك الغزوات والانتصارات، الانقلابات والثورات، في الشوارع حينًا، وفي القصور أحيانًا، تارة باسم المحافظة على المعتقد، وتارة أخرى باسم العودة إلى الأصول. باختصار، كان ذلك تاريخًا معقدًا ومتعدد الأبعاد، بعيدًا كل البعد عن تعميمات وسائل الاعلام.

يشكل هذا التاريخ الذاكرة الجماعية للشعوب، ويتغلغل في الثقافة السياسية للمجتمعات التي مرت به، لتصبح بذلك إسلامية، حتى في مظاهرها الأكثر دنيوية، مثلما أن الثقافة المسمّاة غربية هي مسيحية، حتى عندما تكون علمانية. ونستطيع، لأسباب سياسية، مشروعة، أن نقرر التشديد على هذا البُعد، أو على العكس، جعله نسبيًا، وحتى إخفاءه، إلا أنه يبقى موجودًا.

مع ذلك، كانت المشكلة أن ابتداءً من القرن التاسع عشر، أصبح الأساس في العالم الإسلامي، وبشكل خاص «مركزه» العربي (المركز لأنه أعطى: اللغة التي بها خلق الله العالم، النبي الذي أعطى صوته للتشريع، والمكان الوحيد للحج) موجودًا في وضع مواجهة غير متساوية مع قوى أوروبا الاستعمارية، خصوصًا فرنسا وإنكلترا، في حين أن الإمبراطورية العثمانية، الأنموذج الأخير للدولة الإسلامية المتعددة القوميات، كانت تتراجع على الجبهات كلها، من البلقان حتى اليمن. وهذه الأزمة العسكرية سوف تتفاقم حتى في المناطق التي لم تخضع قط أو جزئيًا، للاحتلال الغريب المباشر، إلا في وقت متأخر، وأصبحت هذه أزمة للمجتمع كله، وإضعافًا لكل ما يعتمده. وسوف يؤدي الأنموذج الأوروبي والأميركي الشمالي المنتصر والكلي القدرة إلى استبعاد كل رغبة في المزاحمة وإلى تقوية ردة الفعل القائلة بالانكفاء الحضاري. وفي مواجهة سهولة اختراق الأفكار الغربية للمجتمعات؛ هذه المجتمعات التي لم تستطع مقاومة الصدمة الاستعمارية التي سوف تؤدي إلى حركات تحرر «عصرانية»، تشكلت أقطاب من المحافظة الثقافية، وبدت كأشكال «معقولة»، أي مستدامة، للمقاومة. على أي حال، وفي تلك الخطوات كلها، كان رجال الدين، فقهاء الشريعة والواعظون، مديرو الأوقاف[2] وقضاة المحاكم الذين يديرون الأحوال الشخصية - الولادات والوفيات، الزواج، الإرث -جزءًا مهمًا من النخب القديمة المسيطرة، المالكة والقابضة على السلطة، وقد وجدوا أنفسهم في ذلك وأدوا دورًا رئيسًا في الأحوال كلها. وعلى عكس طلاب الاستعمار الذين انقلبوا ضده، مستخدمين مثله العليا وطالبين إرساء الجمهورية في المستعمرات[3]، كان رجال الدين يقومون بذلك

---

(2) هي الأملاك الدينية، وبشكل عام، الممتلكات كلها: الأثاث، العقارات أو الأراضي، التي تُعطى إلى الإرث الديني وتكون بذلك محمية من خطر أن يبيعها الأفراد.

(3) على غرار التجمع الديمقراطي الأفريقي (RDA) الذي أسسه في باماكو فيليكس هوفويه بوانيي في تشرين الأول/ أكتوبر 1946. وكان هذا التجمع، القريب من الحزب الشيوعي الفرنسي، يضم تقريبًا جميع الأحزاب السياسية التي قادت بعد ذلك المستعمرات الفرنسية في أفريقيا الواقعة في جنوب الصحراء الكبرى إلى الاستقلال غداة الحرب العالمية الثانية. وكان شعارها «تحرير الجماهير الأفريقية» يترجَم إذًا بالمطالبة بنشر مكتسبات الجبهة الشعبية على السكان المحليين (ضمان اجتماعي وأيام عطل مدفوعة الأجور) وإقامة المساواة على كل مساحة الإمبراطورية، التي باشرت فرنسا الحرة بإعادة تسميتها باسم الوحدة الفرنسية.

باللغة ومع النظام المرجعي والفئات التي صقلها مرور هذا التاريخ. وكان خطابهم الذي لم يكن يعرف التفريق بين يمين ويسار، يستند إلى تصورات أخرى، إلى نماذج أخرى، إلى أنماط أخرى، ما يؤدي بهم إلى ممارسة التأثير داخل مجتمعاتهم الخاصة فحسب، لأنهم، على عكس الأوروبيين، كانوا بلا قوة عسكرية أو اقتصادية تسمح لهم بفرض معيارهم الخاص للقراءة.

هذا الفيض من الأجوبة عن التحدي الاستعماري ترك مكانًا لتيارات متعددة، كلها إسلامية أكثر من الأخرى. وظهرت فيها ضرورة حقيقية لإصلاح ذاتي، بقي مع ذلك ما دون **الاجتهاد** الممنوع الذي لا يمكن التفكير فيه، أي «تجديد» التشريع الذي أغلق بابه منذ عقود[4] (لسوء الحظ، بالنسبة إلى المراقب اللاأدري الذي أمثّله). ولم يكن الإسلام قط غائبًا عن مواجهة الهجوم الثقافي الغربي، ونادرًا ما كان بعيدًا عن السياسي: من جمال الدين الأفغاني (1839-1897)، المصلح الإيراني الذي أصبح سنيًا لأسباب سياسية، إلى حسن البنا، مؤسس حركة الإخوان المسلمين في مصر، مرورًا بحركة العلماء الجزائريين التي سيطرت عليها صورة بن باديس، والتي كانت أرضًا خصبة للشعبوية الإسلامية المصالية (نسبة إلى مصالي الحاج) لحزب الشعب الجزائري[5]، من دون أن ننسى أطروحات القائد الشيوعي التتري ميرسعيد غالييف في ما يتعلق بـ «القومية الإسلامية» (التي لاقت أولًا، في العشرينيات، ترحيبًا، ومن ثم، أثارت في الثلاثينيات غضب أبي الشعوب الصغير[6] في ما بعد). أكثر من ذلك، ولأن الإسلام لا يتساوق لا مع التعاون ولا مع المقاومة ولا حتى مع سياسة الانتظار ولا مع العصيان المسلح،

---

(4) **الاجتهاد** الذي يعود أصله إلى أصل كلمة **جهاد، أي الجهد**، يُترجَم في أغلب الأحيان بالجهد في التفسير، لكن المعني هنا هو بالأحرى محاولة تعريف المعايير القانونية استنادًا إلى الأسس المختلفة للقانون الإسلامي. وما عاد تطبيق هذه القوانين يُعتبر **اجتهادًا**، وإنما هو **تقليد**. يُنظر في شأن هذا الموضوع: Sabrina Mervin, *Histoire de l'islam: Fondements et doctrines*, champs. Université: Histoire (Paris: Flammarion, 2000).

(5) أسس مصالي الحاج حزب الشعب الجزائري في فرنسا في 11 آذار/ مارس 1937، بعد قرار الجبهة الشعبية الفرنسية بمنع حزب نجمة الشمال الأفريقية. ثم مُنع بدوره في عام 1939 وأُجبر على اللجوء إلى العمل السري. أما مصالي الحاج، فسُجن حتى عام 1946 وبقي هذا الحزب محظورًا في الجزائر بعد الاستقلال.

(6) المقصود ستالين. (المترجمة)

فإنه يرمي إلى تغطية الواقع كلها والميدان. وبما أنه يبقى المرجع الوحيد المعترف به لدى جمهور الفلاحين، والبدو الرحل وسكان المدن، يغدو لا بديل منه لدى أفراد النخب الجديدة الغربية الذين سوف يتملقون المحافظة والتدين الشعبويين، مع متابعة مشروع للمجتمع مناقض تمامًا للقيم السائدة في أغلب الأحيان.

ينطبق هذا كذلك، مع بعض الفوارق، على فلسطين. وبعكس الصورة السائدة عند عدد من مؤيدي القضية الفلسطينية في أوروبا، فإن المطالب الفلسطينية كانت تحوي دومًا بُعدًا إسلاميًا مهمًا، ومسيحيًا كذلك. وهذا البعد متجذر في مصالح اقتصادية ملموسة مرتبطة بتنظيم الحج بالنسبة إلى الديانات الثلاث، وبإدارة الأماكن المقدسة التي تستدعي بحد ذاتها أنظمة ضرائبية خاصة، وبالجاه الاجتماعي المرتبط بحمايتها. أما تعدد الديانات هذا، فاعتُبر في أغلب الأحيان، وهو مترسخ في الهوية القومية الفلسطينية، علمانية، وهذا خطأ، في حين أن الطبيعة الفعلية للمؤسسة الصهيونية في فلسطين، التي لا تملك أي مشروع تغيير للمجتمع المحلي، كانت تدفع بهؤلاء السكان للجوء إلى طاقاتهم الخاصة. ومن بين هذه الطاقات، كان الدين في المجال الأيديولوجي، والسلطة الدينية في المجال المؤسساتي. كانت هذه التشكيلات مختلفة تمامًا عن تلك التي في البلدان المجاورة، حيث كان المشروع الاستعماري الفرنسي أو البريطاني يعيد تشكيل المجتمع المحلي، ويساهم في ظهور طبقات جديدة، خصوصًا في المدن، التي ظهر منها قادة الحركات القومية «التحديثية» ومنفذو الانقلابات العسكرية الذين جاهروا بانتمائهم إليها.

أما في فلسطين، فقام داعية صوفي ولد في سورية وبشَّر في حيفا، يدعى عز الدين القسام[7]، بإشعال شرارة التمرد المسلح ضد المحتل البريطاني، في عام 1935، بعد أقل من عقدين على تفكك الإمبراطورية العثمانية. وكون القسام رجل دين وغير فلسطيني في الوقت نفسه يدلل جيدًا على سيولة الانتماءات وهشاشة الهوية الوطنية الفلسطينية، بما هي وطنية - خصوصًا إن نحن قارناها

(7) إنه لذو مغزى أن يُسمّى الجناح العسكري لحركة «حماس» كتائب عز الدين القسام، وكذلك أن تُسمى صواريخ محلية الصنع في قطاع غزة صواريخ القسام، كانت تُطلق من القطاع نحو الأراضي الإسرائيلية.

بالوضع الحالي. وفي حرب 1948، في فلسطين، انضم فوجان من المتطوعين إلى المقاتلين: قوات القاوقجي، التي جُنِّدت في سورية وكانت ذات ميل قومي، وقوات مكونة من حوالى ألف متطوع جنّدهم الإخوان المسلمون في مصر.

من جهة أخرى، مرّت غالبية الآباء المؤسسين لحركة «فتح»، في بداية الخمسينيات، بمدرسة الإخوان المسلمين، مثل أبو إياد[8] وياسر عرفات نفسه. أما بعض الآخرين، مثل خالد الحسن، فكان من المؤسسين لأحزاب أخرى تنسب نفسها إلى الإسلام، مثل حزب التحرير الإسلامي الذي أُسس في القدس في عام 1950.

أتذكر أبو إياد، في تونس، قبل وقت قصير من اغتياله في عام 1991، حين أجاب عن شخص مستجد في أسلمة السياسة خلال اجتماع المجلس الثوري في حركة فتح: «كوّنا هذه الحركة حين شعرنا بأننا وصلنا إلى نهاية الطريق الإسلامية!».

خلال الثلاثينيات، حمل الإخوان المسلمون إلى داخل الثقافة السياسية الإسلامية الصبغة القومية[9] والتأثير الأوروبي في طرائق العمل ومناهجه. ومثلها مثل **التنظيمات**، كانت الإصلاحات العثمانية في الجزء الثاني من القرن التاسع عشر تريد أن تستعير من أوروبا تقنياتها حتى تدافع عن نفسها بشكل أفضل ضد أوروبا، كانت تلك هي الحداثة بشكل ما.

في عام 1979، كانت إطاحة نظام الشاه في إيران وقيام الثورة الإسلامية، ثم الغزو السوفياتي لأفغانستان، وغزو العراق لإيران، وكان نشوء حركة المحرومين في لبنان تحت قيادة الإمام الإيراني موسى الصدر[10]، وهي حركة سبقت

(8) صلاح خلف، والحال أن خليل الوزير (أبو جهاد) ومحمد يوسف النجار ومحمود عباس (أبو مازن) وكمال عدوان وعبد الفتاح حمود... وغيرهم من مؤسسي حركة فتح، كانوا كلهم منتمين إلى الإخوان المسلمين. (المحرر)

(9) لا تعرف الفلسفة السياسية الإسلامية بالقومية لأن الدولة الإسلامية هي بالطبيعة متعددة القوميات، ومعدَّة لإدارة العالم بأكمله.

(10) جاء موسى الصدر من عائلة دينية في الجنوب اللبناني ذات أصول متعددة؛ فهو ولد وتربى في إيران قبل أن يستقر في لبنان في عام 1959 ويكرس نفسه لتطوير الطائفة الشيعية وتعزيزها عبر منظور للعيش المشترك لجميع الطوائف، وللتقدم الاجتماعي. تمكن من تعبئة الشيعة، وقادهم للمطالبة بحقوقهم، =

حزب الله. وأخيرًا، تفكك الاتحاد السوفياتي في عام 1991، وبدأت حرب الجزائر الجديدة.

منذ ثلاثة عقود، صارت الأسلمة - أي دخول البُعد الإسلامي في لعبة السياسة والجيوسياسة الإقليمية والعالمية، التي «يمثّل حزب الله» [اللبناني] وحركة «حماس» الفلسطينية مثالين صارخين لها - ظاهرة لا يمكن إنكارها. وهي تستند إلى تطورات وازنة، كالتي تظهر من النمو الديموغرافي (هذه هي حال نمو الأسلمة في بلاد مثل نيجيريا). لكنها تقوم أيضًا على ديناميات أيديولوجية، وبصورة خاصة على الفشل التام للأنظمة التي تدّعي أشكالًا مختلفة من القومية التحديثية وانحدارها نحو فاشيات دنيوية، إن لم نقل «علمانية». ومن المؤكد أنها تستند كذلك إلى قدرات مادية ضخمة موضوعة تحت تصرف الجهد التبشيري، أكان من جهة الوهابية السعودية أم من جهة **الأحمدية** الباكستانية[11]، لكن نجاح هذا الجهد بالذات يبين أن ثمة طلبًا عليه. وتُظهر إحصاءات تتعلق بمبيعات الكتب في الشرق الأوسط، مثلًا، ارتفاعًا غير مسبوق في الإقبال على الكتب الدينية مقارنةً بجميع أنواع الكتب الأدبية. والظاهرة هذه جلية أيضًا داخل الجماعات المهاجرة التي يمكننا أن نشاهد داخلها عودة إلى التدين عند شباب الجيل الثاني، وحتى الثالث.

تشكّل الثورة الإيرانية، من نواح عدة، منعطفًا؛ إنها نهاية الأنموذج الكمالي؛ فخلال الحرب العالمية الأولى، اكتشفت القوى الاستعمارية، أي فرنسا وإنكلترا

= وهو الذي أسس حركة المحرومين في عام 1974. اختفى، مع اثنين من مرافقيه، في أوضاع لم تتوضح حتى الآن، خلال زيارة له إلى ليبيا في آب/ أغسطس 1978. [عائلة الصدر لبنانية إذًا قبل هجرتها القسرية إلى إيران]. (المحرر)

(11) **الأحمدية** حركة إصلاحية إسلامية تبشيرية، أسسها ميرزا غلام أحمد في نهاية القرن التاسع عشر في البنجاب التي كانت حينها تحت السيطرة البريطانية. ومنذ عام 1889، أعلن مؤسس الحركة أن له مهمة إلهية، وهي إصلاح الإسلام لإعادة نقائه، وأعلن نفسه **مجدّدًا ومحدّثًا** («ناقلًا للتقاليد الإسلامية») **ومهديًا** («قائدًا»). أثار هذا ردات فعل عنيفة من التيارات الأخرى داخل الإسلام التي كانت تعتبر أن [النبي] محمدًا هو آخر الأنبياء. وأعلنت منظمة المؤتمر الإسلامي في عام 1973 أن هذه الجماعة لا تنتمي إلى الإسلام، ومنعتها من الذهاب إلى مكة للحج، وأنكر الدستور الباكستاني صفة المسلمين عنها منذ عام 1974. ويلاحَق أفرادها في بلدان عدة وهُم متَّهمون بالتجديف، ما دفع بحوالى 130.000 من أتباع هذه الحركة للجوء إلى الهند.

ومعهما الإيطاليين واليونان الذين كانوا تحت حمايتهما، وخلال تقطيعها جسم الإمبراطورية العثمانية، لنفسها تعاطفًا متأخرًا مع الباب العالي الذي أسقطته للتو. لذلك، قدمت نفسها مدافعةً عن شرعية الخليفة الجديد السلطان عبد الحميد الثاني في مواجهة قومية مصطفى كمال أتاتورك التي كانت تريد فرض التحديث بالقوة. وكان الاتحاد السوفياتي الشاب داعمًا له وكذلك لينين، حتى وفي قمعه الشيوعيين الأتراك الذين لم ترضَ موسكو عن قلة صبرهم البروليتاري في حين كانت الساعة ساعة الثورة القومية الديمقراطية!

أدى هذا التصور إلى القبول بالقراءة الغربية والارتقائية للإشكاليات السياسية والأيديولوجية في المجتمعات الإسلامية. وكان اختيار السلطات الاستعمارية المنتظم للأعيان، «إقطاعيين» أكانوا أم متدينين، خصوصًا في شمال أفريقيا، يؤكد هذا التمثيل لتحالف المحافظين (يُقال عنهم إنهم «رجعيون») مع المحتل الغريب ضد القوى الوطنية التحديثية (يُقال عنها «تقدمية»). اعتمادًا على هذا التصور، كتب جان دانيال، في مجلة *France Observateur*، موجِّهًا التحية إلى استقلال الجزائر بوصفه انتصارًا للعبقرية الفرنسية، لأن ما طالب به الثوار الجزائريون كان القيم نفسها التي نادت بها الثورة الفرنسية، والتي تعلمها هؤلاء عبر العلاقة بفرنسا، وفي هذه الحالة، كان كذلك يذكّر ببن بلّه نفسه الذي لم يكن وقتذاك قد أصبح إسلاميًا، قائلًا إن بلّه اكتسب ذلك عبر اتصاله بالجيش الفرنسي!

انعكست الصورة عندما أطاحت الشاهَ، في إيران، حركةٌ جماهيرية لم يسبق لها مثيل، ولم تكن أبعادها أقل ملحمية من سقوط الباستيل، من دون أي حرب على الحدود أو تدخّل أجنبي[12]. وبمواجهة تدمير المجتمع الإيراني عبر التحديث القسري - «الثورة البيضاء» - بدت الطبقة الدينية المجتمعة خلف قائدها في المنفى، ومن ثم بعد عودته المنتصرة، دولة بديلة في وضع سلطة مزدوجة حتى قبل تأسيسها كنظام إسلامي. وإنه لذو مغزى أن الرأي العام الأوروبي كان في

---

(12) اصطدمت الثورة الفرنسية فورًا بالتدخل الأجنبي، لأن عروش أوروبا تجندت حالًا ضد الجمهورية. وكان لكومونة باريس هزيمة سيدان كخلفية. أما الثورة الروسية، فقامت في حين كانت الجيوش الألمانية تتقدم نحو موسكو.

الحقبة عينها متحمسًا لتجربة سوليدارنوسك (نقابة تضامن)، ولم يكن مصدومًا على نحو خاص بالمكانة التي احتلتها الكاثوليكية أو رجال الدين البولونيون، في الحركة الجماهيرية.

تشكّل الثورة الإيرانية كذلك منعطفًا من حيث إنها افتتحت المواجهة بين الخطاب الإسلامي والولايات المتحدة (مواجهة جسّدتها حادثة احتجاز أميركيين رهائن فترة طويلة في سفارة الولايات المتحدة في طهران)، وذلك في البلد الذي اختبرت وكالة الاستخبارات الأميركية فيه بالذات أول مؤامراتها، وذلك حين نظمت، قبل ربع قرن، الانقلاب على [محمد] مصدّق، وهو وطني علماني انتُخب بشكل ديمقراطي، وكان قد قام بمشروع لتأميم شركات النفط، وكان ذلك سببًا لإسقاطه. وهكذا أقيم حكم الشاه الدكتاتوري وشرطته السرية المروّعة، السافاك، وذلك تحت حماية أميركية (وإسرائيلية). ومن المثير، من جهة ثانية، أن نلاحظ أن نظام الشاه في طهران كان يفسر هذه المواجهة الدائمة بأنها صراع بين الفرس «الآريين» والعرب «الساميين»، مستعملًا عبارات نازية تمامًا، وهي لم تكن أبدًا لتزعج حلفاءه في أي حال. هذا، وكانت طهران تساند بشكل فاعل، وفي الوقت نفسه مع حليفتها إسرائيل، قوات **البيشمركة** الأكراد بقيادة البارزاني ضد العراق الهاشمي، وضد العراق القريب من السوفيات في زمن الجنرال [عبد الكريم] قاسم، ومن بعدها ضد العراق البعثي تحت حكم صدام حسين.

هكذا، شكّل الانقلاب ضد الطاغية، المصاب بجنون العظمة الذي كان عشية سقوطه، بصدد تنظيم الاحتفالات المفخمة في برسيبوليس وبحضور جميع كبار العالم، صفعة وإذلالًا لواشنطن حتمًا. مع ذلك، لم تؤدِ شيطنة نظام الخميني وامتداداته اللبنانية، خاطفي الرهائن الأميركيين، حتى ذلك الحين إلى رهاب للإسلام على نطاق واسع؛ فالإيرانيون، في آخر المطاف، هم شيعة، في حين أن الحلفاء المفضلين لدبلوماسية البيت الأبيض في المنطقة، أي السعوديين والباكستانيين، هم من السنّة، خصوصًا أن الحرب الباردة كانت في أوجها. فإمبراطورية الشر، كانت لا تزال العالم الاشتراكي، وكان الإسلام يشكل ضده حليفًا ثمينًا.

مع ذلك، كانت العناصر المكوّنة للمخيلة الأوروبية والأميركية الشمالية لرهاب الإسلام في طور التبلور. وظهر آية الله الخميني الذي كان يذكر في كل مناسبة الشيطان الأكبر والشيطان الأصغر، في لندن وفي باريس كصورة شيطانية، وظهر الخلط بين المسلمين والعرب، الذي كان يربط هذه الشيطنة بالتصوير المضاد للعرب الذي انفلت في وسائل الإعلام الأميركية بعد حرب تشرين الأول/ أكتوبر 1973 والأزمة النفطية التي رافقتها. ونشر يوري أفنيري، وكان حينذاك نائبًا في البرلمان الإسرائيلي، تحقيقًا طويلًا حول هذا الموضوع في الأسبوعية **هاعولام هازيه**، وكان هو مديرها، مُظهرًا، اعتمادًا على الرسومات، أن تصوير أمراء النفط العرب، وهم يحملون العالم بين براثنهم، وحتى الرسم الكاريكاتوري لملامح وجوههم، مع الأنوف الكبيرة المعقوفة ...إلخ، هو استنساخ شبه ميكانيكي للرسومات المضادة للسامية قبل الحرب العالمية الثانية، وأن بعض الرسومات بدا مأخوذًا، كما هو من مجلة *Stürmer* النازية.

كان الغزو السوفياتي لأفغانستان، بناءً على طلب الذين قاموا بانقلاب عسكري مؤيد للشيوعية واستولوا على السلطة وأطاحوا الملكية، بحد ذاته ناجمًا عن الاستنتاجات التي توصلت إليها قيادة الكرملين بعد التغييرات الحاصلة في إيران المجاورة، والتي غيّرت معطيات الحرب الباردة. قرر استراتيجيو الاستخبارات الأميركية، في هذا الوقت، تنظيم المقاومة الإسلامية المسلحة ضد الاحتلال السوفياتي، وردّ الصفعة لموسكو عبر تحويل أفغانستان إلى فيتنام جديدة، حيث تتبدل الأدوار.

مع ذلك، في هذا المنعطف من تاريخ المنطقة، يصطدم المشاهد المتعجب بالتغييرات المفاجئة الناجمة عن عدم الترابط الأميركي في بلاد البشتون؛ فبعد أن قدم الأميركيون المساندة والتسليح والتدريب إلى مجاهدي القائد شاه مسعود، وهو طاجيكي شيعي[13]، خلال أعوام عدة، اكتشف استراتيجيو البيت الأبيض

---

(13) لم يكن أحمد شاه مسعود شيعيًا وإنما من الطاجيك، وهم المجموعة العرقية الثانية عدديًا (20 في المئة) بعد البشتون (55 إلى 60 في المئة). أما الشيعة، فنجدهم وسط الهزارة (10 في المئة) في أفغانستان. (المحرر)

الفاشلون، والبنتاغون والاستخبارات، أن على أفغانستان، إذا ما أرادت المطالبة بهوية وطنية، أن تكون محكومة من البشتون، وأن هؤلاء، مثلهم مثل إخوانهم الباكستانيين، هم من السنّة. وفي كابول، كان انتصار الطاجيك الذين هم من الشيعة ويتكلمون الفارسية[14]، سيؤدي إلى تقوية إيران. وعندما أُزيل الاحتلال السوفياتي، وتم تفكيك الاتحاد السوفياتي في الوقت نفسه، تغيّر نظام الأولويات لدى واشنطن. هكذا غيّر الأميركيون وجهتهم، وبمساعدة تلميذهم الذي كان تحت حمايتهم، أسامة بن لادن، عملوا على إنشاء نظام طالبان، هذا الاسم الذي يعني «طلبة»[15].

هكذا، شهدت الثمانينيات تطور سياسات الولايات المتحدة التي بدت ظاهريًا متناقضة كليًا؛ لأن إذا كان العدوان العراقي على إيران قد جعل من صدام حسين مؤشرًا حقيقيًا لرهاب الإسلام العالمي، بفعل تلاعبه بالخوف الذي أوحى به نظام طهران في أوروبا والولايات المتحدة، وحصل بالتالي على الدعم الأخلاقي من الغرب، جرى في الوقت ذاته أن العقيد أوليفر نورث الذي حوكم لاحقًا بسبب هذه الحوادث، كان قد نظم عمليات بيع أسلحة إسرائيلية وأميركية لإيران، بمساعدة جنرالات من الأرجنتين، وذلك لتمويل حرب الولايات المتحدة السرية ضد الثورة الساندينية في نيكاراغوا، من خلال الكونترا (Contras) انطلاقًا من هندوراس. كانت تلك فضيحة إيران غيت التي لم يفهمها الشعب، لأنها كانت ترمي في الوقت نفسه إلى إضعاف العراق وتحييده، وهو الذي كان مسلحًا تمامًا من أسياده الأوروبيين، وإلى تقوية إيران بالذات؛ الفزاعة التي لم يكن للعسكريتاريا الأميركية القدرة على الاستغناء عنها، ولا سيما بعدما وضع غورباتشوف، ابتداء من عام 1985، الإمبراطورية الروسية، على سكة التصفية الذاتية بوصفها عدوًا.

في أفغانستان، وخلال عقد من الزمن، فتح البيت الأبيض جبهة إسلامية

---

(14) مصدر الالتباس في تعريف الكاتب للطاجيك بأنهم شيعة هو أنهم من الشعوب الآرية، ويتحدث أغلبية الطاجيك لغة الدارية، وهي أفغانية فارسية يتحدث بها أيضًا الهزارة الشيعة. والطاجيك أخوة لـ «الأفغان والفرس والكرد» من الناحية العرقية، فهُم من الأقوام الإيرانية الشرقية. (المحرر)

(15) يُعطى هذا الاسم لدارسي القرآن. كانت هذه الحركة الأصولية التي ولدت في الباكستان في عام 1994 وانتشرت بعدها في شكل آخر في أفغانستان، قد أعلنت احتلال كابول في عام 1996.

لاستقبال متطوعين من العالم الإسلامي بأسره، واستخدم جميع الوسائل التقنية واللوجستية والمالية، للدفع بهم إلى الساحة الأولى في المشهد السياسي الإقليمي. هكذا، وتحت سلطة واشنطن ونصائحها، ولد تنظيم «القاعدة». وكان يجب انتظار نهاية الحرب الباردة واختفاء الاتحاد السوفياتي حتى يشرع أسياد الإسلام المتمرد والعابر القوميات الأميركيون الذين يهاجمونه اليوم، في التفكير في ضرورة إرجاع هذا العفريت إلى داخل قمقمه. وفي العالم الإسلامي بمجمله، من المغرب حتى إندونيسيا ومن التشاد حتى الفيليبين، سيصبح «الأفغان»، أي سيصبح المقاتلون القدماء في أفغانستان، المدربون وفقًا لمنطق أميركي، وبالتالي لمنطق عالمي، كوادر ومقاتلي الحركات السياسية الجديدة التي تدّعي الإسلام.

هذه هي خصوصًا حالة الجزائر، أحد البلدان المسلمة الأكثر تأثرًا بتفتيت الاتحاد السوفياتي؛ فبعد الانفتاح القصير في عام 1988، أصبح خيار السلطة العسكرية الجزائرية البقاء وجهًا لوجه مع الإسلامويين وحدهم، من أجل ضربهم بلا عاقبة. لكن خلف الجبهة الإسلامية للإنقاذ، التي تقدمت وكانت لها الغلبة في سلسلة من المواجهات الانتخابية، كانت تختبئ الجماعات الإسلامية المسلحة، أو بالأحرى عملية الاستفزاز الدائم. وباسم الإسلام، ضاعفت هذه الجماعات التعديات والفظائع: مجازر ضد المدنيين، أعمال عنصرية، تحريض للنيل من سمعة الجبهة الإسلامية التي احتاجت إلى أكثر من عام من الزمن حتى تفهم أن أعمال الجماعات ليست لمصلحتها وليست فاعلة لإسقاط النظام. ويذكّر واحد من العناصر الكثر في الأمن العسكري الجزائري، بعد تخلّيه عن منصبه، بتغلغل السلطة الجزائرية داخل مجموعات «الأفغان» في زمن الاحتلال الروسي، وذلك بطلب من «الرفاق السوفيات» بالذات.

نميل اليوم إلى نسيان أن «الإسلاموية» المحافظة، أي تلك التي ينتمي إليها القادة السعوديون والباكستانيون، وكذلك الحلف العالمي المضاد للشيوعية والمجموعات الأخرى في المعسكر الأكثر محافظة على المستوى العالمي، هذه الإسلاموية كانت تحظى بالدعم المطلق من جميع الحكومات التي توالت على واشنطن خلال فترة الحرب الباردة. واستخدمتها هذه الحكومات من دون أي

همٍّ ديمقراطي، ضد الشيوعية، لكن كذلك ضد الناصرية وضد جميع الأشكال الحديثة وغير المنحازة من القومية. كانت النتيجة إسلاموية مصنوعة في الولايات المتحدة، لكنها صارت تنمو كذلك من تلقاء نفسها في الجزائر، أو القاهرة، أو تونس، أو كراتشي؛ إسلاموية غبية وشريرة كما أرادها خصومها الذين يتلاعبون بها، لأن ما كان مطلوبًا هو إنتاج العدو العالمي البديل في المستقبل. وكانت النتيجة كذلك إخفاء الإشكالات السياسية المحلية، الوطنية والاجتماعية التي كانت الحركات الإسلامية التي تتمتع بوجود حقيقي في مجتمعاتها، منغرسة فيها.

كذلك كانت حال كلٍّ من الجبهة الإسلامية للإنقاذ الجزائرية والإخوان المسلمين والأحزاب التي انبثقت عنهم، و«حزب الله» في لبنان وحركة «حماس» في فلسطين - أربعة سيناريوات مختلفة تمامًا - وتبيّن هذه الخصوصيات بالذات وفي الوقت نفسه حقيقة هذه الحركات والصبغة التجريدية للتصنيف الموحد والتعميمي الذي يريد خطاب رهاب الإسلام احتجازها فيه، لأن طيف «القاعدة» يغطيها ويشوّه صورها، مقدمًا أنموذجًا وحيدًا وكاريكاتوريًا يختزل الإسلام بإسلاموية المهرج الكبير، «إسلامو - فاشي» كما ينتقده معادو الإسلام الأكثر جدة. لأنه هنا، وأول مرة، ما عاد تشويه صورة العدو ضروريًا، ما دام يقوم هو نفسه بدور الفزاعة، ويحب، وبشكل عفوي على ما يظهر، أن يجعل نفسه بغيضًا[16]. هذه المواظبة على التماثل مع الصورة التي يريد عدوه أن يعرضها عنه هي التي تغذي بالتحديد الحسابات التآمرية، وتغذي المفهوم البوليسي للتاريخ، وتولّد عدم التصديق عند المشاهدين الأكثر انتباهًا. في الواقع، ليست «القاعدة» مؤسسة إرهابية أنشأتها تاريخيًا الولايات المتحدة فحسب، ولا مؤسسة تعمل وفقًا لمنطق هذا البلد الخاص، ومع طرائقه وأدواته التقنية. إنها منظمة تقترف دائمًا، وفي أسوأ الأوقات، الأعمال الأكثر دموية، وذلك عمليًا في كل مرة تواجه فيها واشنطن صعوبة في تصديق سياستها الحربية، فتهب بذلك لنجدتها. ومن الملائم في الحقيقة أن نلاحظ أن الهدف من هجمات مدريد، عشية الانتخابات

(16) نرى هذا اليوم في المجازر وأعمال الاغتصاب على مدى واسع، والإعدامات المشهدية والتدمير الذي يقوم به بوكو حرام [في نيجريا]، والشباب (الصومالي) أو داعش.

الإسبانية، كان تأمين انتصار أثنار الذي لم يربح إلا لأنه كذب، وأراد أن يُلبس تهمة المجزرة لتنظيم «إيتا» (ETA) الباسكي. كذلك تطابقت الهجمات التي حصلت في مصر بشكل منتظم مع فترات الضغط الدبلوماسي بين مصر وأميركا، لاعبة دور التذكير بالعودة إلى بيت الطاعة. وهكذا كانت ضحايا الهجمات في بالي، في عام 2002، بشكل أساس من الأوروبيين، خصوصًا البلجيكيين، في الوقت الذي كانت أوروبا ترفض دعم الاحتلال الأميركي للعراق. وفي عام 2006، نمت في المخيمات الفلسطينية في لبنان وسورية منظمة جديدة تابعة لهذه الحركات من دون أن تكون لها جذور محلية، تحت العنوان المخاتل، ولمرتين: «فتح الإسلام»، فأدى ذلك إلى استفزاز متعدد الأشكال ضد الدولة اللبنانية وضد الفلسطينيين في لبنان، وكذلك ضد «حزب الله» والنظام السوري، وبالتالي ضد إيران أيضًا التي كانت متهمة بالتأكيد بأنها هي التي تدير هذه المنظمة. هذه الحقيقة الظاهرة، الصارخة، الصاخبة، الدموية لإسلاموية القاعدة[17] الغبية والشريرة هي بالتأكيد الحجة الكبرى النافذة للتوازي بين رهاب اليهودية ورهاب الإسلام، لأن جرائم «الإسلامويين»، ومنها الذبح المستمر للأبرياء، هي في الواقع حقيقية، في حين أنه لا يوجد يهودي واحد أعلن بصفته هذه تبنيه أي جريمة تؤدي إلى تحويل المضادين للسامية إلى ضحايا، أو تسمح لهم بأن يقدموا أنفسهم بوصفهم ضحايا.

من الملائم إعادة وضع هذا الاختلاف الظاهري في سياق معاداة السامية بالذات: من المؤكد أن اليهود «بصفتهم هذه»، في أوروبا، وقبل الحرب العالمية الثانية، لم يضعوا قنابل في الأماكن العامة. أما «إرهابيو» ذلك الزمن، الفوضويون، الاشتراكيون - الثوريون أو المستقلون، فإنهم مارسوا - في أسوأ الأحوال -

(17) في 8 تموز/ يوليو 2007، انتقد الظواهري الذي كان يقدَّم إلينا بصفته مساعدًا لبن لادن، والثاني في مجلس إدارة المؤسسة الإرهابية، ليس «خونة فتح» فحسب، لكن كذلك قادة «حماس»، للخيانة التي كان يعتبرها «قبولهم بالديمقراطية»! وفي 7 تموز/ يوليو 2007، قتلت شاحنة ملغومة 150 شخصًا وجرحت 250 آخرين، في سوق تركماني في إرميلي، شمال العراق، ولا يمر يوم من دون أن تحصل كارثة هنا وهناك باسم الإسلام. لكن، كيف ننسى الجرائم والفظائع التي ارتكبتها في العراق قوات التحالف باسم الديمقراطية، وتلك التي يرتكبها يوميًا المستوطنون من اليمين المتطرف الإسرائيلي، باسم اليهودية. كذلك من المهم التذكير بالنداء الحديث لأفيغدور ليبرمان الذي يدعو إلى قطع رؤوس العرب الإسرائيليين بالفأس إذا لم يكونوا مخلصين لإسرائيل.

الاغتيال السياسي، مع أو من دون «أضرار جانبية»، بنسب تبدو طفيفة، مقارنةً بالفظائع الحالية. لكن الخطاب المعادي للسامية، السائد في الرواية النازية، يُسند إلى اليهود، من دون حاجة إلى إعلان هؤلاء أي شيء «بوصفهم هكذا»، جميع أعمال العنف الاجتماعية والسياسية التي كانت تهز المجتمع البرجوازي، بدءًا من الشيوعية نفسها، المتهمة بإثارة الفوضى والرعب في كل مكان. إلا أن اليهود، في هذه الهلوسة من كراهية الآخر المتميزة، كانوا كذلك متهَمين بأنهم مسؤولون عن جميع أضرار الرأسمالية. وكانوا من جهة أخرى المسببين المفترضين للحرب، وبالتالي تقع على عاتقهم الفظائع وأعمال الدمار وموت ملايين الرجال، والنساء والأطفال ومعاناتهم. وإذا أضيف إلى ذلك الاتهام القديم لليهود بقتل المسيح في الديانة المسيحية، ينتج من ذلك في المخيلة الشعبية سجل مذهل لهم من الأعباء الإجرامية. وبعد ذلك، هناك أيضًا - مسبقًا - أساليب التلاعب البوليسي: الدفعة البسيطة التي تظن الشرطة أنها تستطيع إعطاءها لحسن سير حركة التاريخ، حين تفكر في المجتمع بطريقة بوليسية، وذلك حين تفصل كليًا الهدف عن النتائج في قضية ما.

في حالة معاداة السامية، مضى على التلاعب البوليسي اليوم أكثر من قرن من الزمن، وهو ثابت بشكل راعب؛ إنه كتاب **بروتوكولات حكماء صهيون** الذي نقرأ فيه نص أعمال الاجتماع السري الذي تآمر فيه القادة اليهود، الآتون من جميع أنحاء العالم، للاجتماع في مكان سري، من أجل السيطرة على العالم، وحيث أعلنوا من دون تزييف أن الأفكار الليبرالية والثورية هي أدوات لمؤامرة يهودية عالمية لتدمير دفاعات المجتمعات. ونعرف اليوم من دون أدنى شك أن هذا النص مزوَّر، لكن هذا لا يمنع معادي السامية من الاستمرار في ادعاء العكس، إلا أن هذا الكتاب منتشر في عدد من البلدان العربية والمسلمة، وهو يباع بالفرنسية، ويُعرض في متاجر «فيرجين ميغاستور» في بيروت، ويُتزاحم على اقتنائه في القاهرة، ونجده في جميع معارض الكتب العربية. ويعتقد ملايين القراء اعتقادًا وثيقًا بصحته، لأنه، كما يقولون، «كل ما حدث مذ ذاك أكّد صحته».

مع ذلك، فإن من الثابت أن من كتب **البروتوكولات** شخص مزيّف الهوية

اسمه ماثيو غولوفسكي، لحساب بيار راتشوفسكي، مسؤول البوليس السياسي الروسي في باريس. نُشر جزء منه في جريدة *Znamia* في عام 1903، ومن ثم نُشرت النسخة الكاملة في عامي 1905 و1906. أما مجلة **التايمز** اللندنية، فنشرت نسخة في عام 1920، لكنها عادت واعترفت بالخطأ بعد مرور عام واحد. وفي الحقيقة، كان هذا الكتاب سرقة أدبية لمقالة نقدية كتبها موريس جولي ضد نابليون الثالث، حيث استبدل المزوِّر نابليون باليهود، وفرنسا بالعالم. وكتب بيار أندريه تاغييف، وهو الذي أنجز عملًا مهمًّا في شأن تاريخ هذه الكذبة المتماسكة وما تورطت فيه:

«عبر تركيبته – أي كشف سر اليهود من خلال نص سري نُسب إليهم ادعاءً – يرد نص **البروتوكولات** على الحاجة إلى التفسير، حيث يعطي معنى لحركة التاريخ التي ليس لها تفسير، ويبسِّط مسيرته من خلال عدو وحيد. وهو يسمح بشرعنة جميع الأعمال ضد عدو مطلق، شيطاني وقاتل، يختبئ تحت صور متعددة: الديمقراطية، الليبرالية، الشيوعية، الرأسمالية، الجمهورية ...إلخ، حيث يقدِّم هذه الأعمال على أنها دفاع ذاتي وقائي. ويعود نجاح **البروتوكولات** التي صيغت في الأساس من أجل رهانات محدودة في البلاط الروسي، وللمفارقة، إلى نقص الدقة في النص الذي يمكن أن يتكيف بسهولة مع جميع أوضاع الأزمة، حيث يكون معنى الحوادث محيِّرًا وغير محدد. من هنا جاءت استعمالاته المستمرة»[18].

إذا كان معادو السامية يملكون هنا كتابهم المرجعي، فإن رهابيي الإسلام ينهلون من صدمة الحضارات كل ما يحتاجون إليه من تبريرات. وحتى اليوم، ما زالت مخاتلة الدولة وكذبها في قلب رؤية الخطر الإسلاموي. وتشكِّل «القاعدة» جزءًا من مجتمع المشهد، هي عملية للمهرج الكبير بحجمه الحقيقي بتصميم هوليوودي[19]. هل كان ذلك حلقة قديمة من آلة واشنطن التي أصبحت

---

(18) Pierre-André Taguieff, *Les «Protocoles des sages de Sion»: Faux et usages d'un faux*, 2ème éd. rev., corr. et augm. (Paris: Berg international; Fayard, 2004).

(19) إيلان هاليفي: يبدو هذا البعد المشهدي في هذه «الحكاية المضحكة»: في أثناء الهجمات، كان من المفترض بث فيلم على شاشة إحدى قنوات الساحل الشرقي، وكان يبدأ بمشهد هليكوبتر – انتحاري يتحطم في أثناء مهاجمته ناطحة سحاب، لكن أُجِّل عرض هذا الفيلم. وبعد حادثة 11 أيلول/ سبتمبر =

إلكترونًا مجنونًا، كما ادعت ذلك الصيغةُ الرسمية، أم هي بؤرة تحريض مستمر في خدمة أعدائها المفترضين؟ بعبارات أخرى، هل هو غول، وحش أصبح من الصعب إدارته، هل هو [مسخ] فرانكشتاين صُنع في الولايات المتحدة، لكنه تمرد على صانعيه، أم أنه شكل عملي ودموي من التصنيع؟ أليس تقديم «القاعدة»، أي عملية إخراجها (وهنا نشهد، على أي حال، التقاءً يصل إلى حد الإجماع بين محطة الجزيرة الفضائية القطرية والبيت الأبيض في الإرادة المشتركة في المصادقة على صحة نسبة خطابات «القاعدة»، وأشرطة الفيديو والتصريحات التي يوصلها قادة «القاعدة» المفترضون إلى العالم عبر وساطة القناة الفضائية)، أليس ذلك «بروتوكولات حكماء صهيون» لرهاب الإسلام الجديد؟

= 2001، ألّف البيت الأبيض خلية أزمة من أجل الرد، وضم إليها واضعي سيناريوات سينمائية، أمثال كاتب مسلسل MacGyver، وتلفزيونية، من أجل صنع أفلام خيالية تتعلق بموضوع الإرهاب.

الفصل الثامن

عرض الأمثلة والأمثلة المضادة

لننظر هنا، على سبيل المثال، أو بالأحرى الأمثلة المضادة، إلى حالتين خاصتين في الحركات السياسية التي تدّعي الإسلام. إن صورتهما في أوروبا والولايات المتحدة بائسة، ويعتبر البيت الأبيض أنهما حركتان إرهابيتان يجب تجاهلهما، تفكيكهما، وفي نهاية التحليل، تدميرهما، في حين تعتبر مؤسسات الوحدة الأوروبية أن واحدة منهما هي كذلك. وأنا أقصد:

«حزب الله» اللبناني، الذي كان تدميره المادي، أو على الأقل نزع سلاحه، الهدف المعلن - الذي لم يتحقق - للعدوان الإسرائيلي على لبنان في صيف 2006؛

حركة حماس الفلسطينية التي فازت في الانتخابات التشريعية في كانون الثاني/ يناير 2006 في الأراضي المحتلة، لكنها لم تستطع أن تحكم بسبب مقاطعة المجتمع الدولي، فتولت قواتها العسكرية السلطة في غزة في بداية صيف 2007.

يوضح كلٌّ من الحزب والحركة، وكل واحد على طريقته، الأساس في طرحي: الإسلاموية هي تجريد مخادع، هي تعميم، خلط غير متجانس بين حركات وظواهر، ولا تلتقي دينامياتها، بل إنها في أكثر الأحيان تتعارض. لذلك، فإن اتهامها جميعًا، ومن دون تمييز، بالإرهاب بسبب طبيعة واحدة ومشتركة، يُعتبر اختزالًا فظًا، لا يأخذ في الحسبان حقيقتها على الأرض، ولا تأثير عملها في المجتمعات التي تتحرك في داخلها.

[...]

حزب الله

حزب الله تنظيم سياسي لبناني ممثَّل على نطاق واسع في البرلمان، وكان جزءًا من التحالف الحكومي حتى كانون الثاني/ يناير 2011[1]، ويمكنه أن يباهي

---

(1) ولا يزال ممثلاً إلى اليوم (2017). (المحرر)

بأنه يمثّل أغلبية الطائفة الشيعية، أي ما يتعدى ثلث الشعب (اللبناني). لكن هذا التمثيل الطائفي الذي يتقاسمه مع حركة أمل (أفواج المقاومة اللبنانية) برئاسة نبيه بري، ليس مطلقًا؛ فهناك جزء من الشيعة في المدن، خصوصًا في بيروت، لا يوافق على برنامج الحزب، ويحاول الانفلات من سيطرته المتصاعدة، وذلك إما بالنضال في أحزاب اليسار غير الطائفي، مثل الحزب الشيوعي، وإما بممارسة النشاط في تنظيمات المجتمع المدني.

ظهر حزب الله في لبنان في عام 1985، عبر توحيد خليط من المنظمات الإسلامية الناشطة والمتجذرة داخل الطائفة الشيعية، وكانت جميعها تدّعي وراثة حركة اجتماعية مهمة، هي حركة المحرومين التي بدأت مع الإمام موسى الصدر في بداية السبعينيات. واستمرت هذه الدينامية مع نشاط تيار سُمي «أمل الإسلامية»، وُلد بسبب الوجود الإيراني في البقاع، خصوصًا في بعلبك، في أثناء الاجتياح الإسرائيلي في عام 1982. وبعد سلسلة عمليات دموية ضد القوات الأميركية والفرنسية العاملة ضمن القوة المتعددة الجنسيات التي أُرسلت سريعًا بعد مجزرة صبرا وشاتيلا، ركزت هذه الحركات نشاطها على الاحتلال الإسرائيلي للجنوب، ونسبت إلى نفسها «**انتصار**» 1984[2]، حين غادر الإسرائيليون جزءًا من الجنوب.

تولى السيد حسن نصر الله قيادة الحزب، بعدما اغتالت إسرائيل في عام 1992، السيد عباس الموسوي، الأمين العام للحزب. ويصر حزب الله على التاريخ الرسمي لتأسيسه، وهو 16 شباط/ فبراير 1985، حين أعلن بيان برنامج الحزب السيد إبراهيم الأمين[3]، ما سمح للحزب بعدم تحمّل مسؤولية الإرث الثقيل للعمليات ضد الغربيين، من عمليات أخذ رهائن وخطف طائرات نُفّذت في أعوام سبقت هذه التاريخ.

في موازاة ذلك، حافظت «حركة أمل» على الاسم الذي أطلقه موسى الصدر عليها، لكنها انحرفت إلى نقيض مسيرة مؤسسها المغيّب، ويتولى قيادتها منذ ذلك الحين السيد نبيه بري، رئيس البرلمان. وقد خاضت «حرب المخيمات» ضد

(2) غادر الصهيونيون جزءًا من الجنوب في عام 1985 لا في عام 1984. (المحرر)

(3) هو السيد إبراهيم أمين السيد. (المحرر)

الفلسطينيين على مدى عامين، وساندها فيها النظام السوري بشكل فاعل، وهو [أي النظام] كان قد فشل في عام 1983 في إسقاط ياسر عرفات وفرض حلفائه الفلسطينيين حينها على رأس منظمة التحرير الفلسطينية.

في أثناء ذلك الوقت، استطاع «حزب الله» المولود حديثًا أن يشغل الفراغ الذي تركه الانسحاب الإسرائيلي، وتنظيم المقاومة في المنطقة المحتلة، ليتمكن من فرض نفسه دوليًا شريكًا لا بد منه في كل اتفاق لوقف إطلاق النار (على غرار منظمة التحرير الفلسطينية قبل عام 1982). ومع ذلك، فإن الحزب موجود في جغرافيا محددة: الجنوب، البقاع، بيروت وضاحيتها الجنوبية، المكونة من أحياء عدة وحَّدتها هيمنة «حزب الله». ويشارك الحزب سياسيًا في المؤسسات اللبنانية والوزارات والبلديات، بشكل كبير. أما وجوده الاجتماعي والاقتصادي، فهو ظاهر في عمله «الاجتماعي»؛ إذ يحل محل الدولة العاجزة أو الغائبة، كما يظهر وجوده الثقافي والتربوي بشكل واضح من خلال محطات تلفزيونية عدة، ومحطات إذاعة، ومنشورات مختلفة من صحف ومجلات وكتب ودور نشر.

انتزع الحزب خلال تسعة عشر عامًا هويته السياسية وشرعيته الداخلية والدولية من مقاومته للاحتلال الإسرائيلي، هذا مع تثبيت وجوده وتمثيله في جميع المناطق الشيعية في لبنان. وهذا الطابع الذي اعترفت به الدولة و المجتمع اللبناني برمته، عزز تطورًا ظاهرًا في خطاب الحزب وممارساته، وكان قد تخلى تدريجيًا عن مشروع تحويل لبنان إلى دولة إسلامية، و«لبنن» برنامجه وخطاباته.

أدت اتفاقات وقف إطلاق النار في نيسان/ أبريل 1996، التي كان من المفترض أن تضع حدًا للتصعيد الذي سببه الهجوم الإسرائيلي المسمى «عناقيد الغضب»، إلى إقرار تشكيل لجنة مراقبة تضم الولايات المتحدة وفرنسا[4] وسورية ولبنان وإسرائيل. وفي هذا الصدد، أوقف الحزب إطلاق صواريخ على الأراضي

(4) إيلان هاليفي: إن وجود فرنسا داخل هذه اللجنة، التي تجعل حزب الله شرعيًا، بوصفه طرفًا محاربًا وممثلًا للمقاومة الوطنية اللبنانية، وفي الوقت نفسه مشاركًا في اتفاق وقف إطلاق النار، ناقضته تصريحات ليونيل جوسبان غير المسؤولة في القدس، حيث وصف حزب الله بالمنظمة الإرهابية. وأدت التصريحات تلك إلى رشق طلاب جامعة بيرزيت له بالحجارة في أثناء زيارته الضفة الغربية في شباط/ فبراير 2000.

الإسرائيلية، وركّز على العمليات العسكرية ضد قوى الاحتلال الإسرائيلي وحلفائها اللبنانيين الذين كانوا منظمين في جماعة من المرتزقة سميت «جيش لبنان الجنوبي»، على الأراضي اللبنانية المحتلة بالذات. ولم يلجأ إلى القصف من جديد إلا في تموز/ يوليو 2006، بعد أن اجتاحت إسرائيل البلاد من جديد.

للمفارقة، سوف يستفيد «حزب الله» من الفلسفة الأحادية الجانب المشتركة بين القادة الإسرائيليين وحُماتهم في واشنطن؛ ففي آذار/ مارس 2000، وبعد تسعة عشر عامًا من الأعمال الفدائية والخسارات البشرية المستمرة والمتصاعدة، قررت الحكومة الإسرائيلية في عهد إيهود باراك الانسحاب من الجنوب اللبناني المحتل، في وقت قياسي، ليلًا، وبشكل سري تقريبًا، تاركة آلافًا من العملاء، أي المجندين في «جيش لبنان الجنوبي»[5]. كان ذلك انسحابًا من دون اتفاق مع أي كان، سواء أكان «حزب الله» أم الدولة اللبنانية أم حتى منظمة الأمم المتحدة التي جرى اللجوء إليها **بعد ذلك** للتصديق على الانسحاب والاعتراف بتطبيقه كاملًا وتامًا من طرف إسرائيل وفقًا للقرار 425 الصادر عن مجلس الأمن الدولي[6].

كان من الواضح أن هذا التصرف الأحادي الجانب والمتسرع في الانسحاب الإسرائيلي، الذي بدا وكأنه اندحار، لا يمكن إلا أن يقوي «حزب الله»، ويمكّنه من ادعاء أن مقاومته المسلحة هي التي توصلت إلى طرد المحتل، لكن هذا الأمر وفّر له، وبشكل خاص، وضعًا سمح له بالسيطرة على مجمل المنطقة المحررة وبإدارتها، من دون تدخّل الدولة اللبنانية. إضافة إلى ذلك، أدى رفض إسرائيل إخلاء مزارع شبعا البالغة مساحتها 35 كلم^2 (وهي أراض تدّعي إسرائيل أنها سورية، في حين أن سورية اعترفت بأنها أراض لبنانية) إلى إعطاء الحزب الحجة لرفض نزع سلاحه، لأن الأراضي اللبنانية لم تُحرر كلها بعدُ!

---

(5) جرى الانسحاب في 25 أيار/ مايو 2000. (المحرر)

(6) هو القرار الذي اعتمده مجلس الأمن الدولي في 19 آذار/ مارس 1978، بعد بضعة أيام من بداية الاجتياح الإسرائيلي للبنان. وقرر تكوين قوة عسكرية من الأمم المتحدة في لبنان (اليونيفيل) من أجل تأكيد انسحاب الجيش الإسرائيلي، والحفاظ على الأمن على الحدود، ومساعدة الحكومة اللبنانية على استعادة سلطتها الفعلية في جنوب البلاد.

بعد الانسحاب الإسرائيلي الأحادي الجانب من الجنوب، برهن «حزب الله» بجدارة عن سيطرته على الوضع: لم يكن هناك مطاردة لـ «الساحرات»، أو عمليات انتقام، وقد طلب الحزب عفوًا عامًا وطالب بالرحمة للعملاء الذين قُدموا إلى المحاكم اللبنانية. كان ذلك بعيدًا كل البعد عن الفظائع التي رافقت الانسحاب الإسرائيلي من الشوف وعودة الميليشيات «الاشتراكية» للحزب التقدمي الاشتراكي في عام 1983[7]!

كان اغتيال رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري في 14 شباط/ فبراير 2005، ثم تلاه توجيه المعارضة حينها تهمة القتل إلى سورية[8]، ثم سلسلة من الاغتيالات لشخصيات سياسية لبنانية معروفة بمعارضتها للسياسة والوجود السوريين في لبنان، على خلفية قرار مجلس الأمن 1559[9]، سببًا لإشعال معركة سياسية ودبلوماسية كبيرة لإجبار سورية على سحب قواتها من بلاد الأرز. وهكذا أصبحت المطالبة بانسحاب القوات السورية الموضوع المركزي في الحملة الرئاسية، حتى كان بإمكاننا الاستماع إلى رئيس الولايات المتحدة، الذي كان يفسر للعالم - وهو العارف - بأنه لا يمكن أن تحصل انتخابات حرة ما دام جندي أجنبي واحد يدوس الأرض الوطنية، في حين أنه نظم انتخابات في العراق الذي كان محتلًا من القوات الأميركية وفي الأراضي الفلسطينية التي تحتلها إسرائيل منذ عام 1967!

ربح التحالف المضاد لسورية المعركة، في الفترة الأولى، فتوصل إلى الاستيلاء على السلطة، ووضع «حزب الله» في موقف حرج مع نصف البلد، لأن القرار 1559، وهو قرار أميركي - فرنسي، يتوقع إعادة سيطرة سلطة الدولة

---

(7) واجهت ميليشيات الحزب التقدمي الاشتراكي (الدرزي) التابعة لوليد جنبلاط المسيحيين في أثناء «حرب الجبل»، وسيطرت على الشوف في أيلول/ سبتمبر 1983.

(8) إيلان هاليفي: «السؤال عن من يستفيد من الجريمة ليس دليلاً على أنه ارتكبها، والسؤال عن من سيخسر أكثر عند ارتكابها ليس دليلًا على أنه لم يرتكبها!»: Ilan Halevi, «L'Agression israélienne contre le Liban,» *Revue d'études palestiniennes*, no. 101 (Automne 2006).

(9) أُقره مجلس الأمن الدولي في 2 أيلول/ سبتمبر 2004، وهو يدعو إلى احترام سيادة لبنان واستقلاله، وإلى انسحاب جميع الجيوش الغريبة، وإلى انتخابات رئاسية حرة وعادلة.

اللبنانية على كامل الأراضي الوطنية، ما يتضمن ليس خروج القوات السورية فحسب، لكن أيضًا نزع سلاح جميع الميليشيات - وبالتالي سلاح «حزب الله» الذي لا يجرؤ أحد على مواجهته، بمن في ذلك الجيش اللبناني.

بمواجهة «الثورة البرتقالية»[10] التي أطلقها المناهضون لسورية، يردّ حسن نصر الله: «لبنان ليس أوكرانيا، لبنان ليس جورجيا!»، ويُنزل تظاهرة مليونية للمطالبة ببقاء القوات السورية. بيد أن مراقبين واكبوا الأمر على الأرض أكدوا أن المتظاهرين لم يطالبوا ببقاء الوجود السوري، لأن دمشق كانت قد اتخذت القرار بسحب جميع قواتها من لبنان، وأن الرسالة التي وجهها تحرُّكهم كانت بالأحرى للوداع والشكر[11].

مع اغتيال الحريري، انتهت حقبة السلام السعودي الذي كرسه اتفاق الطائف في عام 1989 (والذي وضع حدًا بشكل رسمي للحرب الأهلية التي استمرت خمسة عشر عامًا)[12]. كان نهاية وهم وأمل بإعادة الإعمار جسدهما إعادة إعمار وسط بيروت. وكان الصراع الإقليمي لا بل الحرب العالمية الجديدة قد طالت لبنان. وكانت خلفية هذه النظرية الأميركية الجديدة، أي نظرية الدومينو، كما رأينا، تقول إن محاصرة إيران تمر عبر تغيير النظام في سورية، حيث تُقطع جذور «حزب الله»، لأن إيران وسورية و«حزب الله» جزء من محور الشر، وأدت هذه الاستراتيجيا في الارتدادات والترددات لدى البيت الأبيض في وضعها موضع التنفيذ، إلى زعزعة الوضع اللبناني.

[...]

(10) هي التسمية التي أطلقتها الصحافة الغربية على حركة 14 آذار ومظاهراتها في شباط/ فبراير وآذار/ مارس 2005 المطالبة بانسحاب القوات السورية من لبنان، وذلك تشبيهًا بما اشتهر في أوكرانيا باسم «الثورة البرتقالية» نسبة إلى الأعلام البرتقالية التي حملها المتظاهرون. (المحرر)

(11) يُنظر: *Der Spiegel* (1 March 2005).

(12) في عام 1989، جاء اتفاق الطائف لإكمال الاتفاق الوطني المعقود في عام 1943. يعطي هذا الاتفاق نصف مقاعد البرلمان، وعددها 128 مقعدًا، للنواب المسيحيين والنصف الآخر للمسلمين، والنواب يُنتخبون لمدة أربعة أعوام. ووضع هذا الاتفاق نظامًا سياسيًا مبنيًا على التمثيل الطائفي، حيث يكون رئيس الجمهورية مارونيًا، ورئيس الوزراء سنيًا، ورئيس المجلس النيابي شيعيًا.

مع تقدم لجنة التحقيق الدولية في شأن مقتل الحريري، وتراكم الشبهات لاتهام سورية بذلك - من دون أن ننسى انتحار أحد كبار المسؤولين عن الأمن السوري في لبنان - بدأ «حزب الله» حرب عصابات «مرافعية» (من مرافعات الدفاع). استقال ممثلوه في الحكومة، أو امتنعوا عن الحضور، حيث عطلوا القرارات التي تتطلب توفير النصاب، واعتبروا الحكومة غير شرعية. ومع ذلك، لا تعود أسباب هذا التعطيل الأساسية إلى التناقضات اللبنانية - اللبنانية، بل إلى الرغبة في إفشال مشروع إنشاء المحكمة الدولية في شأن اغتيال الحريري، الذي كانت سورية تعارضه بشدة.

كانت هذه الحرب الصغيرة التشريعية مدعومة خلال شهور بتظاهرات جماهيرية مستمرة في وسط المدينة، تمامًا في المكان الذي تمركزت فيه «الثورة البرتقالية» بين عامي 2004 و2005. وكان أهالي بيروت يقولون عن هؤلاء: «أولئك الفلاحون الذين يتنزهون في المدينة»، ما كان يغذي ضد الشيعة خطابًا عنصريًا وفظًا ومعلنًا.

[...]

يمكننا القول إن اليمين الماروني كان مقسومًا هنا، لحسن الحظ، لأن الجنرال المعارض ميشال عون الذي كان قد نفي إلى باريس وبقي فيها 15 عامًا، بعد حمله السلاح ضد سورية في الثمانينيات، هو حاليًا حليف «حزب الله»، في حين أن عائلة الحريري التي بدأت منذ زمن طويل بمحاولة جذب الطائفة السنية بأكملها إليها، كانت في الجهة الأخرى. قلنا لحسن الحظ لأننا نفلت هذه المرة من التنميط الطائفي للصراع: «مسيحيون ضد مسلمين».

في نهاية حزيران/ يونيو 2006، أسر كوماندوس فلسطيني جنديًا إسرائيليًا في الخط الفاصل بين قطاع غزة وإسرائيل. في اليوم التالي، أسر «حزب الله» جنديين إسرائيليين على الحدود اللبنانية، فما كان من تل أبيب إلا أن باشرت بهجوم جوي وبحري أولًا، ومن ثم هجوم بري، ضد لبنان، مسببة دمارًا هائلًا، وسقوط آلاف الجرحى، وحوالى 1300 قتيل. أدت هذه العملية قبل توقفها بفعل اتفاق لوقف النار بعد 33 يومًا إلى تشريد حوالى مليون شخص، وأُرسلت قوة

جديدة تابعة للأمم المتحدة إلى جنوب لبنان. في هذه الأثناء، أطلق «حزب الله» حوالى 3000 صاروخ كاتيوشا على شمال إسرائيل، تسببت بإصابة عشرات من المدنيين وبأضرار مادية جسيمة. ولأسباب تعود بشكل أساس إلى السياسة الداخلية[13]، انجر القادة الإسرائيليون، خلال الأسبوع الأخير من هذا الهجوم، إلى اجتياح جزء من أراضي الجنوب اللبناني، وهو اجتياح سوف يبدو باهظًا وبلا فائدة، وكانت نتيجته متوقعة، ما سمح للحزب بأن يتباهى بـ «نصر إلهي»، لأن العدو لم يستطع تحقيق أي من أهدافه.

لكن، ما أن انتهت الحرب حتى بدأت الوحدة خلف المقاومة والتفاخر الوطني يتصدعان، وحل محلهما التنافر، لأن ذلك «النصر الإلهي» الذي كان الحزب يحتفي به في تجمع شعبي كبير كلّف البلاد ثمنًا باهظًا، في حين أن «حزب الله» لم يكن لديه أي تفويض لجر البلاد إلى الحرب. طلب التحالف المعادي للسوريين في السلطة، بشكل خاص، من «حزب الله» تقديم كشف حساب، وكان الحزب يعارض هذا التحالف في ما يخص المحكمة الدولية، وينتقد سلبية الحكومة وتسويفاتها، بل يتهمها بالتعاون مع المحتل وبأنها تعطل مؤسسات الدولة.

بصراحةٍ نادرًا ما نجدها في العالم السياسي، يصرّح نصر الله بُعيد وقف إطلاق النار، في 27 آب/ أغسطس 2006، بأنه لم يكن يتوقع أن تشن إسرائيل عدوانًا بهذا الحجم ردًا على خطف جنديين (إسرائيليين)[14]، اعتراف جيد، لكن ماذا بعد؟ ما هو حجم هذا الخطأ في التقدير في الثمن الذي دفعه اللبنانيون؟ عوّض الحزب على أي حال بسخاء وبدقة على ضحايا الدمار وعمليات القصف في الجنوب، آخذًا دور الدولة التي لم تسارع إلى مساعدة الناس الذين تركوا بيوتهم.

---

(13) إيلان هاليفي: لا يمكننا فهم تصرف الحكومة الإسرائيلية في القيام بهذا الاعتداء إذا لم نرَ أن رئيس الوزراء ووزير الدفاع، وهما مدنيان من دون تاريخ عسكري ومن دون سلطة أخلاقية أو مهنية على التراتبية العسكرية، خضعا لتخويف وتلاعب القيادة العسكرية العليا التي ظنت أن ساعتها وساعة الحلول العسكرية حانت. يُنظر: Halevi, *Revue d'études palestiniennes*, no. 101 (Automne 2006).

(14) يُنظر: Alain Gresh, «Débat autour des déclarations de Nasrallah,» *Nouvelles d'Orient*, 1/9/2006.

إذًا، تنشأ ممارسة «حزب الله» في أثناء العدوان الإسرائيلي، كما خلال أعوام احتلال الجنوب، من المقاومة المسلحة الأكثر شرعية ضد الاحتلال الغريب وغير الشرعي للأراضي اللبنانية، وهو حق يعترف به اليوم القانون الدولي، وتنشأ في الوقت نفسه من اللجوء إلى الإرهاب بين حين وآخر. هكذا يكون الهجوم على قوات الاحتلال وأسْر جنود عملين حربيين، في حين أن إطلاق قذائف عشوائية على الأراضي الإسرائيلية لإيذاء سكان مدنيين بمنزلة جريمة حرب، وإن كانت هذه الجرائم ردًا على إرهاب الدولة الإسرائيلية ضد مدنيين لبنانيين، وهذا مؤكد، لكن ذلك لا يغير شيئًا بوصفها غير مقبولة في نظر القانون الحديث بشكل عام، واتفاقات جنيف بشكل خاص.

أما علاقة «حزب الله» بإيران، فهذه مسألة أخرى. يعتبر الإعلام الغربي الذي يستمد معلوماته بكل بساطة وبشكل خاص من أجهزة الأمن والاستخبارات، أن «حزب الله» ما هو إلا امتداد للنظام الإيراني وأداة له، لكن الحقيقة أعقد من ذلك؛ فالشيعة اللبنانيون يعتبرون في الحقيقة أن مرجعيتهم الروحية هي في العراق وإيران، بغضّ النظر عن النظام القائم في بغداد أو طهران. لكن، وكما رأينا، فإن «حزب الله» هو كذلك وارث حركة ولدت قبل خمسة أعوام من قيام الثورة الإيرانية، أي إنه ذو جذور نمت في الأوضاع المحلية، وأنه مدفوع بدينامية خاصة به.

بالتأكيد، ليس له صلة بتنظيم «القاعدة» الذي يضع القنابل في المساجد الشيعية في العراق. وقد استنكر أعمال هذا التنظيم، خصوصًا الهجوم على مركز التجارة العالمي في الولايات المتحدة (مع امتناعه عن أي تصريح بخصوص الهجوم على البنتاغون)، وقطع الرؤوس في العراق وكل عمل ضد المدنيين، حتى الأميركيين منهم («إذ يمكن أن يكونوا أميركيين وأبرياء»!). كما أنه استنكر أمرًا آخر جدير بالملاحظة، وهو انتهاكات الجماعات الإسلامية في حق المدنيين في الجزائر.

على الصعيد الاجتماعي، ادعى «حزب الله» على مدى طويلة النطق باسم الشيعة باعتبارهم مهمَّشين ومحرومين في النظام السياسي اللبناني. هذه الصورة الوردية الزاهية ما عاد مسلَّمًا بها بعد عام 2000، لكن الحزب يستخدم دائمًا في ممارسته السياسية نوابض من شعبوية محافظة، ذات طبيعة خيرية تؤمّن الحماية الاجتماعية، وهو يعزز الطائفية من خلال إعطائها لونًا اجتماعيًا.

يجب إعادة وضع هذا كله في السياقين الثقافي والاجتماعي اللبنانيين. ليس الشيعة وحدهم من يحمل مفهومًا طائفيًا للسياسة، لأن مجموع النظام الدستوري اللبناني يبقى تحت سيطرة فلسفة التوافق الوطني؛ فالحزب التقدمي الاشتراكي الذي أسسه كمال جنبلاط (اغتاله السوريون في عام 1978[15]، وهو اليوم برئاسة ابنه وليد)، هو - على الرغم من برنامجه الوطني اللبناني وانفتاحه بنظامه الداخلي على جميع الطوائف - حزب درزي بشكل أساس. كما أننا نرى في الكتلة التي تقودها عائلة الحريري إعادة تنظيم للطائفة السنّية، وفقًا لمحور سعودي، من بعد الفشل المتتالي لمختلف حركات القومية العربية، من الناصرية إلى حركة القوميين العرب[16]، ومن البعثيين السوريين والعراقيين ...إلخ الذين حشدوا خلال العقود السابقة الجزء الأساس من القوى السياسية والثقافية في الطائفة السنية.

في النتيجة، يمثّل «حزب الله» قوة اجتماعية وسياسية مهمة ولا يستهان بها. وكما قال الرئيس المصري [حسني مبارك] بُعيد الاجتياح الإسرائيلي الثالث للبنان، في عام 2006، فإن «حزب الله» جزء لا يتجزأ من التركيبة الاجتماعية اللبنانية. لكن أساليبه تتداخل، كما رأينا، مع الخط الفاصل بين الشرعي وغير الشرعي، ما يعطيه بالأحرى مكانًا جيدًا بين دول المنطقة وأحزابها، الذين يميلون إلى العمل في لاشرعية مطلقة. أما سياسته الإقليمية، فهي غير واضحة، كما يبرز ذلك في علاقته بالنظام السوري. ويُظهر الحزب رغبة في الهيمنة واضحة، على الطائفة الشيعية أولًا، ومن ثم على لبنان، وحتى على المنطقة أيضًا.

في هذا السياق، يصبح تهميش «حزب الله»، مهما كانت التحفظات التي يحق لنا تغذيتها تجاه كل ممارسته ومفاهيمه، مثل تهميش سورية وإيران، عملية تنتج نقيضها، على أقل تقدير، لأنه يجب أن نعرف ماذا نريد: وقف إطلاق نار فعلي، أي تزامل الذين يطلقون الرصاص بحسب ترتيب ما أو تسوية ما تكون لهم صالحة

---

(15) اغتيل كمال جنبلاط في 16 آذار/ مارس 1977. (المحرر)

(16) إيلان هاليفي: حركة القوميين العرب تيار من التيارات الأساسية الثلاثة للقومية، إلى جانب الناصرية والبعث. وهي لم تتمكن من الاستيلاء على السلطة إلا في اليمن الجنوبي بعد تحولها إلى الماركسية. أما في فلسطين، فتحولت الحركة التي كان يقودها جورج حبش، في أيلول/ سبتمبر 1967، إلى فصيل سُمّي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

للعيش، وحتى مواتية، أم نصرًا أيديولوجيًا يفضحهم، وفي الوقت نفسه يجبرهم على الهرب إلى الأمام. وبمعنى آخر يجب أن نعرف هل نريد السلام أم الحرب.

حركة المقاومة الإسلامية

إن حركة «حماس»، المسجلة على لائحة المنظمات الإرهابية التي وضعتها الولايات المتحدة وكندا واليابان والاتحاد الأوروبي، كانت قد أعلنت مسؤوليتها عن عشرات عمليات تفجير استهدفت المدنيين الإسرائيليين، ومن بينها عمليات انتحارية عدة. وكانت قد ضمّنت ميثاقها التأسيسي تحرير فلسطين كلها، وتدمير الكيان الصهيوني، وهي ترجع إلى كتاب **بروتوكولات حكماء صهيون** وتسميه لتعتبره دليلًا على وجود مؤامرة يهودية عالمية. وفي نظر أغلبية الأوروبيين والأميركيين، تبدو «حماس» حفنة من المجرمين الذين لا يمكن الاختلاط بهم أبدًا.

في كانون الثاني/ يناير 2006، ربحت «حماس» الانتخابات التشريعية الفلسطينية بنسبة 41 في المئة من الناخبين، وحازت بذلك أكثريةَ مقاعد المجلس التشريعي، أي البرلمان الفلسطيني. فاجأ هذا الفوز المحدود (كانت المشاركة في الانتخابات بنسبة 65 في المئة ولا يمثل الـ 41 في المئة أكثرية الشعب الفلسطيني) المراقبين، كما فاجأ الممثلين أنفسهم، ويمكن تفسيره بطرائق عدة متلاقية ومتكاملة: بداية، كان هناك إحباط الرأي العام الفلسطيني أمام جمود عملية السلام، بل تراجعها. فمنذ اتفاقات أوسلو (1993) التي كان عليها أن تؤدي إلى بناء الدولة الفلسطينية في خمسة أعوام، زاد الاحتلال، وكذلك عدد السجناء، وتزايدت الحواجز، وكبرت المستعمرات، وبُني الحائط وما زال يتمدد... ومنذ الانتفاضة الثانية (2000)، ما عاد هناك أي تقدم سياسي أو أي رؤية واقعية قادرة على وضع حد للاحتلال على المدى القريب، بل إن الاقتصاد بكامله والمؤسسات التي كان قد بوشر ببنائها، صارت مدمرة.

هناك كذلك تأكّل السلطة: فمنذ أربعين عامًا تسيطر حركة «فتح» – وبأعضاء اللجنة المركزية فعليًا – سيطرة كاملة، من خلال منظمة التحرير الفلسطينية، على القطاع العام الذي شكّلته بنفسها. وهذه الهيمنة على العمل في القطاع العام هي أحد الأشكال الرئيسة لما يسميه الرأي العام الفلسطيني الفساد. هذا يعني على كل

حال، في وضع البطالة السائدة منذ خمسة عشر عامًا تقريبًا، فتح الباب واسعًا أمام المحسوبيات أو الزبائنية في التوظيف الذي هو أحد مظاهرها الأكثر أهمية. وأدى هذا السأم تجاه حركة «فتح»، وفشلها السياسي وإدارتها الموصومة باتهامات - التي كانت في أغلب الأحيان مبررة، لكن ليس دائمًا[17] - الفساد واختلاس الأموال، والتعطش إلى التغيير، إلى هذه المفاجأة. يجب التأكيد مع ذلك أن «حماس» لم تخض قط معركتها الانتخابية تحت شعارات دينية، ولم تعد بأسلمة المجتمع الفلسطيني، بل وعدت بـ «التغيير والإصلاح» فحسب (وهو الاسم الرسمي للائحة «حماس» الانتخابية) و«التحرير الوطني» بعبارات مبهمة عمدًا. وكان الشعار المركزي، وبالتأكيد الأكثر فاعلية في حملتها الانتخابية، يقول ببساطة: «أميركا وإسرائيل تقولان لا لحماس، وأنت ماذا تقول؟»، وهذا ما سمح لها، إضافة إلى أسباب أخرى، بأن تربح أصوات الأكثرية المسيحية في بيت لحم. وقد وضع هذا النصر غير المنتظر «حماس»، من وجهة النظر السياسية والمؤسساتية الفلسطينية، في موقع جعلها وحيدة في الحكم، ما يعني كذلك القول إنها صارت وحيدة في التفاوض مع العدو. وكانت قيادة الحركة قد ظنت أن باستطاعتها تجنب هذه الورطة عبر حصولها على ثلث الأصوات التي كانت تأمل الحصول عليها. وكان يمكنها عند ذاك فرض وجودها الحتمي في اللعبة السياسية الفلسطينية، مع احتفاظها بدور المعارضة القوية[18].

---

(17) نُشر التحقيق في شأن إدارة الأموال العامة في **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد 65، خريف 1997، تحت عنوان: «حول تقرير لجنة مراقبة المجلس التشريعي الفلسطيني بما يخص الإدارة المالية».
«A propos du rapport de la commission de controle du Conseil législatif palestinien sur la gestion budgétaire,» *Revue d'études Palestiniennes*, no. 65 (Automne 1997).

(18) في 27 كانون الثاني/ يناير 2005، حققت «حماس» انتصارها الأول في الانتخابات البلدية في قطاع غزة. وفازت بعد ذلك بالأكثرية المطلقة في الانتخابات التشريعية في 25 كانون الثاني/ يناير 2006 وحازت 74 مقعدًا من مجموع 132 مقعدًا في المجلس التشريعي (في حين أن فتح حصلت على 45 مقعدًا فقط). وما إن أدى البرلمان الجديد المحكوم من «حماس» اليمين [الدستورية] في 18 شباط/ فبراير، حتى أوقفت الحكومة الإسرائيلية في اليوم التالي دفع الضرائب المستحقة للسلطة الفلسطينية (وهي ضرائب تعود إلى ضريبة القيمة المضافة وحقوق الجمرك المأخوذة على البضائع المستوردة إلى الأراضي الفلسطينية والتي تمر عبر إسرائيل). كذلك، وبعد أداء القسم في الحكومة الجديدة التي شكلها إسماعيل هنية، في 29 آذار/ مارس 2006، قطع الاتحاد الأوروبي كل مساعدة مباشرة. وأدت عملية الخنق الاقتصادية هذه إلى تفاقم الخلافات بين «حماس» و«فتح»، وما عادت اقتراحات الخروج من الأزمة تؤدي إلى نتيجة. ومع ذلك، لا تزال هذه الحركة تواصل تحولاتها.

لكن القيادة التنفيذية – مؤسسة الرئاسة وشخص الرئيس – بقيت في قبضة حركة «فتح». وأدى هذا الوضع التناقضي بالرابحين في الانتخابات إلى الاستمرار في التصرف كما لو أنهم ما زالوا في المعارضة، في حين أن الخاسرين استمروا في التصرف وكأن السلطة الشرعية ما زالت في أيديهم، وكان الاتحاد الأوروبي يشجعهم، في حين كانت الولايات المتحدة تناشدهم القيام بانقلاب، وكذلك المحتل الإسرائيلي الذي كان يطلب منهم، أو بالأحرى يدفعهم إلى حرب أهلية.

كانت هذه الأزمة الاقتصادية والمؤسساتية أرضية لعملية مزدوجة؛ فمن جهة، مفاوضات في القمة، من أجل تكوين حكومة وحدة وطنية، ما يفترض أن تكون «حماس» جاهزة لتحمل نتائج الالتزامات الدولية التي اتخذتها الحكومة السابقة، لأن ذلك هو منطق الدول، ومن جهة أخرى، مواجهات دموية أكثر فأكثر على مستوى الكوادر المتوسطة في أجهزة الأمن المرتبطة بكلٍّ من الحركتين.

إذا كانت «فتح» والسلطة التنفيذية الفلسطينية تطالبان «حماس» بالاعتراف بالاتفاقات التي وقعتها منظمة التحرير والحكومات السابقة في السلطة الفلسطينية، فإن المجتمع الدولي كان يتطلب أكثر من ذلك كثيرًا. هكذا طالبت اللجنة الرباعية التي تضم الولايات المتحدة وروسيا والاتحاد الأوروبي ومنظمة الأمم المتحدة، «حماس»، كشرط أولي لكل تطبيع في العلاقات مع السلطة الفلسطينية، بمجموعة من الإجراءات على المستوى الأيديولوجي، وهي إجراءات تعتبر غالبية المراقبين أنها تتجاوز قدرة الحركة بشكلها الحالي، ومنها إلغاء ميثاقها، والتخلي عن العنف، والاعتراف بحق إسرائيل في الوجود.

[...]

لم يتمكن أي اتفاق من كبح هذا التصعيد أو من تغيير خطوة المقاطعة بشكل جذري؛ لا الاتفاق الصادر انطلاقًا من وثيقة أنجزها مساجين ينتمون إلى الاتجاهين، بتحريض من النائب المسجون مروان البرغوثي ومن خلاله، وهو قائد شعبي من «فتح» في الضفة الغربية، ومؤيد منذ زمن طويل للوحدة الوطنية، ولا الاتفاقات الكثيرة المختلفة التي أُعلنت رسميًا، والتي حركت الوساطات المصرية، لكن كذلك فصيلًا من قيادة «حماس» في المنفى، الموجودة في دمشق، ولا حتى

= [وكانت الوثيقة التي أصدرتها «حماس» في 1/ 5/ 2017 تأكيدًا لوجهة النظر هذه]. (المحرر)

اتفاق مكة، الموقَّع برعاية العربية السعودية في شباط/ فبراير 2007، والمتضمِّن ما ينص على أن تحترم «حماس» الاتفاقات الموقَّعة - في إطار حكومة الوحدة الوطنية التي تشكلت حينها. واستمر الإسرائيليون والأميركيون في إعلان أنهم لن يتعاملوا مع «حماس».

في أثناء هذه الفترة، أسست «حماس» قوة عسكرية مستقلة سمحت لها، في حزيران/ يونيو 2007، خلال مواجهات مع «فتح»، بالاستيلاء على السلطة في قطاع غزة بكل بساطة. وهكذا تحوّل الانقطاع مع الضفة الغربية، الذي فرضته عمليًا سلطة المحتل، إلى انقسام سياسي ومؤسساتي فلسطيني، ما يعني المزايدة في صناعة العقبات.

في هذا السياق، لا تبتغي التصريحات الأميركية - الإسرائيلية التي تساند «فتح» في سيناريو حرب أهلية بين الفلسطينيين، عدا عن أنها مجرد أقوال، إلا صبّ الزيت على النار، وتغذية تُهم «حماس» الموجهة إلى «فتح»، ومنها التعاون مع العدو. ومع ذلك، نتج هذا الوضع من تطور كبير لحماس، منذ تأسيسها حتى قرارها المشاركة في الانتخابات التشريعية في كانون الثاني/ يناير 2006. ويناقض هذا التطور، أو بالأحرى التحول الحقيقي، الصور والأفكار المسبقة، ويثير مجموعة من التساؤلات، وسوف نحاول هنا متابعتها واختصارها.

تعني كلمة «حماس» «الاندفاع» «التحمس»، وحتى «الشغف»، لكنها هنا اختصار لاسم حركة المقاومة الإسلامية الذي اتّخذه في بداية الانتفاضة الأولى، في نهاية عام 1987، الجناح الفلسطيني المسلح لحركة الإخوان المسلمين التي أسست في مصر في العشرينيات. وهي شاركت، تحت هذا الاسم وبهذه الصفة، حتى مؤتمر مدريد في نهاية عام 1991، بالإدارة الموحدة للتمرد الشعبي، إلى جانب «فتح»، فصائل ماركسية - لينينية، مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين[19] بقيادة نايف حواتمة، وكذلك شارك شيوعيون من حزب الشعب الفلسطيني[20].

---

(19) ولدت الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين من انشقاق في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وانشق عنها بعد ذلك الاتحاد الديمقراطي الفلسطيني (فدا).

(20) أسس حزب الشعب الفلسطيني في عام 1982، وهو وريث الحزب الشيوعي الفلسطيني القديم.

قبل كانون الأول/ ديسمبر 1987، وتأسيس الشيخ أحمد ياسين حركة حماس، كان الفرع الفلسطيني للإخوان المسلمين ناشطًا بالفعل في البلاد. وكان الإخوان الذين بعثوا بمجموعة من المقاتلين المتطوعين في حرب 1948، يتمتعون في فلسطين بهيبة وشرعية أكيدتين، عززهما القمع الناصري، لأن القوميين العرب الذين كانوا يرفعون العلم الفلسطيني لم يكونوا هُم أنفسهم ليسمحوا لهؤلاء الآخرين بأن يتنظموا بشكل مستقل. وفي سجون عبد الناصر، كان الإخوان يتقاسمون الخبز الجاف مع **الفتحاويين** والاشتراكيين. مع ذلك، لم يكن الإخوان كتلة متجانسة، وكان لديهم مشروعات استراتيجية مختلفة، وحتى متناقضة؛ فمنذ نهاية الخمسينيات، كانوا متورطين في مجموعة من التحالفات التكتيكية المحلية: 1) في مصر وسورية، مع قوى المعارضة ضد الأنظمة القومية؛ 2) في الأردن، في تحالف ضمني مع النظام ضد الناصريين، ومن هنا الثغرة الدائمة بين تنظيم الإخوان المسلمين في غزة الذين كانوا في المحور المباشر للإخوان المصريين، وتنظيم الأردن، المتحالف مع الملكية ضد الناصريين والشيوعيين.

كانت إحدى نتائج الاحتلال الإسرائيلي في عام 1967 إعادة حركة المرور (لحوالى الثلاثين عامًا) بين قطاع غزة الذي كان سابقًا تحت الحكم العسكري المصري، والضفة الغربية التي أُلحقت بالمملكة الأردنية الهاشمية في عام 1950. هكذا سمح الاحتلال بتوحيد الإخوان المسلمين الفلسطينيين تحت إدارة واحدة وبتطور التنظيم - بكل شرعية تحت العين الساهرة للمحتل الذي ظن أنه هكذا سوف يقطع الطريق على منظمة التحرير الفلسطينية و«فتح»، وأنه يدعِّم «نظام السلطة التقليدي» الغالي على قلب المستشرقين المستعمرين - وشبكته المكونة من جمعيات خيرية وحدائق أطفال ومستوصفات وأندية ومكتبات. وخلال أعوام، سوف تؤمِّن له هذه الشبكة إخلاص، وحتى ولاء، جزء واسع من سكان مخيمات اللاجئين الذين يشكلون الأكثرية في قطاع غزة.

مع ذلك، تعتبر أكثرية الفلسطينيين أن «الإخوان رجعيون»، وحلفاء للإمبريالية الغربية، في سياق يسيطر فيه الخطاب القومي العربي، الناصري، البعثي أو المرتبط بحركة القوميين العرب. على كل حال، من المؤكَّد أن فرعهم الفلسطيني يتمتع برضى القوات الإسرائيلية، حيث إن الشيخ ياسين استطاع في عام 1968، وبكل

هدوء، أن يسجل عند سلطات الاحتلال جمعيته «المجمع»[21]، وهي مظلة للإخوان.

حصلت الانتخابات البلدية في نيسان/ أبريل 1976 في المدن الأساسية للضفة الغربية. وكان أن توصل مؤيدو منظمة التحرير الفلسطينية، أي الجبهة الوطنية الفلسطينية (منظمة التحرير مع الشيوعيين) إلى الاستيلاء على السلطة عبر موجة انتخابية عاتية قضت على عقود من حكم الوجهاء القريبين من النظام في الأردن. في ذلك الحين، كان النظام الهاشمي و«راديكاليو» الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والإخوان المسلمون مجمعين على رفض هذه الانتخابات التي استغلها المحتل لتغيير القانون الأردني، مانحًا حق الاقتراع للنساء وساكني مخيمات اللاجئين.

نذكر أن في تشرين الثاني/ نوفمبر 1977، ذهب الرئيس المصري أنور السادات إلى القدس، وصلى في المسجد الأقصى، وخطب في الكنيست، مفتتحًا عملية سوف تؤدي، في آذار/ مارس 1979، إلى توقيع اتفاقات كامب ديفيد، أي إلى «سلام منفرد» بين مصر وإسرائيل.

لاقت الخطوة المصرية التي سخرت منها سورية وليبيا والعراق، وحتى الأردن، ورفضها الاتحاد السوفياتي وحلفاؤه، رفضًا من منظمة التحرير الفلسطينية، على الرغم من تصرف ياسر عرفات «البعيد عن الأضواء»، الذي كان جالسًا في الصف الأمامي في البرلمان المصري حين أعلن «الريس» نيته الذهاب إلى القدس. وسوف ينتظر الرئيس الفلسطيني أكثر من أسبوع ليُطلق الحملة ضد «الخيانة» المصرية في المنطقة كلها، وكي يأخذ مسافته من خطوة السادات.

حين طرد السادات السوفيات من مصر قبل ستة شهور من حرب تشرين الأول/ أكتوبر 1973، أثار غضب اليسار «الكلاسيكي»، أي الشيوعيين والناصريين معًا. وكي يوازن هذا الغياب الجماعي للمثقفين والكوادر السياسية الذين أصبحوا منذ ذلك الحين مدعومين من موافقة عربية، حيث يتنافس القذافي وصدام حسين في المزايدة الكلامية، اعتمد «بطل العبور» منذ ذلك الحين على الأوساط الدينية

(21) أسست جمعية المجمع الإسلامي قانونيًا في عام 1973. (المحرر)

الأكثر محافظة، إذًا على حركة الإخوان المسلمين كذلك. وهكذا قام ببناء الجامعة الإسلامية في أسيوط، التي منها خرج قاتلوه. وفي هذا الوضع من الحرب الباردة والاستقطاب المتزايد داخل العالم العربي نفسه، عبَّر الإخوان المسلمون في غزة، وهم الحاضرون دائمًا لمعارضة منظمة التحرير الفلسطينية، ومعهم الشيوعيون، عن دعمهم السادات في أثناء زيارته للقدس في تشرين الثاني/ نوفمبر 1977، حتى أن واحدًا من وجهاء غزة مرتبطًا بالإخوان، وهو المدعو أمين الخزندار[22]، ذهب لمقابلة السادات كي يعبر له عن مساندته، فدفع حياته ثمنًا لهذه الجرأة.

[...]

وُقِّعت معاهدة كامب ديفيد أخيرًا في آذار/ مارس 1979، ما حوّل مركز الثقل في نظام تحالفات منظمة التحرير الفلسطينية نحو «الأكثرية التلقائية» التي ذكرناها سابقًا. وهذا ما حصل في حزيران/ يونيو 1979 على هذه الخلفية، وتحت العين الحارسة لقوات الاحتلال، حيث عاثت جماعة من الإخوان المسلمين تدميرًا وحرقًا في مراكز الهلال الأحمر الفلسطيني، وهو منظمة طبية ملحقة بمنظمة التحرير، كان يديرها حيدر عبد الشافي، أحد مؤسسي منظمة التحرير، لكنه كان يُعتبر، بسبب آرائه، رفيق طريق للشيوعيين[23]. وتبرر كتابات الإخوان في قطاع غزة هذا العمل بصب الشتائم على منظمة التحرير، من دون المساس بحركة فتح. وبعد شهور من ذلك، هاجم عدد من المشاغبين الذين يسيّرهم الإخوان المسلمون عبد الشافي بالذات وضربوه ضربًا مبرحًا.

خلال هذه الأعوام كلها، ضاعف الإخوان المسلمون، في غزة أكثر من الضفة الغربية، ولأسباب كثيرة، التهديدات وأعمال الترهيب والعنف ضد المواطنين الفلسطينيين بسبب آرائهم أو سلوكهم.

---

(22) الصحيح أنه الشيخ هاشم الخزندار، وقد اغتيل في 1 حزيران/ يونيو 1979 بسبب وقوفه إلى جانب الرئيس السادات. (المحرر)

(23) إيلان هاليفي: كان الدكتور حيدر عبد الشافي، وهو شخصية محترمة من الجميع، رئيس الوفد الفلسطيني في مؤتمر مدريد ومحادثات السلام في واشنطن من تشرين الأول/ أكتوبر 1991 حتى أيلول/ سبتمبر 1993. فاز في الانتخابات التشريعية الفلسطينية في كانون الثاني/ يناير 1996، وهو "إصلاحي" مقتنع بالنظام السياسي الفلسطيني، ثم استقال من النيابة في عام 1999.

في عام 1984، اكتشفت قوات الاحتلال الإسرائيلية مخبأ للأسلحة في المسجد الذي يخدم فيه الشيخ ياسين. وحكمت عليه بالسجن ثلاثة عشر عامًا، لكنها أطلقت سراحه بعد عام واحد في نطاق تبادل سجناء[24] مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة التي يرئسها أحمد جبريل[25]، ليعود بعدها إلى غزة.

في كانون الأول/ ديسمبر 1987، انطلقت الانتفاضة. ولم تكن نتيجة قرار من أي هيئة أركان، لكنها كانت نوعًا من الغليان العفوي داخل المجتمع. عندها أعلن الشيخ ياسين تأسيس حركة المقاومة الإسلامية وأنها «فرع مسلح للإخوان المسلمين في فلسطين»، كما أعلن فتح باب «**الجهاد**» من أجل فلسطين.

كان هذا من المساهمات النادرة للحركة في علم الأديان السياسي الإسلامي: التشديد على أن **الجهاد** في حالة فلسطين، وهو واجب وجهد جماعيان في المتعارف عليه تقليديًا، أصبح واجبًا فرديًا هنا، ما يفتح الطريق أمام جميع المبادرات الفردية، وحتى المنعزلة[26].

في اليوم الرابع من الانتفاضة، أرسلت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، المجتمعة في تونس، آخذة في الحسبان حجم الحركة وخصوصيتها، وبالتالي قوتها الذاتية، توجيهًا بمنع استعمال الأسلحة النارية في المواجهة الشعبية مع قوات الاحتلال. وحتى عام 1991، قامت حركة حماس التي لم تكن جزءًا

(24) إيلان هاليفي: في عام 1982، أسرت وحدة من حركة فتح، كانت تتنقل من دون سيارة، في لبنان، على عشرة جنود إسرائيليين، ومن ثم «أهدت» اثنين منهم إلى جماعة الجبهة الشعبية- القيادة العامة في مقابل استعمال سيارة هؤلاء. وفي أثناء محاصرة السوريين وحلفائهم من الفلسطينيين واللبنانيين لمدينة طرابلس اللبنانية، نظم برونو كرايسكي والصليب الأحمر تبادلًا للأسرى: تم تحرير أكثر من 4000 أسير فلسطيني في مقابل تحرير الجنود الإسرائيليين الثمانية، و1000 أسير آخرين في مقابل الجنديين الآخرين.

(25) الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة تنظيم منشق عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وخارج منظمة التحرير الفلسطينية، وتسيطر عليه سورية. [على الرغم من إعلان الجبهة مرات عدة خروجها من منظمة التحرير الفلسطينية إلا أنها لا تزال عضوًا في المنظمة، وهي ممثلة في اللجنة التنفيذية للمنظمة، والمجلس المركزي، والمجلس الوطني الفلسطيني]. (المحرر)

(26) الجهاد، في لغة الفقه الإسلامي، «فرض عين» لا مجرد «فرض كفاية». (المحرر)

من منظمة التحرير، لكنها كانت تشارك في «الإدارة الموحدة» للانتفاضة، باحترام هذا الأمر بشكل صارم، ويمكن هنا أن نميز في هذا الموقف «المسؤول» الإشارة الأولى الواضحة لهذا التحول الذي بدأ حينها ولمّا ينتهِ.

في 16 كانون الأول/ ديسمبر 1992، أوقفت القوات الإسرائيلية 417 عضوًا من «حماس»، مقيمين جميعًا في قطاع غزة، وأبعدتهم إلى لبنان، «البلد الشقيق» الذي رفض استقبالهم، متضامنًا معهم ومؤكدًا حق العودة لجميع الفلسطينيين، ولا سيما الفلسطينيين في لبنان، وكان أن عاشوا شهورًا طويلة في منطقة محرمة No man's land بين إسرائيل ولبنان، في منطقة مرج الزهور[27].

كان رد منظمة التحرير على هذا الإبعاد الذي يدعم صورة «حماس» البطولية في عيون الرأي العام الفلسطيني، ويقدم في الوقت نفسه إلى قيادتها فرصة لقاء للتفكير والدراسة المطولة، وهي فرصة قسرية بالتأكيد، لكن مكثفة وبنّاءة، للاعتراض ووقف المفاوضات الجارية في واشنطن، وفتح قناة سرية إلى أوسلو.

مع القيام في واشنطن، في 13 أيلول/ سبتمبر 1993، بتوقيع الإعلان الإسرائيلي - الفلسطيني في شأن التسويات المرحلية للحكم الذاتي التي سُميت «اتفاقات أوسلو»، دخلت العلاقات بين «حماس» وقيادة منظمة التحرير (التي هي أيضًا قيادة حركة فتح، كما هي إدارة السلطة التي نتجت من هذه الاتفاقات، لأنه من دون هذه الاتفاقات لكانت السلطة لا تزال منفية في تونس) في مرحلة جديدة. في الحقيقة، رفضت «حماس» الاتفاقات التي كانت تمثل بالنسبة إليها استسلامًا للأمر الواقع، وهو الاستيلاء على فلسطين، بما لا يترك للفلسطينيين، في أحسن الأحوال، إلا فتاتًا من الأراضي. فكان أن قاطعت، في كانون الثاني/ يناير 1996، الانتخابات الرئاسية والتشريعية الأولى، لكنها اعترفت شكليًا بشرعية سلطة «فتح» وياسر عرفات. وهي مشاركة على كل حال في هذا الموقف الملتبس مع التيارات الراديكالية في المعارضة «العلمانية»، الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية: وقد

(27) لم يكن المبعَدون كلهم من «حماس»، بل أغلبيتهم فحسب، وذلك إلى جانب عدد من المناضلين من الجهاد الإسلامي. ومرج الزهور بقعة تقع ضمن الأراضي اللبنانية لا في منطقة محرمة، فهي إحدى القرى اللبنانية من قرى قضاء حاصبيا في محافظة النبطية. (المحرر)

دعت هذه الأخيرة إلى مقاطعة انتخابات كانون الثاني/ يناير 1996، في حين أن الشخصية التي كانت الأكثر شهرة فيها كانت المرشحة الوحيدة التي تقدمت ضد عرفات للرئاسة[28]. وقد تُرجمت الحماسة الشعبية لأول انتخابات سياسية في التاريخ الفلسطيني التي عاشها الشعب بوصفها وصولًا فعليًا إلى المواطنة، بمشاركة وصلت نسبتها إلى 92 في المئة، وهو ما مثّل بالتالي تنكرًا صارخًا لجميع أولئك الذين دعوا إلى المقاطعة، وأظهر أن جزءًا لا يستهان به من مناصريهم خالف تعليماتهم.

وجدت الازدواجية في موقف «حماس» بالنسبة إلى الاتفاقات والسلطة، المسجلة سابقًا في مشاركتها في الإدارة الموحَّدة للانتفاضة الأولى، تعبيرًا رمزيًا ومعبّرًا تمامًا في التسوية بين «حماس» و«فتح» بشأن ردة الفعل التي يجب تنظيمها لدى السكان بعد توقيع إعلان المبادئ؛ «ففتح» كانت ترى فيها انتصارًا يجب الاحتفاء به، في حين أن «حماس» قرأت فيها هزيمة، تتطلب إعلان الحداد وإعلان الإضراب احتجاجًا. ثم توصل الطرفان إلى اتفاق: القيام بإضراب عام صباحًا وإحياء احتفالات بعد الظهر! هذه التسويات، هذه التنازلات التي حصلت وفقًا لمبدأ الواقعية، وتلقاها الرأي العام بهدوء، جعلت «حماس» في عام 2007 عرضة لغضب [أيمن] الظواهري، مساعد [أسامة] بن لادن، والفزاعة العالمية رقم 2، الذي اتهم قيادة «حماس» بالخيانة لأنها «قبلت بالديمقراطية»! وقد شكّل هذا الاستماع السياسي للشارع خصوصية «حماس»، وحدد المسيرة «غير الأنموذجية» التي ساقت التنظيم إلى مفترق الطرق الحالي.

بعد توقيع إعلان المبادئ، آثرت «حماس»، التي لم تختر القطيعة التي كانت ستترجَم إلى اصطدام مباشر بالسلطة، استراتيجية تجاوز الحد. وفي حين كانت قيادة «فتح» تفاوض، من دون أن يكون هناك توازن قوى بتاتًا، على فتات من السيادة لم تتحقق إلا ببطء، احتلت «حماس» ميدان المقاومة المسلحة عبر

---

(28) سميحة خليل، ممثلة الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، التي تقدمت للانتخابات الرئاسية في عام 1996، كانت البديل الوحيد من عرفات، وكانت كذلك المرأة الأولى في العالم العربي التي تتقدم لانتخابات الرئاسة. بيد أن عرفات انتُخب في 20 كانون الثاني/ يناير 1996 أول رئيس للسلطة الفلسطينية.

قيامها بعمليات تفجير متتالية، كانت في غالبيتها عمليات انتحارية ضد مدنيين، نُفذ بعضها حتى داخل الأراضي الإسرائيلية. وكان «المنطق» الذي تذرعت به لتبرير هذه العمليات هو الرد، بمعنى الانتقام الذي ينبغي لكل شعب معذَّب أن يتوق إليه. وحين تكون موازين القوى المادية غير متكافئة إلى هذا الحد، كما في حالة الاحتلال الإسرائيلي، يبدو الطابع التعويضي للانتقام ظاهرًا للعيان[29]. إذًا، جرت العمليات ردًا على العمليات الإسرائيلية: اغتيال قادة، قتل مدنيين، أعمال إرهابية متكررة من المستوطنين، مثل المجزرة التي نفذها مستوطن في شباط/ فبراير 1994 وقتل فيها 29 فلسطينيًا كانوا يصلون في مسجد كهف البطاركة في الخليل[30].

في 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1995، اغتال «متعصب» من اليمين المتطرف الديني اليهودي رئيس الوزراء الإسرائيلي يتسحاق رابين الذي كان قد وقّع اتفاقات أوسلو. وأخليت مدن الضفة الغربية في كانون الأول/ ديسمبر 1995، وجرت الانتخابات في 20 كانون الثاني/ يناير 1996، وفق الخطة الموضوعة سلفًا، وجاءت النتائج التي نعرفها. لكن بعد شهر واحد، قرر شمعون بيريز الذي حل محل رئيس الوزراء رابين، إجراء انتخابات مبكرة في إسرائيل. في هذه الفترة بالذات التي كانت حركة حماس فيها متورطة في حلقة جهنمية من العمليات العسكرية ردًا على عمليات القتل والقصف «الهادفة»، والتي كانت دائمًا تخطئ هدفها، قررت الحركة أن تضرب، وأعلنت مسؤوليتها عن سلسلة عمليات دامية بشكل خاص في أربع مدن إسرائيلية، ما ساهم بالتأكيد في انتصار [بنيامين] نتنياهو واليمين في انتخابات 29 أيار/ مايو 1996.

---

(29) إيلان هاليفي: ليس المقصود هنا أبدًا تبرير عن العمليات الانتحارية الموجهة إلى المدنيين أو الدفاع عنها، بل شرحها من خلال وضعها في سياقها ورؤية مداها بشكل نسبي داخل الوضع العام للصراع.

(30) المسجد الإبراهيميّ، أو الحرم الإبراهيميّ الشريف، وهو عند اليهود كهف البطاركة أو مغارة المكفيلة، يُعتبر أقدم بناء مُقدّس مُستخدم حتى اليوم من دون انقطاع تقريبًا. وهو رابع الأماكن المُقدّسة عند المسلمين، وثاني الأماكن المقدّسة عند اليهود بعد جبل الهيكل. جاءت قدسيته من كونه بُني فوق مغارة دُفن فيها كلٌّ من النبي إبراهيم وزوجته ساره، وولدهما اسحق وولده يعقوب وزوجتاهما رفقة وليئة. كما أن ثمة روايات تذكر أن يوسف وآدم وسام ونوح مدفونون هناك أيضًا. يقع في البلدة القديمة لمدينة الخليل جنوب الضفة الغربية في فلسطين، وهو يشبه في بنائه المسجد الأقصى. (المحرر)

كانت هذه العمليات حجة لدى الحكومة الإسرائيلية من أجل تجميد عملية المفاوضات. وقامت بشن هجوم عسكري دموي، تحت اسم «عملية عناقيد الغضب»، في الجنوب اللبناني، وفرض حصار كامل على الأراضي الفلسطينية، حيث تفصل بشكل خاص فصلاً تامًا بين قطاع غزة والضفة الغربية. وبحجة الأمن، أقامت «الفصل» (الذي يعبّر في اللغة الهولندية عن **التمييز العنصري** Apartheid) الذي أصبح، تحت تأثير حزب العمال، الفلسفة الرسمية في إسرائيل.

بعد هذه العمليات، اتخذت السلطة الفلسطينية إجراءات قمعية ضد «حماس»، من دون أي تفريق: اعتقالات مكثفة ووحشية، مداهمات وهجومات على المساجد، إغلاق مؤسسات ثقافية مرتبطة بالحركة ...إلخ. وساند الرأي العام الشعبي، حينها، بأكثريته سياسة «فتح»، ومنظمة التحرير الفلسطينية والسلطة، كما برهنت على ذلك انتخابات كانون الثاني/ يناير (1996). تظاهر عشرة آلاف فلسطيني في نابلس ضد العمليات، واستوعبت «حماس» هذا الدرس. وفي العام التالي استعيد «الحوار الوطني» - في الواقع الحوار بين قيادتي «فتح» و«حماس». وقال أحد ممثلي «حماس» حينها، صراحة: «لاحظنا أن الرأي العام لا يتبعنا في ساحة العمليات المسلحة، ويتهمنا بإعطاء حجج للإسرائيليين لعدم تطبيق الاتفاقات، لذلك قررنا التركيز على فضح فساد السلطة!». وليس من المستغرب أن نلاحظ أن جميع أعضاء السلطة وأعضاء «فتح» الحاضرين، الذين كان جل همهم إقناع محاوريهم بوقف العمليات، صفقوا لهذا التصريح وقاموا بتشجيعهم على الاستمرار بهذه الاستراتيجيا. وفي أيلول/ سبتمبر 1996، قامت الحكومة الإسرائيلية بأعمال حفر وتنقيب تحت مدينة القدس القديمة، لإعادة العمل بنفق قديم جدًا، يسمى نفق الحشمونيين، حيث عرّضت للخطر المنطقة كلها، خصوصًا الأطراف المباشرة للحرم الشريف (ساحة المساجد)، التي يسميها اليهود ساحة الهيكل. وسوف تسبب هذه الحوادث تمردًا شعبيًا مصغّرًا، أي انتفاضة دامت أربعة أيام، سمّيت انتفاضة النفق، وكانت نتيجتها مقتل 85 فلسطينيًا و15 إسرائيليًا. وكانت تلك أول مرة التي استعملت فيها الشرطة الفلسطينية أسلحتها ضد القوات الإسرائيلية، وأول مرة التي حملت فيها البيانات الموزّعة على المتمردين توقيع «القوى الوطنية والإسلامية». وهنا فهم كل واحد أن هذا يعني تحالفًا بين «فتح» و«حماس» في الشارع. كان ذلك منعطفًا تاريخيًا، وانتصارًا للخط الذي كان يدافع

عنه القائد «الشاب» الصاعد في «فتح» في الضفة الغربية، وكان رمزًا للانتفاضة، وقائدًا للحركة الطلابية في جامعة بيرزيت سابقًا، وهو الذي طردته إسرائيل في أثناء الانتفاضة الأولى، ونفته إلى تونس، ليعود مع الاتفاقات[31]. وقد استطاع إقناع ياسر عرفات بأن الطريقة الوحيدة لوقف صعود «حماس» هي أولًا عدم تركها وحيدة في ميدان الاحتجاج الشعبي ضد الاحتلال وبناء المستعمرات، ومن بعدها بناء تحالف معها يمنعها من اللجوء إلى الانفصال.

في نهاية أيلول/ سبتمبر 1997، حاولت الاستخبارات السرية الإسرائيلية اغتيال خالد مشعل، القائد السياسي لحركة حماس في المنفى، في وسط العاصمة الأردنية، وذلك عبر حقنه بمادة سامة، لكن مشعل لم يمت. وتمكنت الشرطة الأردنية حينها من اعتقال المتورطين في محاولة الاغتيال، وقام الملك حسين بنفسه بتهديد نتنياهو هاتفيًا بإلغاء معاهدة السلام التي تربطه بإسرائيل منذ عام 1994 إذا لم يرسل جهاز الموساد الاستخباري على الفور دواء مضادًا للمادة السامة المستخدمة (وهذا لا يتطلب إيصاله أكثر من نصف ساعة بالهليكوبتر). ومارست واشنطن كذلك ضغطًا إضافيًا، فاستجاب الإسرائيليون وأرسلوا الدواء المضاد[32] من دون أن يحددوا مع ذلك نوع السم المستعمل، وفي مقابل الإسرائيليين الموقوفين، طالب الملك بتحرير الشيخ أحمد ياسين الذي ذهب عرفات شخصيًا لاستقباله بشكل رسمي.

هكذا، وفي حين كان الرفض العالمي لحركة حماس يزداد، كانت هذه الحركة تتجذر أكثر من أي وقت مضى في المجتمع، في الحياة السياسية وفي الجيوسياسة الإقليمية بوصفها رقمًا لا يمكن تجاوزه. وعلى الساحة السياسية الفلسطينية،

---

(31) المعني بذلك مروان البرغوثي. [الصحيح أن الاحتلال أبعد مروان البرغوثي إلى الأردن وليس إلى تونس، وبقي في الأردن 7 سنوات ليعود في عام 1994]. (المحرر)

(32) إيلان هاليفي: في 17 حزيران/ يونيو 2005، نشرت الصحيفة الإسرائيلية **يديعوت أحرونوت**، تحت عنوان «المرسل»، مقابلة طويلة مع عميل الموساد المكلَّف بنقل الدواء المضاد. وهذه الحالة المعترف بها في التسميم تدعم الشكوك والتخمينات في ما يتعلق بوفاة ياسر عرفات. ويذكّر استعمال السم بشكل منتظم ضد المعارضين، في أوكرانيا وروسيا، من جهة أخرى، بأن العالم الإسرائيلي ماركوس كلينبرغ، الذي كان مسجونًا مدة أعوام عدة بتهمة التجسس لمصلحة الاتحاد السوفياتي، كان يعمل مع وزارة الدفاع الإسرائيلية على حالات من الحرب الكيميائية والبكتيريولوجية.

كانت المرحلة اللاحقة هي مناقشة موضوع إدماج «حماس» بوصفها عنصرًا سياسيًا متميزًا، شرعيًا ومنظمًا، في الحياة الديمقراطية: مفاوضات تتعلق بانضمام الحركة إلى منظمة التحرير الفلسطينية، ومشاركتها في الانتخابات البلدية في عام 2005، بعد مقاطعتها الانتخابات الرئاسية في كانون الثاني/ يناير 2005[33]، وأخيرًا تتعلق بمشاركتها في انتخابات كانون الثاني/ يناير 2006 التشريعية التي قادتها إلى الوضع الحالي.

كلف رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس، الذي انتُخب قبل عام مضى (2005)، وبعد رحيل ياسر عرفات الذي لم يُعرف حتى الآن سبب وفاته، «حماس» بتشكيل الحكومة، فرشحت عندها إسماعيل هنية الذي أصبح رسميًا رئيس الوزراء في السلطة الفلسطينية من شباط/ فبراير 2005 حتى حزيران/ يونيو 2007. لم يستطع مع ذلك أن «يحكم» ولو يومًا واحدًا. وفي 29 حزيران/ يونيو 2006، اختطفت قوات الاحتلال الإسرائيلية عشرين نائبًا وثمانية وزراء من «حماس» وسجنتهم بشكل غير شرعي[34]، مانعة الباقين من الانتقال بين قطاع غزة والضفة الغربية. في أثناء ذلك، بدأ المجتمع الدولي مقاطعة السلطة الفلسطينية، مسببًا بذلك الإفلاس التام لإدارة عامة كانت قد عانت كثيرًا بسبب أعمال الدمار في المرحلة السابقة، في حين أن التكتل البرلماني المرتبط بـ «فتح» كان متورطًا في استراتيجيات تعطيل داخل المجلس التشريعي، حيث كانت «حماس» تملك الأكثرية المطلقة.

هذه المحادثات تجري منذ أعوام عدة[35] في القاهرة، بحضور رسميين مصريين. ويمكن أن تبدو الوساطة المصرية متناقضة، بسبب الطابع الغامض، والعنيف في أغلب الأحيان، للعلاقات بين النظام المصري والإخوان المسلمين في مصر بالذات. لكن يمكن تفسيرها بالعلاقة الخاصة بين مصر وقطاع غزة، معقل «حماس»، وبالدور الإقليمي التي تطمح مصر إلى القيام به.

---

(33) انتُخب محمود عباس على رأس السلطة الفلسطينية بنسبة 62.5 في المئة.

(34) أُطلق سراح الأكثرية منهم في تشرين الثاني/ نوفمبر 2009، بعد سجنهم على نحو غير شرعي مدة ثلاثة أعوام.

(35) المقصود بين «فتح» و«حماس». (المحرر)

في داخل هذا التحول عند «حماس»، هناك الفكرة التي أطلقها الشيخ ياسين عند تحريره، وهي عقد هدنة طويلة الأمد، ربما تمتد مئة عام، في مقابل إنهاء الاحتلال والاستيطان في الأراضي التي احتُلت في عام 1967، وهذا ما يوازي الاعتراف فعليًا بإسرائيل، وليس وقف إطلاق النار فحسب. لكن، وحتى من دون مقابل، كانت «حماس» قد أعلنت هدنًا عدة من جانب واحد واحترمتها خلال فترات مختلفة، غير أن هذه الهدن كانت تسقط دومًا بفعل تكثيف إسرائيل عملياتها العسكرية، إما ضد كوادر الحركة وأفرادها المقاوِمين بالذات، وإما ضد المدنيين الفلسطينيين. فالهدنة الأولى، في عام 2004، دامت 51 يومًا، وانتهت عند اغتيال القوات الإسرائيلية إسماعيل أبو شنب، وهو كان الأكثر بلاغة من محامي الهدنة الطويلة الأمد، وكان يُعتقد أن تصريحاته العلنية التي كانت تعارض متابعة الهجمات (ضد الإسرائيليين) سوف تحميه، لذلك خرج إلى العلن بعد تخفّيه مدة طويلة، وفي آخر مرة دامت هذه الهدنة 15 شهرًا. وتعني الهدنة كذلك وقف إطلاق صواريخ القسام المحلية الصنع والقصيرة المدى وغير الدقيقة التي تشبه أكثر المكواة الطائرة منها القنابل، والتي تصيب أحيانًا ضحية واحدة. ولم تتمكن الهدن، حتى الآن، من وقف هذه النيران، لأنه إذا كانت «حماس» هي أول من استخدمها، إلا أنها سرعان ما أصبحت معممة، فهناك على الأقل ثلاثة تنظيمات غير ملتزمة حتى اليوم بأي هدنة - الجهاد الإسلامي وكتائب شهداء الأقصى ولجان المقاومة الشعبية - ولا تزال تُطلق صواريخ بكثافة من دون الاهتمام بالتقلبات الاستراتيجية التي تخضع لها «حماس»، وفقًا للمفاوضات مع «فتح» أو مع النظام المصري.

من الملائم، مع ذلك، التشديد على أن حين كانت «حماس» تقرر تعطيل العمليات العسكرية، أو على أي حال وقفها، فإنها كانت تراقب فعليًا جماعاتها، فتتوقف العمليات، في حين أن قيادة «فتح»، وحتى ياسر عرفات في زمنه، أعلنا، منذ بداية الانتفاضة الثانية، وقف إطلاق النار عشرات المرات، لكن عناصر «غير منضبطة»، أمثال شهداء الأقصى، تقوم بخرقه دومًا.

في إطار مميزات حركة حماس، مقارنة بأكثر الحركات ادعاء للإسلام في الحقل السياسي، يجب التشديد على الموقف الإيجابي للحركة تجاه المسيحيين.

وذكرنا في هذا الخصوص التحالفات الانتخابية الماضية، ودعم «حماس» لترشيح سيدة مسيحية (قريبة من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين) لبلدية رام الله، وكذلك حصول «حماس» على الأصوات المسيحية في بيت لحم. لكن هنا أيضًا، تسجَّل هذه الخطوة في سياق ثقافي خاص. وبما أن المسيحية ولدت في فلسطين، فإنها ليست ديانة تخص أقلية: وبعد أن كانت مصدرًا للازدهار، بفضل زيارة الأماكن المقدسة، والحج إليها، وبشكل عام السياحة الدينية، لجميع الدول المسلمة التي توالت على فلسطين، منذ أول خليفة حتى آخر سلطان، تبقى الآن مصدر فخر وطني لكل فلسطيني مسلم. من جهة أخرى، وكما رأينا، فإن غالبية مسيحيي فلسطين تتبع الطقس اليوناني الأرثوذكسي: وقد لاحقتهم روما وبيزنطية، وقتلهم الصليبيون، لذلك كانوا حلفاء للإسلام منذ نشأته في فلسطين. وفي العصر الحديث، كان كثيرون منهم، بدءًا من ميشيل عفلق، أحد مؤسسي حزب البعث، رواد القومية العربية، ونجدهم بنسب كبيرة، لا علاقة لها بحالة ديموغرافيا الجماعات، في الأحزاب الشيوعية وتنظيمات اليسار الأخرى. أخيرًا، يجب أن نضيف أن المواجهة مع المؤسسة الصهيونية التي كانت تصادر الأراضي والمساحة المدينية للمسيحيين كما للمسلمين، لم تسمح بنمو نوع من الانقسام الاجتماعي الطائفي كالذي رأيناه في لبنان.

يمكن تفسير هذا التحول في «حماس» بمجموعة عوامل خارجية وداخلية على الساحة السياسية الفلسطينية؛ فهناك حركة الجذب والصد في الجيوسياسة الإقليمية. إن مصر، المرتبطة بإسرائيل باتفاق سلام منذ عام 1979 وحليفة الولايات المتحدة في المنطقة، تعطي عبر وساطتها، منظورية/ ظهورية وشرعية، وكذلك حصانة دولية تحتاج «حماس» إليها، في حين أن سورية [...] التي كانت تشكل منذ أعوام عدة قاعدة خلفية و«ملاذًا» سياسيًا، لم تكن تخفي رغبتها في توقيع سلام نهائي مع إسرائيل، في مقابل الجولان المحتل منذ عام 1967، ما يعني نهاية هذه الميزة الاستراتيجية. وعندما استُؤنفت في كانون الثاني/ يناير 2000 المفاوضات الإسرائيلية - السورية في مدينة شبردزتاون [في ولاية فرجينيا الأميركية]، ولاح في الأفق احتمال حل قريب، حاول القادة السوريون إفهام المنظمات الفلسطينية المتمركزة في دمشق، وكان عددها حوالى ثلاثة عشر منظمة، أن أيام وجود مكاتبها وحضورها المتباهي في المشهد السياسي السوري أصبحت معدودة. لكن العامل

الحاسم القادر على التفسير، يبقى مع ذلك وجهة نظر الشارع التي أشرنا سابقًا كم كانت «حماس» مهتمة بها. وعشية الانتفاضة الثانية عام 2000، عبّر في الواقع حوالى 30 في المئة من الفلسطينيين عن مساندتهم العمليات «الإرهابية» ضد المدنيين الإسرائيليين داخل الخط الأخضر، وذلك في سياق إجابتهم خلال استفتاء دوري أجرته مؤسسات موثوق بها. أما في عام 2002، وبعد شهور من التدمير والحصار والبطالة والاغتيالات وإرهاب الدولة الإسرائيلية ضد المدنيين الفلسطينيين (بمساندة كثيفة من الرأي العام الإسرائيلي)، ارتفعت هذه النسبة إلى 70 في المئة! وفي عام 2004، وفي حين كانت الآثار الكارثية لهذه الهجومات واضحة في التراجع الكامل للعملية السياسية، هبطت النسبة إلى 40 في المئة. وللمفارقة، عجّل اغتيال الإسرائيليين الشيخ أحمد ياسين بهذا الهبوط في النسبة: وقّع حوالى 400 مثقف وشخصية فلسطينية بيانًا ضد محاولة الانتقام، مؤكدين أن الانتقام فخ. وبعد أسابيع عدة، أصبحت هذه المعادلة أمرًا بديهيًا في النقاش العام، وأخذت «حماس» في الحسبان تقلبات الرأي العام الفلسطيني هذه في ما يخص مسألة العمليات حين كانت تنظّر في شأن الهدنة الطويلة الأمد. وفي وسط الطريق لهذا التحول، بدأت الحركة تتلعثم حول المسألة الوطنية بطريقة ذكّرتنا بشكل غريب بتلعثم «فتح» ومنظمة التحرير الفلسطينية حول هذا الموضوع منذ أربعين عامًا! من المؤكد، أن أربعين عامًا فترة تبدو طويلة في عمر الأفراد، وحتى في عمر الحركات السياسية: لا ينتظر التاريخ أربعين عامًا أيضًا من دون عقاب، لأن الشعوب، أي «الناس» هم الذين يدفعون ثمن هذا التأخير المتراكم. وأعلن الشيخ حسن يوسف، وهو السلطة الدينية الرئيسة لـ «حماس» في الضفة الغربية والمرشح لانتخابات كانون الثاني/ يناير 2006، وكان قد خطفه الإسرائيليون عشية الانتخابات وسجنوه حتى عام 2011، صرّح قبل اختطافه بوقت قليل: «من الأكيد أننا إذا كنا نرضى بدولة فلسطينية ضمن حدود 1967، فإن هذا يعني أنه يوجد في الجهة الأخرى شيء ما!». نسمع هنا ما يشبه الصدى لقرار المجلس الوطني الفلسطيني، وهو برلمان منظمة التحرير الفلسطينية في المهجر الذي نصّ في حزيران/ يونيو 1974 على أن منظمة التحرير «سوف تقيم السلطة الوطنية الفلسطينية على كل جزء أو قطعة من الوطن يتمّ تحريرها، أو ينسحب منها

العدو في إطار مفاوضات تؤدي إلى تسوية»[36]. هذه المقارنة بمنظمة التحرير، وبالتالي بحركة فتح التي مارست الهيمنة منذ عام 1968، ليست غير وثيقة الصلة بالموضوع؛ لأن الشروط التي طرحها المجتمع المدني للقبول بالنقاش مع «حماس»، ولو أنها صيغت بشكل مختلف قليلًا، كانت هي نفسها التي طُرحت في عام 1975، والتي وضعتها إسرائيل والولايات المتحدة من أجل الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية، وهو الحوار الذي دعت إليه أوروبا، وبتمنيات ورعة، منذ بداية الثمانينيات، مع إعلان البندقية[37].

[...]

(36) يشير الكاتب إلى البند الثاني من البرنامج السياسي المرحلي لمنظمة التحرير الفلسطينية والمعروف باسم برنامج النقاط العشر، ونصه الرسمي ما يلي: «تناضل منظمة التحرير بكافة الوسائل، وعلى رأسها الكفاح المسلح لتحرير الأرض الفلسطينية، وإقامة سلطة الشعب الوطنية المستقلة المقاتلة على كل جزء من الأرض الفلسطينية التي يتم تحريرها. وهذا يستدعي إحداث المزيد من التغيير في ميزان القوى لصالح شعبنا ونضاله»، وبالتالي، لم ترد في النص عبارة «أو ينسحب منها العدو في إطار مفاوضات ...إلخ». إنما المعنى كان موجودًا في سياق النقاط العشر ثم في قرارات لاحقة للمجلس الوطني الفلسطيني. (المحرر)

(37) إيلان هاليفي: اتفق حينها كيسنجر مع إيغال آلون، وزير الخارجية الإسرائيلي، على أن الولايات المتحدة تعلن رفضها لكل اتصال وكل حوار مع منظمة التحرير الفلسطينية ما دامت هذه الأخيرة لم تتخل بعدُ عن الإرهاب، ولم تعترف بإسرائيل ولم تقبل بقرار مجلس الأمن 242. وكان الاثنان يظنان حينذاك، مثل غالبية المراقبين والمحللين الذين يدّعون أنهم على اطلاع جيد، أن تلك هي شروط مستحيلة عند منظمة التحرير لأن تركيبتها وأيديولوجيتها وأهدافها كانت جميعًا لا تتلاءم مع هذه الشروط. كان ذلك إذًا أمرًا متفقًا عليه: تبقى منظمة التحرير خارجًا، ويصبح تدميرها شرعيًا، لكن يصبح كذلك ضروريًا من أجل الوصول إلى اقرار السلام. هذا ما عناه إعطاء واشنطن الضوء الأخضر لشارون في عام 1982 لاجتياح لبنان. لكن، وفي كانون الأول/ ديسمبر 1988، أكّد عرفات في جنيف أن منظمة التحرير قبلت هذه الشروط ووافقت عليها، وكان ذلك بعد مضي عام على الانتفاضة، وبعد إعلان الاستقلال الذي اعتمده المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر في 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1988. وكان هذا بعدما نقلت الأمم المتحدة الجمعية العمومية إلى جنيف لأن الولايات المتحدة كانت ترفض إعطاء رئيس منظمة التحرير تأشيرة دخول. وردّ الرئيس ريغان لدى سؤاله في المساء نفسه: «ما عاد لدينا خيار، سوف نفتح الحوار مع منظمة التحرير!». وعلى مستوى آخر، أخذ يتسحاق رابين علمًا على طريقته، وهو الذي كان سيوقع أول اتفاق إسرائيلي - فلسطيني في التاريخ، بقدرة منظمة التحرير على التحول أو على تغيير خطابها. وفي أثناء مقابلة مع الصحافة الإسرائيلية، عند الانتفاضة الأولى، سألت الصحافية وزير الدفاع رابين عن عجز الاستخبارات الإسرائيلية، التي لم تتوقع الانتفاضة، فأجاب الجنرال الوزير: «كيف كان يمكن أن نتخيل، بعد أعوام من الإرهاب، أن منظمة التحرير الفلسطينية ستختار فجأة حراك الجماهير؟ لم تتوقع منظمة التحرير ذلك أيضًا، وقد احتاجوا إلى ثلاثة أيام قبل أن يفهموا ذلك وأن يتكيفوا معه!».

في عام 1988، طُلب من منظمة التحرير التخلي عن الإرهاب. وفي عام 2006، طُلب من «حماس» التخلي عن العنف - ما لا يشكل اللجوء إلى مفهوم فلسفي خالٍ من كل مضمون قانوني محدد فحسب، بل يمثل كذلك فضيحة عندما لا يقابله طلب مماثل من الجهة الإسرائيلية التي تمارس خلال هذا التاريخ كله عنفًا غير محدود ومتخفٍ بمقولة الدفاع الذاتي والوقاية، لكن له كذلك أهدافًا معلنة ومحددة للاستيطان ولسلب الأراضي والممتلكات. إذًا، ارتفع هكذا مستوى الضرورات. ومع ذلك، كانت الهدنة على المدى الطويل ترد عمليًا على هذه الضرورة، لأنها لم تكن تتعلق بالعمليات الإرهابية فحسب، لكن بكل أشكال العمل المسلح.

إن «حماس» أصبحت مدعوة اليوم إلى الاعتراف بالاتفاقات الموقّعة (أوسلو وما بعدها). وقبل ثلاثين عامًا، كانت منظمة التحرير الفلسطينية مدعوة إلى الاعتراف والقبول بقرار مجلس الأمن الدولي 242[38]، الذي لم يكن يشير حتى إلى الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني. وفي عام 1988، توصلت منظمة التحرير إلى ذلك حين أعلنت استقلال الدولة الفلسطينية على قاعدة قرار الجمعية العامة رقم 181، أي على قاعدة قرار تقسيم فلسطين في عام 1947. لكن المزايدات ما لبثت أن تصاعدت: طُلب من «حماس» أن تعترف من الآن فصاعدًا بـ«حق إسرائيل في الوجود». لكن ليس في القانون ما يسمّى الحق في الوجود؛ بل إن الدول، ووحدها الدول، يتوجب عليها الاعتراف بوجود دول أخرى، بحدودها، بسيادتها، بأمنها، وباحترام قرارات القانون الدولي ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة.

---

(38) جرى التصويت على القرار 242 في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر 1967، وقُبل بالإجماع، بعد حرب 1967. وهو مرجع لجميع القرارات المعتمَدة في شأن المسألة الإسرائيلية - الفلسطينية، وهو ينص على الانسحاب من الأراضي المحتلة، ويعتبر هذا المبدأ الوسيلة لإنجاز سلام دائم يؤمّن سلامة الجميع، ويذكر أيضًا حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين. كان نص هذا القرار موضوع تحليلات كثيرة وتفسيرات، لأن كانت هناك، بحسب صيغته الرسمية بالفرنسية، مسألة «انسحاب القوات العسكرية الإسرائيلية من الأراضي التي احتلت في أثناء النزاع الأخير»، في حين أنه في صيغته الرسمية بالإنكليزية، يبقي الغموض مسيطرًا في صوغ كلمة الأراضي من دون «الـ» التعريف (من أراضٍ احتُلت، لا من الأراضي التي احتُلت):

«Withdrawal of Israel armed forces from territories occupied in the recent conflict».

أما الصيغ الرسمية بالإسبانية والعربية والروسية والصينية (وهي لغات رسمية أخرى في الأمم المتحدة، فتستعيد معنى النص بالفرنسية).

لكن حق إسرائيل في الوجود فريد في نوعه، حيث الاعتراف بها ليس مطلوبًا بأي حال. وفي الواقع، ليست هذه المطالبة إلا على المستوى الأيديولوجي فحسب: المطلوب جعل الفلسطينيين يقولون إن النضال الذي خاضوه من أجل حقوقهم الوطنية منذ بداية الانتداب البريطاني كان إجراميًا ومناقضًا للقانون.

يستحضر الطلب من «حماس» أن تلغي ميثاقها التأسيسي إلى الأذهان تلك الحملات التي دامت عقودًا عدة ضد ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية الذي أرسى في عام 1964 مشروع «تفكيك الكيان الصهيوني»، وأضاف إليه في عام 1968 أن ذلك لا يكون ممكنًا إلا بالنضال المسلح.

في عام 1996، وفي أثناء الدورة الأولى للمجلس الوطني الفلسطيني التي جرت في غزة، وكانت بالتأكيد «مستقلة»، لكن ما زالت محتلة، جرى إلغاء البنود المتنازَع فيها في الميثاق بشكل رسمي، عبر تصويت أكثرية ساحق[39]. مع ذلك، اعتمد نتنياهو، وكان عدوًا معلنًا لاتفاقات أوسلو قبل انتخابه، موقفًا يقول إن إلغاء هذه البنود القائلة بتدمير إسرائيل في الميثاق هو باطل وغير مرحَّب به، لأن اللجنة المكلفة بصوغ البنود البديلة من تلك التي ألغيت لم تكن قد أنهت أعمالها. وفي عام 1998، طلب الرئيس الأميركي بيل كلينتون من منظمة التحرير أن تلغي ميثاقها مرة ثانية، وبوجوده، حيث يصبح هذا الإلغاء نهائيًا. وفي 22 كانون الثاني/ يناير 1998، بعث ياسر عرفات برسالة إلى كلينتون مؤكدًا له إلغاء «جميع الأحكام في الميثاق» التي لا تتوافق مع التزام منظمة التحرير الفلسطينية بالاعتراف بإسرائيل والعيش معها بسلام. وفي كانون الأول/ ديسمبر، جاء كلينتون إلى غزة، وعُقد اجتماع غير عادي للمجلس الوطني الفلسطيني أُلغيت البنود المتنازَع عليها في الميثاق، عبر تصويت بالغالبية وبرفع الأيدي. وما عاد أحد يتكلم على الميثاق، لكن «بعد اثني عشر عامًا من إلغائه، لم تصل منظمة التحرير بعدُ إلى درجة أن تكون شريكة لإسرائيل. ويجب الاعتراف بأن التاريخ السابق ليس مشجعًا أبدًا.

---

(39) منذ عام 1989، وبعد اعلان الاستقلال، أكد ياسر عرفات، معتمدًا على حل الدولتين، من باريس، أن «**الميثاق صار قديمًا**»، عبر الرجوع إلى البند 33، المتنازَع فيه. [استخدم عرفات كلمة caduc وهي تعني باطلًا أو مهجورًا (المحرر)]

هنا أيضًا، يجب التفريق بين ما نريده: التقدم فعليًا نحو نهاية الصراع أم إعادة كتابة التاريخ ومطالبة الجهة المعادية اعتماد رواية الآخر[40].

قبل أن نختم هذا التوصيف لـ «حماس» ولتطورها، يبدو لنا من المهم أن نشير إلى أن هذه الحركة تشدد على أن لا علاقة لها مع القاعدة والإرهاب العالمي الحاصل باسم الإسلام. وكما كان إسماعيل هنية يقول: «تعيش حماس والقاعدة في عالمين لا شأن لأحدهما بالآخر»!

من جهة أخرى، ويبدو هذا ذا دلالة، شجبت «حماس» و«الجهاد الإسلامي» الذي يعمل حاليًا وكأنه جناح «حماس» الراديكالي، عمليات خطف الأجانب التي تكررت في الأراضي الفلسطينية منذ صيف 2004: «فمع أن هؤلاء أميركيون أو بريطانيون، فإنهم ضيوف، ونحن نرحب بهم عندنا!».

[...]

خلال عام 2005، اختارت «حماس» المشاركة في الانتخابات التشريعية. وشجعها على ذلك نجاحُها في الانتخابات البلدية، لكن مع تأكيدها رفض اتفاقات أوسلو، وهذا تناقض أساسٌ، وهو في قلب المأزق الحالي، لأن العملية الانتخابية تنبع من هذه الاتفاقات بشكل مباشر ورسمي. دفع حجم الانتصار من جهة، والمقاطعة من المجتمع الدولي من جهة أخرى، بـ «حماس» إلى التصلب في مواقفها، ووضع الشروط النفسية للمواجهة مع «فتح»، التي لم تساعد طموحاتها الخاصة ومحاولاتها الانقلابية على تصحيح الأمور. هذا الأمر وصل إلى درجة استعمال القوة، بل تنفيذ انقلاب على السلطة، في قطاع غزة، مرفقًا بأعمال عنف واغتيالات. ويسجل هذا التصرف علامة فارقة في فقدان الحركة لشعبيتها، وهو عملية لاحظها المراقبون كافة، وساهمت في تدعيم آمال «فتح» في انتخابات مبكرة. لكن، وكما كتب الصحافي الإسرائيلي داني روبنشتاين في الجريدة اليومية **هآرتس** في السابع من آب/ أغسطس 2007، عن التصورات الدبلوماسية التي أتاحها الاقتراح الأميركي لمؤتمر إقليمي، «لا تكتمل اللعبة من دون حماس».

---

(40) بما يخص المواثيق، من المهم الإشارة إلى أن الليكود لم يلغ إلا في عام 1999 بنود ميثاق الحيروت الذي كان قد ورثه، والذي يقول بإنشاء دولة يهودية على ضفتي نهر الأردن، داعيًا بذلك إلى احتلال الأردن. [الحيروت Lochmei Heruth Israel هي المنظمة الإرهابية التي تسمى أيضًا شتيرن]. (المحرر)

من المؤكد أن «حماس» هي الحركة الأقل دينية من جميع الحركات الإسلامية. وخلافًا لجماعة الإخوان المسلمين المصرية، وهي المدرسة الأم، فإن «حماس» لم تنتج إلا نثرات من اللاهوت السياسي ذات طابع أصيل: **الجهاد** بوصفه واجبًا فرديًا، هو مفهوم قُدِّم في أغلب الأحيان وكأنه مساهمة أصيلة من الشيخ أحمد ياسين في الفكر الإسلامي المعاصر، لكنه موجود بكل وضوح في كتابات سيد قطب[41] الذي أمضى نصف حياته في السجون المصرية قبل أن يُعدم شنقًا في عام 1966. من ناحية أخرى، يمكن اعتبار فكرة أن فلسطين **وقف** فكرة جديدة. كذلك، ومنذ حوالى عشرين عامًا، فإن استدعاء مفهوم الهدنة، وربما لمدة طويلة، هو فعليًا مفهوم مستوحى من الشيخ ياسين، ويمكن اعتباره تجديدًا. مع ذلك، اكتفت الحركة، في الأساس، بأخذ مواقف قومية (قومية متطرفة) واجتماعية (محافظة متطرفة) باسم الإسلام. وتبقى إحدى الحركات الأكثر تسيسًا في الحركات الإسلامية، وهي ليست عالمية ولا معولمة، بل فلسطينية مئة في المئة: قومية على نطاق صغير، ريفية، مأخوذة بالنقاش الداخلي، ومسحوقة، مثل أي فئة ترزح تحت الظروف الناجمة عن الاحتلال[42].

في النتيجة، أتت «حماس»، شأنها شأن منظمة التحرير، من بعيد، وسوف تذهب بالتأكيد بعيدًا في المجتمع والسياسة الفلسطينيَّين، على أمل أن نتركها نحن والمجتمع الدولي على قيد الحياة؛ **أولًا** لأن محاولة «القضاء» على هذا النوع من الحركات سوف يدفعها نحو الدعوة إلى الاستشهاد، وإلى العمل السري والإرهاب، ولا يمكن لهذه المحاولة إلا أن تفشل. وهي، **ثانيًا**، محاولة ستفشل لأن القول المأثور الثوري القديم الذي يفترض أنه لا يمكن أن توجد

---

(41) كان سيد قطب شاعرًا وكاتبًا وناقدًا أدبيًا مصريًا، قبل أن يصبح عضوًا في جماعة الإخوان المسلمين من دون أن يشارك في نشاطها السياسي. حكم عليه بالسجن مرات عدة، ومن ثم أُعدم بأمر من [الرئيس المصري جمال] عبد الناصر في آب/ أغسطس 1966.

(42) إيلان هاليفي: هذا ما يوضحه تمامًا مثال مدينة قلقيلية، حيث فازت «حماس» بالبلدية قبل الانتخابات التشريعية بشهور عدة. ولم يكن المجلس البلدي الجديد قادرًا على مقاومة الضغط الاجتماعي، لذلك قام بتوظيف المقربين وأقرباء القيادة المحلية في الحركة. وبما أنه لم يكن يريد مطاردة المعارضين له، فإنه لم يصرف جماعة «فتح»، ما ضاعف عدد الموظفين، ولم يبق مال للخدمات العامة. وكانت نتيجة ذلك أنهم خسروا في الانتخابات التشريعية في قلقيلية في عام 2006.

حرية لأعداء الحرية قد برهن على محدوديته، كما أظهرت ذلك انتصارات نابليون منذ قرنين؛ فالديمقراطية المسلمة التي هي بالنسبة إلى الإسلام مثل الديمقراطية المسيحية بالنسبة إلى الديانة المسيحية، هي البديل المباشر من التعصب وعدم التسامح والعنف السياسي. واليوم، فيما «حماس» و«الجهاد الإسلامي» الفلسطيني يحتلان معًا الساحة الإسلامية في فلسطين، ما عاد هناك مكان لمجموعات القتلة أمثال «القاعدة». هذا، يفترض أيضًا، وعلى الرغم من ذلك، المحافظة على المساحة التي نستطيع فيها الاستمرار في محاربتهما، أو على الأقل في معارضتهما عبر تقديم مشروع مختلف عن مشروعهما، مع الاعتراف بحقهما في النقاش.

في أمكنة أخرى

يمكننا ذكر حالات مختلفة، على طول بلاد العالم العربي الإسلامي وعرضها، تبرهن عن أن أفضل طريقة لمحاربة الأصولية الإسلامية خارج الوضع الشرس هي ترك الأصوات السياسية النابعة من الحركات الدينية تعبِّر عن نفسها، داخل اللعبة الديمقراطية، وأن حالة الحزب الحاكم في تركيا جديرة بالاهتمام: هذه الحركة السنّية المنبثقة من الإخوان المسلمين ركّزت التعاون العسكري مع إسرائيل واليونان ودعّمته، واقترحت نفسها وسيطًا بين إسرائيل والفلسطينيين، وكذلك بين «حماس» و«فتح». يضاف إلى ذلك أنها لم تتراجع عن رغبتها في إدخال تركيا إلى الوحدة الأوروبية، حتى إنها قامت في سبيل هذه الغاية بإلغاء حكم الإعدام، لكن الأمر الوحيد الذي بقي غير واضح هو المسألة الكردية[43].

[...]

(43) كتبت هذه السطور قبل فترة طويلة من التطورات الأخيرة في المنطقة الكردية، حيث غيَّرت المواجهات مع تنظيم داعش معطيات المعادلة التركية. وكان الكاتب قد قال حينها: «إن الأنموذج التركي ليس نقيض القاعدة فحسب، بل إن حزب العدالة والتنمية (PJD) متعلق كذلك بتعدد الأحزاب وبالديمقراطية البرلمانية. باختصار، هو حزب يشبه بشكل كبير المرادف المسلم للأحزاب الديمقراطية المسيحية في أوروبا الغربية».

هناك حالات توضح هذا التأرجح بين السياسة والقطيعة الجذرية مع النظام ومحاولة الانزلاق إلى حرب الحضارات. هذا هو مثال حركة التوحيد (حركة التوحيد الإسلامية) الطرابلسية (لبنان) التي اختفت تقريبًا اليوم، وجبهة الخلاص الإسلامية في الجزائر التي أوقعت بها المؤامرات، وكانت رهينة أطرافها وسجينة مماحكتها، ومثال حركة الإخوان المسلمين في مصر وعدد كبير من التنظيمات التي انبثقت عن تشتتها منذ **الوفد** الجديد حتى **التكفير والهجرة**، مرورًا **بالجماعات الإسلامية**.

أما ليبيا في عهد القذافي، وعلى الرغم من ادعاءتها الإسلامية، فإنها كانت استبدادية - شنّع بها في الأمس، ثم دلّلها الأوروبيون - وهي قائمة على نظام قبلي، أما خطابها الديني فيلامس الإلحاد في ما يتعلق بموضوعات كثيرة. مع ذلك، يجب التذكير بأن الدكتاتور الليبي قاد، وخلال أعوام عدة، «الفيلق الإسلامي العالمي»[44] الذي سمح له بالتدخل في الحرب الأهلية في تشاد - التي كانت تراجيديا دارفور ردة فعل عليها.

في المملكة العربية السعودية، حيث الملكية الحاكمة الحارسة للمكانين المقدسين (الكعبة في مكة ومسجد المدينة، حيث دُفن النبي) تنادي بإسلام وهابي متزمت ومحافظ، لا تظهر الحركات المعارضة بشكل علني، وهي ترتكز إلى حد ما على انقسامات قبلية ومناطقية، إلا إذا طاولت أساسًا الأيدي العاملة المهاجرة، المصرية واليمنية بشكل رئيس. لكن المملكة كانت، على مدى عقود عدة، الحاضنة لإسلام «مناضل»: من المؤكد أن السلطة بعيدة جدًا عن أشكال «لاهوت التحرير» التي تستوحي منها الحركات الراديكالية، إلا أنها مع ذلك متشددة في المحافظة، شرسة في عدم التسامح، بعيدة عن التواضع في الرخاء الذي يؤمّنه لها وجودها حارسة لآبار النفط الأميركية. في داخل هذا الوسط من العائلات الملكية السعودية، الحديثة الثراء بفضل هذه الثروة النفطية التي تُباع وتحصل هذه العائلات

---

(44) إيلان هاليفي: في عام 1983، شارك فريق من المقاتلين التشاديين من هذا الفيلق الذي بعث به القذافي، في حصار مدينة طرابلس اللبنانية مع المنظمات التابعة لسورية: وكان قد قيل لهم إنهم مرسلون من أجل تحرير فلسطين! وحين وجدوا أنفسهم أمام ياسر عرفات، وأدهشهم أنه «سبقهم إلى القدس - أي وصل إليها قبلهم -» فهموا عند ذلك أنهم في لبنان!

منها على نسبة مئوية، وُلد أسامة بن لادن - وهو واحد منها، في الزمن الذي كان فيه الحليف والعميل، المحمي والمنفذ لنشاط واشنطن العظيمة والخسيسة في أفغانستان. ومما لا شك فيه أن عائلته الخاصة، وربما عائلات أخرى كذلك، حافظت مع هذه (أي واشنطن) على أشكال عدة من العلاقات، بما فيها العلاقات المالية واللوجستية، وهذا ما استثمره المحافظون الجدد الذين كانوا يفضّلون احتلال السعودية، وطرد حماة النفط، وحتى سجن بعض منهم في غوانتانامو أو في أي مكان آخر، بحجة التواطؤ مع الإرهابيين ووضع أماكن الإسلام المقدسة (ومعها آبار النفط) تحت الحماية الأميركية. وسوف تؤمِّن هذه المظلة عقودًا عدة من حرب الحضارات، وهذا تصور مستقبلي مثير للصناعة العسكرية في الولايات المتحدة، والسبيل الوحيد لتجاوز الأوروبيين والآسيويين!

في بلاد الخليج العربي، المحكومة كذلك من سلالات قبلية ذات خطاب متزمت في شأن الدين، تكون الفرضيات السياسية كلها، من الأكثر محافظة حتى الأكثر معارضة، إسلامية. وبما أنها جميعًا إسلامية، وإن بقدر متفاوت بين واحدة وأخرى، فإنه ليس لديها مساحة لحركة سياسية «إسلاموية»، أي حركة تواجه الإسلام بـ «جاهلية» السلطة. وفي مجموع بلدان الخليج، مع ذلك، تتميّز الانقسامات السياسية بوجود توتر إلى حد ما بين السنّة والشيعة، وذلك من دون الحديث عن التناقض الاجتماعي الأساس الذي يضع الوطنيين في مواجهة الغرباء، العمال المصريين أو اليمنيين، والمسلمين الذين لا يتكلمون العربية، مثل الإيرانيين، أو حتى غير المسلمين، مثل الخدم السريلانكيين أو الفليبينيين.

في العراق، حيث استُبدلت ضراوة النظام الدكتاتوري ووحشيته بالفوضى والإرهاب الأعمى، لا يعود للحديث عن الإسلاموية أي معنى؛ فالأحزاب والقوى المنخرطة من الجهتين في العنف الناتج من عملية تدمير الدولة والاحتلال الأميركي - البريطاني تعلن كذلك انتماءها إلى الإسلام. من جهة، تنظيم «القاعدة»[45]، وهو دائمًا على موعد حيث تكون الولايات المتحدة، يشوِّه سمعة المقاومة الوطنية ويسيء إليها عبر إفساد صورتها من خلال جرائم شنيعة ومنفرة:

(45) يجب الإشارة هنا إلى أن كاتب هذه السطور، المتوفى في تموز/ يوليو 2013، كان قد كتب هذا قبل ولادة تنظيم داعش - الدولة الإسلامية في العراق والشام.

قطع رؤوس الرهائن الغربيين مع تصوير ذلك [فيديويًا]، قنابل في المساجد الشيعية والأماكن العامة. من جهة أخرى، تغطي القيادة الشيعية مساحة عامة بدءًا من الشراكة غير الرسمية مع المحتل (حالة آية الله السيستاني)، إلى المناداة بالمقاومة (حالة الإمام مقتدى الصدر)[46]. ويدور كلاهما حول مدار المركز الإيراني للشيعة. وتبدو الأوراق، هنا، مختلطة إلى درجة أن البيت الأبيض شارك مؤخرًا في مؤتمرين مع الإيرانيين والسوريين عن الأمن في العراق[47]. هذا كله يترافق مع تكثيف حملته على إيران، وذلك في ما يخص برنامجها النووي وكذلك تصريحاتها المعادية لإسرائيل وتصريحات أحمدي نجاد الناكرة المحرقة.

في أفغانستان، سمحت وحشية الاحتلال لحركة طالبان، على الرغم من وحشيتها والمصائب التي ابتلي بها الشعب الأفغاني تحت حكمها، بتجميع قبائل مختلفة حولها، وبتأمين، حتى بفعل الترهيب، نوع من حيادية السكان. هكذا، فإن مقاتليها يخوضون معارك حاليًا لاستعادة السلطة في البلاد كلها، مرتدين ثوب المقاومة الوطنية. ومن المهم الإشارة إلى أن هناك منذ عام 2007 خلافًا دائمًا بينهم وبين تنظيم القاعدة. هكذا، وفي حين أن «طالبان» تبحث مع النظام الباكستاني عن **تسوية مرْضية للطرفين** ضمن استراتيجيا وطنية، تجري حوادث تجعلها في كثير من الأحيان في مواجهة مقاتلي «القاعدة» الغرباء الذين يدعون إلى قلب الأنظمة المسلمة الموجودة، ويتهمونها بالإلحاد.

أما باكستان، فهي ثاني أكبر دولة إسلامية في العالم من حيث عدد السكان[48] وأول دولة إسلامية تحررت من الاستعمار في التاريخ الحديث، وعنصر مركزي في هذه الخريطة المتشابكة، أولًا، على صعيد المفاهيم؛ لأن العالم اللاهوتي السيد أبو الأعلى المودودي (1903-1979) هو المؤسس الروحي لباكستان كدولة إسلامية، وهو الذي قال بنظرية استحالة أن يعيش المسلمون في دولة غير إسلامية، وكان تأثيره مهمًا في العالم العربي، خصوصًا في الإخوان المسلمين

---

(46) هو سيد أو علّامة أو حجة الإسلام، وليس إمامًا بحسب المعايير الشيعية العراقية. (المحرر)

(47) تبيّن المفاوضات الحديثة بين طهران وواشنطن البراغماتية القائمة؛ فالضربات الجوية ضد داعش يقودها الإيرانيون.

(48) بعد إندونيسيا وقبل الهند.

في مصر. وأصبحت كتاباته المترجمة من الأوردو مرجعًا أساسًا لسيد قطب. لكن تأثير المودودي خارج الهند لم يبدأ بالظهور إلا بعد تقسيم البلاد في عام 1948[49]، وبعد هجرة المسلمين الهنود الكثيفة نحو الدولة الجديدة. وليس من قبيل المصادفة البتة أن يحصل تقسيم الهند وتقسيم فلسطين في الفترة نفسها، حتى ولو كانت الأبعاد والتركيبات تختلف كليًا بين هاتين المأساتين اللتين حدثتا في وقت واحد وتحت بصر السلطة الاستعمارية المتواطئة إياها، أي السلطة البريطانية. وكانت الأدوار، هنا، مقلوبة: إنهم المسلمون، وتحت رعاية محمد علي جناح، هم من طالب بالتقسيم، بينما رفضته الأكثرية الهندوسية التي كان حزب المؤتمر يمثلها باسم الهند الحديثة والمتعددة الديانات، وذلك في الوقت الذي كانت المجازر الطائفية والهجرة الناتجة منها تجعله حتميًا. مع ذلك، وحتى لو كان كلا الطرفين يشجب التقسيم، فإنه لم يخضع عمليًا لإعادة نظر. وقد تركز الاستياء المتراكم على مسألة إقليم كشمير، وهو منطقة موضوعة في غالبيتها تحت الحكم الهندي في ما تطالب باكستان بضمها إليها. ومع أن سكان كشمير هم من المسلمين وأن بعض الحركات التي تقاتل من أجل استقلالها ارتكبت عمليات إرهابية عدة في الهند بالذات، فإن الانقسام هنا هو إقليمي؛ فالإسلام بحد ذاته ليس له أي ضلع في ذلك. وباكستان، وهي جزء اقتُطع بشكل عشوائي عن الإمبراطورية البريطانية في الهند الغربية، هي فسيفساء من اللغات والإثنيات والجماعات الدينية المختلفة، ويشكل المسلمون الأكثرية الساحقة فيها، لكنهم ليسوا سكان البلد كله. وتؤكد الدولة، منذ تأسيسها، أنها إسلامية، وأنها دولة جميع مواطنيها، بمن فيهم غير المسلمين - وهذا أيضًا تشابه (معكوس) مع إسرائيل.

إلى جانب الهندوس والسيخ والبارسيين[50] والمسيحيين والبوذيين، فإن

---

(49) التقسيم وقع في عام 1947 لا في عام 1948. (المحرر)

(50) البارسيون مجموعة عرقية دينية يتركز وجودها في السند وغجارات. وهم يمثلون جزءًا من الزرادشتيين الذين يعيشون في شبه القارة الهندية. على الرغم من أن أصول البارسيين في الهند ترجع إلى بلاد فارس، فإنهم فقدوا صلاتهم العائلية والاجتماعية. وكثيرون لا يشاركون الفرس الإيرانيين اللغة والتاريخ الحديث، بل تكاملوا مع المجتمع الهندي، لكنهم حافظوا على عادات وتقاليد خاصة بهم، وهذا ما جعلهم متميزين دائمًا من المجتمع الهندي؛ فهم هنود من ناحية الانتماء القومي - من خلال اللغة والتاريخ - لكنهم ليسوا هنودًا خالصين من ناحية صلة الدم. كما أنهم مختلفون من ناحية الممارسات السلوكية والثقافة والدين. (المحرر)

مسلمي باكستان مقسومون إلى سنّة وشيعة من مدارس مختلفة، اثني عشرية كما في إيران، لكن كذلك إلى إسماعيليين، من دون أن ننسى **الأحمدية** (وهي فرقة إسماعيلية من الشيعة سوف تنشر، بشكل خاص في أفريقيا، نشاطًا تبشيريًا واسعًا)[51].

منذ بداية الحرب الباردة التي عاصرتها ولادة باكستان، أصبح هذا البلد نقطة مركزية في استراتيجية واشنطن؛ فهو، من جهة، عملاق توازي قوته قوة الهند، التي لم يكن الحلف الأطلسي يحبذ لديها عدم الانحياز ولا علاقتها المميزة بالاتحاد السوفياتي. من جهة أخرى، هو مركز انتشار لإسلام محافظ يعتبره الخبراء الأميركيون حليفًا أساسيًا ضد الشيوعية. وسرعان ما وضعت الدكتاتورية العسكرية وعمليات قمع التيارات الديمقراطية البلاد تحت الوصاية العسكرية الأميركية. كان هذا، تحت غطاء مقاومة الإمبريالية السوفياتية، وادعاء خطر التهديد الهندي، والتركيز المَرَضي على الكشمير. ومع الاجتياح والاحتلال السوفياتيين لأفغانستان، في نهاية السبعينيات، أصبح هذا الدور عاملًا رئيسًا، وأصبحت باكستان في الوقت الذي استقبلت فيه، من دون حماسة، تدفق ملايين النازحين الأفغان، البلد الخلفي للمقاومة الأفغانية؛ قاعدة خلفية، قاعدة تدريب، مكان تجنيد. وصارت هي المكان الذي يتلاقى فيه المتطوعون الأجانب الذين تحولوا إلى أشرار بعد أن اعتُبروا مناصرين أبطالًا، ومقاتلين من أجل الحرية ضد إمبراطورية الشر وعسكرها!

تُعَدّ إثنية البشتون شبه أكثرية، ومسيطرة بشكل واضح في تاريخ أفغانستان، لكن في باكستان المجاورة، يتجاوز عدد أفراد البشتون أولئك الذين يعيشون في أفغانستان نفسها. ومذ ذاك الحين، كبر دور باكستان عندما نقلت واشنطن البندقية من كتف إلى كتف قبل نهاية الاحتلال السوفياتي والحرب الباردة، وسوف تسهر على الظهور السريع لطلاب طلابها: حركة طالبان.

(51) لا علاقة للأحمدية أو القاديانية بالشيعة الإسماعيلية أو بغيرها من الشيعة، فهي نبتت من المجتمع السني البنجابي، وصارت ديانة مستقلة منذ أن ادعى مؤسسها ميرزا غلام أحمد أنه نبي جديد، وأنه المسيح الموعود والمهدي المنتظر. (المحرر)

هكذا، صار المثلث: المملكة العربية السعودية - باكستان - أفغانستان تاريخيًا في مركز الصناعة الأميركية لما سمّي «الفاشية الإسلامية»؛ هذه «الإسلامويات» الدموية التي تحركها الدول، والمنتجة بلا ملل لصور لا تُحتمل ولخطابات مقززة عمدًا. ومما لا شك فيه أن تمرد تنظيم «القاعدة» المزعوم على أسياده القدماء بدأ داخل الفرع الباكستاني لوكالة الاستخبارات الأميركية، كما تسرب إلينا قليل من المعطيات عن إطلاق نار غريب على باب الوكالة، في لانغلي في عام 1992، تورط فيها عميل باكستاني سابق. ويبدو الأمر منطقيًا ومحتومًا في آن معًا، نظرًا إلى تورط أجهزة الأمن الباكستانية، منذ عشرات السنين، في العمل تحت إمرة سياسة واشنطن، وعدم قدرتها المتوقعة على متابعة هذه السياسة في أعقاب الحرب الباردة، وبعد منعطفها الكبير نحو رهاب الإسلام؛ فتسريح كثير من البحارة لا يمكن إلا أن يؤدي إلى تحوّل بعضهم إلى قراصنة. فهل كان ذلك لحسابهم الخاص؟ أم لحساب آخر؟ من هو؟

[...]

جاءت **الفتوى** ضد سلمان رشدي، في ذلك الوقت، من باكستان، وكذلك القنابل في المساجد، في الأسواق... كل ذلك بدأ في باكستان قبل أن يصبح الحقيقة اليومية في العراق. وفي عام 2008، طرد البيت الأبيض برويز مشرّف الذي كان تحت حمايته، والذي لم يتوصل إلى نتائج كافية في حربه ضد الإرهاب في باكستان.

غير أن من الملاحظ أن عددًا كبيرًا من الجماعات الهندو - باكستانية في المهجر - في الأميركيتين، في الكاريبي، في أفريقيا الشرقية والجنوبية، حيث الانتساب «الثقافي» للإسلام يكون أكثر قوة ليشكل علامة تفعيل للهوية - لا يُظهر أي نشاط إسلاموي محلي أو عالمي. علينا أن نستثني هنا المملكة المتحدة، حيث يشكل الهندو - باكستانيون أكبر عدد من المهاجرين[52]. لكن حتى هناك، فإن العلاقات مع الإرهاب تمر عبر باكستان أو عبر شبكات غير مزروعة بشكل منتظم داخل الجماعات المحلية.

---

(52) بمن في ذلك اللاجئون، أمثال الذين هربوا من أفريقيا الشرقية منذ السبعينيات.

في الهند، حيث «الأقلية» المسلمة تبقى ثالث جماعة مسلمة في العالم من حيث عدد أفرادها، لا نشاهد، في أول وهلة، أي دينامية سياسية - دينية يمكن أن نقاربها بوهم الإسلاموية. وقد عرفت الهند لائحة طويلة وراعبة من الهجومات الإرهابية والاغتيالات السياسية، قامت بها مجموعات سياسية عدة، إثنية وإقليمية وحتى طائفية. لكن من قتل غاندي كان قوميًا هندوسيًا، في الوقت الذي كان هذا الأخير يدعو الهندوس إلى التوبة بعد مجازر ضد المسلمين. وكان تورط المسلمين في هذا التاريخ الطويل من العنف السياسي قد حصل دومًا باسم صراعات من هذه الطبيعة، مثل قضية كشمير. ولا حاجة إلى القول إن نسب كثير بين الجماعات لا تسمح لمسلمي الهند بأن يحلموا بهند مسلمة.

أما إندونيسيا، وهي أكبر البدان الإسلامية سكانًا في العالم؛ إذ إنها تضم وحدها عددًا من المسلمين يفوق عددهم في جميع أنحاء العالم العربي، لم تترك السلطة فيها، وهي التي نتجت من سلسلة انقلابات عسكرية، مساحة لحياة ديمقراطية فعلية منذ عمليات القمع الرهيب في الستينيات. أما الخطاب الديني الذي تعتمده الدولة لفظيًا لتعزيز شرعيتها، فهو يعكس إسلامًا «هادئًا» وواثقًا بنفسه على نحو كاف، حيث لا يبدو متشنجًا، أو كأنه تحدٍ. ولم يكن الطرد الكثيف للصينيين أو للإندونيسيين المتحدرين من أصول صينية، وقد حدث بعد القمع المضاد للشيوعيين في عام 1965، جاريًا باسم الإسلام، بل باسم القومية الإندونيسية، حيث بدت التجارة الصينية غير متلائمة مع الثقافة المحلية. هنا أيضًا، ومع ذلك، استطاع الإسلام المضاد للشيوعية والمصنوع في الولايات المتحدة وشبكاته العريضة من الزبائن التي كان يمولها النفط، أن يُزرع وينمو وقتًا طويلًا. وقد كان لوقت ما عرضة للمنافسة والتعارض والابتلاع من إسلاموية العقيد القذافي العابرة القوميات. وهذا الأخير أنفق بسخاء عائدات النفط الليبي على مجموعة من الحركات والجمعيات والمؤسسات. انقلب بعضهم وانضم إلى تنظيم «القاعدة»، كما حصل في الفيليبين، حيث لا تزال حركة عصابات مسلحة انفصالية من الأقلية المسلمة مستمرة منذ نصف قرن[53].

---

(53) جبهة المورو - الإسلامية للتحرير (MILF) هي الجماعة الأساسية من المتمردين المسلمين، =

في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، حيث الإسلام في انتشار منذ قرن، متأقلمًا مع الأوضاع المحلية، كما بيَّن ذلك فانسان مونتاي في كتابه *L'Islam noir* **(الإسلام الأسود)** المنشور في عام 1971[54]؛ فالحروب الأهلية في التشاد، كذلك مجازر دارفور التي كانت تحاول السير غير المؤكد نحو التعريب، في بلد مسلم، كانت نتيجة حسابات دول وتدخلاتها، وعلى سبيل المثال فرنسا وليبيا في التشاد، ليبيا والسودان في دارفور.

في السنغال، تبدي أخوية المريدين الذين يعتمدون خطابات وممارسات بعيدة كل البُعد عما يمكن أن نسميه الإسلام الكلاسيكي، والذين ورثوا ديانتهم عن المؤسس أحمدو بمبا، قسطًا جيدًا من **الاجتهاد** المبتكر، وتكوِّن دولة داخل دولة، وقوة اقتصادية تعاونية وعنصرًا من المحافظة السياسية والاجتماعية السلمية. وسمحت الهبات السعودية والمساعدات المالية من بلدان الخليج الأخرى بنمو نسيج ثقافي وتربوي وخيري على مدى طويل، ما ساهم بتعزيز إسلام رسمي أقرب إلى التسامح وغير معارض، وقادر، كما في مالي أو النيجر، على مجاورة الوجود المتجذر لأخويات **التيجانية** أو **القادرية**. بكلمة مختصرة، ثمة كثير من الإسلام، لكن لا وجود للإسلاموية[55].

أما نيجيريا، فلا شك في أنها في هذا السياق حالة منفردة؛ فهي بؤرة عنف سياسي وإجرامي، ومركز ثقل لمواجهات بين الإثنيات تتكرر، ولم يكن للإسلام فيها أي دور ظاهر على امتداد فترة طويلة. وتعطي التركيبة الفدرالية للدولة استقلالًا قانونيًا واسعًا للمناطق الكبرى وللشمال (الهوسا والفولاني)، وتقطع في قسم كبير

= وعددهم 12.000 عضو. وفي عام 2012، جرى في ميناداناو توقيع اتفاق جمع المجموعات الانفصالية كلها. ومن الجدير بالذكر أن هذه الجبهة ما عادت تطالب بدولة منفصلة، بل هنأت نفسها على هذا الاتفاق الذي تم في ماليزيا، بعد شهور من المفاوضات، ورأت فيه «بداية سلام».

(54) Vincent Monteil, *L'Islam noir*, esprit. Frontière ouverte, 2ème éd., revue, corr.et augm. (Paris: Éd. du Seuil, 1971).

(55) ترتبط الحوادث الأخيرة في مالي والقطاع السوداني الساحلي (محاولات تحرر، تدخلات عسكرية ...إلخ) بآليات اقتصادية وسياسية مختلفة (فساد، تهريب مخدرات، سلاح، بشر...) تستحق تحليلًا معمقًا، لا يهدف إليه الكتاب الحالي.

السلطنات الإسلامية القديمة في بورنو وكانو وسوكوتو. هنا أيضًا، نشرت الهبات التبشيرية - الباكستانية والسعودية - وجودًا ناشطًا، ودعَّم ذلك عدم التسامح تجاه غير المسلمين، وولَّد أعمال عنف مريعة، خصوصًا ضد النساء، تحت غطاء المحاكم الإسلامية التي أثارت بحق استنكار المجتمع الدولي[56].

في أفريقيا الشرقية، وفي مناطق كانت تاريخيًا معرّضة لتجارة الرقيق باتجاه العالم العربي (أوغندا، كينيا، تانزانيا)، جرى إصلاح الإسلام بألوان مجتمع هزه هذا «الاتصال»[57]، وذلك في الحركة الكبيرة القروسطية لِـ **السواحلية** التي أنتجت اللغة الحاملة لجميع خصوصيات المنطقة. وليست السواحلي لغة مرتبطة بإثنية خاصة، بل «مزيج» عربي - أفريقي. وفي منطقة البحيرات الكبرى، بقيت الأقلية المسلمة، كما في رواندا، على الحياد التام تجاه المواجهات بين الهوتو والتوتسي، معتبرة أنها غير معنية بها.

في الكوت ديفوار (ساحل العاج)، لم تقاوم وسائل الإعلام الأوروبية بشكل عام والفرنسية بشكل خاص، الإغراء بقراءة الحرب الأهلية بوصفها مواجهة بين الجنوب المسيحي الإحيائي والديولا المسلمين الوافدين من الشمال. وجرى تشجيع هذه القراءة الخاطئة عبر اللجوء الرسمي إلى المفهوم المشكوك فيه، أي «الفوارية» (ivoirité)، لإبعاد المرشح الحسن دراماني واتارا[58]، وهو مفهوم[59] يحاكي النيو - بانتووية للدكتاتور السابق موبوتو، تلميذ رجال الدين البلجيكيين والقائد الفكري لمرتكبي المذابح الجماعية في رواندا، وهم من الهوتو. لكن في هذا التدهور في غمرة الصراع على السلطة نحو حرب أهلية، تبدو يد قاتل سانكارا، البروتوس البوركينابي[60]، واضحة في كل لحظة من المرحلة الأولى، قبل أن

---

(56) هنا أيضًا لن نقارب الانتهاكات الأخيرة لطائفة بوكو حرام، التي تستمد جذورها من المصادر الدينية، وكذلك من الأوضاع الاجتماعية - الاقتصادية الداخلية في نيجيريا.

(57) المقصود الاتصال بينه وبين الإسلام. (المراجع)

(58) أصبح رئيسًا للجمهورية في عام 2011. (المحرر)

(59) وضع هذا المفهوم الحسن واتارا في صحيفة *Curdiphe*، الذي كان مقربًا من الرئيس القديم هوفوات بوانييه.

(60) أي بلاز كومباوري. [وبروتوس هو الذي خان قيصر]. (المحرر)

يتخلى عن مركز الصدارة للتدخل الفرنسي وتناقضاته. هذه الحوادث المؤسفة نتجت كلها من عجز الرئيس غباغبو عن السيطرة الفعلية على الأرض. من المؤكد أنه كان مدعومًا من حزب ولِد ونما في المعارضة والنشاط السري، وكان منتميًا إلى إثنية صغيرة في الجنوب وحليفًا عبر الزواج لإثنية أخرى، أصغر من الأولى، فكان إذ ذاك يفتقد قاعدة عشائرية واسعة، فوجد نفسه يواجه رفض نُخب الكوت ديفوار التخلي عن علاقاتها المميَّزة مع سلطة الدولة[61]. وفي هذه الحالة، أخذت هذه النخب التي لا علاقة لها بالإسلام، السلطة السياسية منذ الاستقلال.

[...]

أما الألبان في كوسوفو، كما في البوسنة، فرجوعهم إلى الإسلام يرتبط عندهم بالهوية ارتباطًا واضحًا. هذا هو الأنموذج الإيرلندي، حيث الانتماء الديني يصلح علامةً اعتراف بالهوية الوطنية.

[...]

في باقي أوروبا، هناك مسلمون من أصول غير أوروبية: المغاربة في فرنسا وإسبانيا، الأتراك في ألمانيا، الباكستانيون في بريطانيا، وجميعهم مدموجون في جماعتهم الأصلية. وهناك الأوروبيون الذين اعتنقوا الإسلام، وفي أغلب الأحيان بسبب الزواج، لكن كذلك، وبشكل نامٍ بلا شك، بسبب اقتناعهم. وهذه هي كذلك حال الولايات المتحدة، وطن الأديانٍ والطوائف. ونستطيع مع ذلك أن نلاحظ أن حماسة المستجدين هنا فاعلة: نجد عددًا كبيرًا من معتنقي الإسلام عند المدافعين عن القطيعة والمزايدة. وبعض هؤلاء الأولاد العاقين الذين تشبه مواصفاتهم في أغلب الأحيان مواصفات ضحايا الملل، يقبع اليوم في غوانتانامو أو في سجون أخرى.

---

(61) يجب ألا ننسى أن النظام القديم في الكوت ديفوار كان يدور، وخلال نصف قرن، حول الطاغية «المتنور»، والصارم هوفوات بوانييه الذي لم يكن رئيسًا فحسب، بل كان أيضًا ملكًا بحق إلهي للشعب. وإضافة إلى منصبه هذا، كان أكبر مالك للأراضي والمزارع في البلاد - حيث كان الأنموذج الاقتصادي لدولة الفلاحين قائمًا بشكل خاص على تخمين منتج استثمار الأراضي الزراعية من ديولا الشمال والمهاجرين الغرب - أفارقة.

إن هذا المرور السريع التبسيطي والسطحي، وغير الشامل بالتأكيد، لكن الضروري مع ذلك من أجل تأطير المواقف الوطنية والمحلية المختلفة، لا يطمح إلى الحلول محل دراسة معمقة لأوضاع الإسلام في كلٍّ من هذه البلدان؛ فدراسة لكل واحدة من هذه الحركات، كما عرضنا ذلك في عرضنا لـ «حزب الله» وحركة «حماس»، سوف تلقي الضوء على تنوع وتعدد الديناميات المتناقضة التي تتعلق بها وتحركها. وليس لهذه «الرؤية الجوية» من دالة إلا توضيح الطابع المصطنع في اللجوء إلى تصنيف الإسلاموية، والغموض في الحدود مع الإسلام، لكن وبشكل خاص وزن العوامل والشروط المادية بالمعنى الأوسع (الجغرافيا، التاريخ، الاقتصاد...)، وهو يبرز إلى أي حد تتحول علوم الدين وأيديولوجيات النقض تحت تأثير الواقع، لتولِّد تشكيلات لم تكن متوقَّعة. كما أنه يبرهن عن أن الحركات السياسية التي تنتسب إلى الإسلام، والتي تكون متجذرة في مجتمعاتها، كما هي حال «حزب الله» أو «حماس»، لا يمكن اختزالها بعمليات تلاعب للدول، كما هي حال الجماعات التي تنادي بالحرب العالمية ضد الثالوث: **الصليبية** - والمعني بذلك مسيحيو الغرب، **الصهيونية، الشيوعية**.

الفصل التاسع

أعداء أعدائي السابقين

لم يكن قادة واشنطن أول من يلعب مع الإسلام لعبة الساحر الذي يطلق العفريت من قمقمه، بل سبقهم إلى ذلك النازيون، مع كونهم أكثر خجلًا منهم، فكانوا هم أنفسهم حائرين ما بين احتقارهم العميق للشعوب غير الأوروبية ومبدأ الواقع الذي كان يجب أن يقود تحالفاتهم الضرورية، فاضطروا إلى إخفاء احتقارهم لسكان البحر المتوسط من أجل نسج تحالفهم مع فرانكو [إسبانيا] وموسوليني [إيطاليا]، حتى إنهم أعلنوا أن حلفاءهم اليابانيين كانوا آريين حقيقيين، كما قرر نظام التمييز العنصري، بعد ذلك، أنهم بيض. هنا وهناك، وفي الفناء الخلفي الاستعماري للفرنسيين والبريطانيين، أعطى النازيون دفعًا لعناصر معادية للاستعمار كانت بحاجة إلى تحالفات. وفي التيبت وإندونيسيا، وحتى في السنغال، أقام عملاؤهم اتصالات، وفتحوا خطوط تواصل، ودرسوا خيارات عدة. ويجب الاعتراف بأنهم، في أغلب الأحيان، كانوا هم بالذات موضوع اهتمام المعادين المحليين للاستعمار والميالين إلى اعتماد المنطق الخطِر الذي يجعل بالضرورة من أعداء أعدائي أصدقاء. هكذا، كان مكسيم رودنسون يقول، خلال السبعينيات، إن العرب كانوا يدعمون الاتحاد السوفياتي للأسباب السيئة نفسها التي جعلتهم يميلون إلى ألمانيا الهتلرية في أثناء الحرب العالمية الثانية. لكن الصورة تنقلب في بعض الأحيان؛ فالمحاولة السياسية - الأيديولوجية لتشجيع ظهور أوكرانيا مستقلة ومتحالفة مع النازية على أطلال الإمبراطورية الستالينية كانت تصطدم بضرورة نهب الموارد الزراعية في أوكرانيا لمصلحة قوات الاحتلال الألمانية، بالاتفاق مع السلطة العنصرية النازية التي كانت تريد جعل السلافيين عبيدًا للجرمان. مع ذلك، كانت هذه الاتصالات محدودة على وجه الإجمال، ولم تكن تؤدي إلى نتيجة. فمبعوثو جماعة ليحي (شتيرن) [اليهودية] حاولوا إقامة تحالف مماثل، معادٍ لبريطانيا، من خلال سلطة فيشي في بيروت في عام 1941. وكانت هذه الجماعة قد انبثقت من انشقاق في الحركة الصهيونية «التعديلية» (أو

التنقيحية)[1] التي كان يتسحاق شامير حينها أحد قادتها - وهو المشبوه في قيامه باغتيال وسيط الأمم المتحدة السويدي، الكونت فولك برنادوت، في القدس في عام 1948 - ورئيس الوزراء الإسرائيلي إبان انعقاد مؤتمر مدريد في عام 1991. لكن هؤلاء وقعوا في فخ الاستخبارات الإنكليزية: كان عنصر الاتصال الألماني عميلًا مزدوجًا! من المؤكّد إذًا أن العرض لم يصل إلى برلين[2].

في الشرق الأوسط، كانت نقاط اتصال عدة موجودة؛ ففي مصر، أُقيمت علاقات ببعض عناصر قيادة الإخوان المسلمين وبعض الضباط القوميين. هكذا ساند أنور السادات وبعض الذين أصبحوا في ما بعد «الضباط الأحرار» الملتفين حول جمال عبد الناصر، إلى حد ما، وبنشاط، محاولة رشيد علي الكيلاني لتنظيم تمرد ضد البريطانيين في العراق، حيث كان الألمان يعولون عليه كثيرًا، لكنهم لم يلتزموا حياله بشكل مباشر، فكلفهم ذلك حينها طرد كثيرين منهم من الجيش والسجن في مصر. ومن فلسطين، توجه مفتي القدس الكبير، الحاج أمين الحسيني، إلى برلين، وكان ملاحَقًا من سلطات الانتداب البريطاني مع أنه كان المفضّل لديها في أثناء انتخابات عام 1929، ما غذى خلال عقود عدة الكلام المكرر في شأن التحالف الفلسطيني - النازي[3]. أما في الجزائر، فتطوّع بعض عناصر الحركة

(1) إيلان هاليفي: «تعديلية» أو «تنقيحية» (Révisionniste) لأن رئيسها، زئيف جابوتنسكي، لم يكن يؤمن بـ «التدريجية» في إدارة الحركة الصهيونية، وكان يطالب بتكوين قوة مسلحة يهودية في فلسطين للتخلص من السلطة الاستعمارية البريطانية والاستيلاء على البلاد بالقوة. وكان يدّعي كذلك أن المقاومة الطبيعية والمتوقعة عند العرب لانتقالهم وتحولهم إلى أقلية في بلادهم بالذات سوف تجعل استعمال القوة ضروريًا. وكان يرفض اقتطاع الأردن من أرض إسرائيل، ويطالب، كما فعل في ميثاق **الحيروت** الذي اعتُمد في تشرين الأول/ أكتوبر 1948، بـ «السيادة اليهودية على ضفتي نهر الأردن». ولم يكن يؤمن كذلك بـ «اشتراكية» الإدارة الصهيونية ابتداءً من عام 1930، وهذه الجماعة هي السلف السياسي **لحيروت** مناحِم بيغن **والليكود** الحالي.

(2) إيلان هاليفي: لن نستطيع إذًا أبدًا أن نعرف كيف كان هتلر سيتفاعل مع ذلك. لكن يجب أن نتذكر أن شرطة الرايخ نشرت في عام 1938، وبعد صدور قرار حل المنظمات اليهودية في ألمانيا، توجيهًا يقضي باستثناء **بيتار**، وهي حركة الشباب في اليمين الصهيوني (المسماة «تنقيحية») وينص على أنه يمكن السماح لأعضائها بارتداء زي حركتهم - في الأماكن المغلقة - لأنهم «يساهمون بنشر الروح الوطنية - الاشتراكية داخل الشبيبة اليهودية» (ذكرها البروفسور شلومو فرانكل، من الجامعة العبرية في القدس في عام 1968، في أطروحته حول العلاقات ما بين الرايخ الثالث والمنظمات الصهيونية في ألمانيا عشية الحرب العالمية الثانية).

(3) كان مفتي القدس الكبير قائدًا دينيًا ومناضلاً قوميًا في فلسطين التي كانت تحت الانتداب =

الوطنية التي كانت على هامش حركة مصالي الحاج، وذهب لقتال الشيوعية على الجبهة الشرقية تحت رايات الرايخ الثالث. لكن بشكل عام، لم ينجح النازيون في إيجاد موطئ قدم في المجتمعات الإسلامية التي كانت حينذاك تحت نير الاستعمار الفرنسي أو البريطاني، وبقيت محاولاتهم للتلاعب بالولاءات الدينية محدودة.

من جهة ثانية، كان وهم التلاعب، طوال هذا التاريخ كله، استيهامًا متبادلًا؛ إذ لم تتوقف جماعات وأفراد يدّعون الإسلام عن حلم استغلال التناقضات الدولية والحروب بين القوى العظمى وجعلها تصب في مصلحتهم. وللمناسبة، عرفت تلك المحاولات سابقة سوفياتية مهمة: مؤتمر شعوب الشرق في باكو، في عام 1921، حين عبَّرت هذه المحاولة، من جملة أمور، عن أطروحات سلطان غالييف في شأن «القومية الإسلامية». ومع ذلك، نشير إلى أن هذه الخطوة لم تكن بالفعل قد حازت إجماعًا: هذه الإرادة بوضع المقاومة الإسلامية سياسيًا في خدمة السيطرة الاستعمارية كانت من صنع لينين وراديك وتروتسكي، لكنها لم تكن بتاتًا من صنع ستالين، الجيورجي الذي انتقل من الانهزامية الثورية التي كان قد أعلنها في أثناء الحرب الروسية - اليابانية في عام 1904، حين حيا هزيمة القيصر في بورت آرثر، مستكشفًا فيها مؤشرًا لـ «يقظة آسيا»، إلى قومية روسيا الكبرى الأكثر ابتذالًا[4]. وهذا بالذات ما رفضه لينين، بخصوص القمع الذي انطلق، في جيورجيا نفسها، ضد أولئك، أمثال أحد أصدقاء الشباب لأبي الشعوب الصغير (ستالين)، الذين كانوا يعارضون الفكرة القائلة إن وحدة البروليتاريا العالمية يجب أن تتحقق في تيفليس (تبليسي) بالذات. وكان هذا التطرف في الشوفينية، كما كان يشير إليه لينين ساخرًا، من عمل أولئك المنضمين حديثًا، أمثال ابن الإسكافي الجيورجي دجوغاشفيلي

= البريطاني. وفي عام 1936 أدى دورًا أساسًا في الثورة العربية الكبرى التي استمرت حتى تشرين الأول/ أكتوبر 1939. وُضع تحت مراقبة السلطات الفرنسية، لذلك غادر دولة لبنان الكبير إلى المملكة العراقية. هناك، قام بتدبير انقلاب فاشل ضد البريطانيين، فاضطر إلى الهجرة. ومن بعد رحلة طويلة، استقر في ألمانيا. ولئن ظن في الواقع أن انتصار الألمان كان سيؤدي إلى إضعاف البريطانيين وبالتالي الحركة الصهيونية، فإنه لم يعقد مع الألمان تحالفًا رسميًا. من جهة أخرى، من المهم التذكير بأن في تلك الحقبة، كان هناك حزب شيوعي في فلسطين، مرتبط بموسكو، وبالتالي كان معارضًا لقوى المحور.

(4) إيلان هاليفي: هذا ما سمّاه الصينيون، بعد أعوام عدة، «شوفينية القوة العظمى».

والبولوني فليكس زرجنسكي[5] (في مفوضية الشعب للشؤون الداخلية (NKVD) وأخيرًا لمسخهم الأخير، لجنة أمن الدولة – KGB)، وهم الذين سيصبحون منظمي حملات التطهير ومسؤولي الإبادة الكبار «للقوميين البرجوازيين الصغار»!

من هذه القصص المتتالية، يمكن أن نستنتج دروسًا عدة، بل نستطيع حتى الرجوع أكثر إلى الوراء، وأن نبحث عند بونابرت في مصر وفلسطين (ألم يصبح مسلمًا، لوقت قصير جدًا، بداعي المصلحة العليا؟)، أو حتى عند فرانسوا الأول وسياسته العثمانية. لكن ما يهمنا هنا تمامًا ليس العلاقة وإنما وظيفتها في الصراع الدولي؛ إذ أخذت جميع الممالك التي قاربت العالم الإسلامي أو سيطرت على أجزاء منه علمًا بالقوة والاتساق الاجتماعي والسياسي عند جماعة المؤمنين، وبالمؤسسات التي أنشأها هؤلاء محليًا. وهي كلها تاقت، في وقت أو في آخر، إلى التقاط هذه الطاقة واستعمالها لمصلحتها. غير أن المنافسات بين الدول والنخب القديمة، مثل التناقضات داخل المجتمعات المسلمة بالذات، أصبحت بدءًا من الحقبة الاستعمارية ترتكز على الصراعات الدولية والمنافسة بين المعسكرات السياسية – العسكرية التي تتنازع في أمر السيطرة العالمية. وكان هؤلاء الأخيرون مهتمين في الوقت نفسه بتقوية عملائهم النافذين والحلفاء والمحميين في الأماكن الخاضعة لسيطرتهم المباشرة، وبالبحث عن حلفاء بدلاء للسلطات القائمة في دائرة نفوذ الإمبراطورية المنافسة. وبالتأكيد، كانت ظاهرة فاشودة، بين الفرنسيين والبريطانيين، تضع حدودًا، لم يعرفها القرن السابق[6]، لأن الإنكليز الذين خسروا في القرن التاسع عشر مستعمراتهم ومزارعهم في أميركا الشمالية، وكانوا قد ألغوا العبودية في إمبراطوريتهم، كانوا يتعقبون المراكب المحمَّلة بالعبيد، ولم يكونوا يتورعون عن مساندة بعض الانتفاضات هنا وهناك، وحتى بعض الثورات، كما حصل

(5) مؤسس التشيكا – Cheka = مفوضية عموم روسيا لمكافحة الثورة المضادة والتخريب. (المحرر)

(6) تلك القرية السودانية (فاشودة) التي لم تحصل فيها الحرب الفرنسية – البريطانية من أجل النهب الاستعماري، لأن الطرفين اتفقا على أن مشهد حرب بين الأوروبيين تحت أبصار السكان المحليين سوف يؤدي إلى نتائج خطِرة جدًا! لكن الفرنسيين احتفظوا بذاكرتهم في شأن هذا الحادث بوصفه إهانة دبلوماسية رهيبة فرضها ألبيون الغادر. [ألبيون الغادر، مصطلح فرنسي يستخدم في الكتابات الأدبية كما عند بوسوييه وغيره لوصف نكث البريطانيين بوعودهم من خلال أمثلة كثيرة يعطيها الفرنسيون، بعضها يعود إلى القرن الخامس عشر. وألبيون هو الاسم القديم لبريطانيا]. (المحرر)

في سانت دومينغو وفي أمكنة أخرى. لكن مع ألمانيا النازية، سقطت جميع القواعد النافذة سابقًا. وحدث الأمر نفسه مع الحرب الباردة، حين أصبحت الخدع الدنيئة من معسكر ضد آخر، وبالتالي من قمر اصطناعي عند معسكر ضد قمر اصطناعي عند معسكر آخر أو حليف له، مسموحة وفي موضع التنفيذ: استفزازات، دسائس، تلاعبات... لنفكر في تورط الاستخبارات السرية البلغارية في التلاعب بجماعة فاشية تركية في محاولة اغتيال البابا، وبالتأكيد بسبب دوره في الأزمة البولونية!

في فترة الحرب الباردة، كانت دول الشرق الأوسط كلها، بغضّ النظر عن عدم انحيازها المعلن، عميلة أو محمية أو حليفة متميزة عند معسكر ما أو معسكر آخر. وكان منافسوها بالتأكيد حلفاء للمعسكر المضاد، وكان يُخيل لكل منها أنها تتلاعب بالقوى العظمى، وأنها تلعب بذكاء على التناقضات الدولية. هذا الأمر نفسه حدث مع المجتمعات المدنية التي كانت تحاول الاستمرار في الحياة أو في تكوين ذاتها في ظل هذه الأنظمة المستبدة الخارجية والتابعة، وكذلك مع القوى السياسية المعارضة التي كانت مجبرة في أغلب الأحيان على العمل السري أو المنفى[7]. ولم يكن ثمة حدود للأوهام التي تغذيها القوى المحلية، المهووسة بالتناقضات المحلية والإقليمية الصغيرة، حول قدرتها على التأثير في التحالفات غير المتساوية أيضًا، وبالتالي في أن تجد فيها ما يلائمها، لأن تلك الأوهام كانت في حجم عزم هاتيك القوى أو في طموحاتها وتعطشها للسلطة.

هكذا رأينا في المنطقة ظهور تشكيل جديد، في ظل النظام الجديد الأحادي الأقطاب (بالتأكيد، نميِّز هنا جيدًا بعض التصدعات والطقطقات الأخرى الدالة) والتغيّر المذهل في التوجه الاستراتيجي المدفوع من المحافظين الجدد والمصابين برهاب الإسلام. إنه الأنموذج العراقي الذي اعتمده جزء من القوى المقاومة للدكتاتور صدام حسين - مجموع الطيف السياسي الكردي، لكن كذلك جزء لا يستهان به من رجال الدين الشيعة وبرجوازية المنفى العراقية - على الهجوم

(7) إيلان هاليفي: خلال السبعينيات، كانت الولايات المتحدة تدعم الإسلامويين في مصر وسورية ضد الأنظمة الحليفة للاتحاد السوفياتي (ألم تدعم، خلال الثمانينيات، النقابات المستقلة والحركة العمالية البولونية، والمجاهدين الأفغان في الوقت نفسه؟)، في حين أن السوفيات، الشركاء في القمع البوليسي في الدول «الصديقة»، كانوا يدعمون قوى المعارضة في الدول الدائرة في محور الغرب.

والاحتلال الإنكليزي - الأميركي للبلاد. وهو كذلك ما نستطيع رؤيته في لبنان، حيث ظن جزء مهم من الطبقة السياسية أن باستطاعته استعمال الضغط الأميركي من أجل تحييد نفوذ النظام السوري وعزل «حزب الله». إن تشريع هذا النوع من المساعدة السياسية - العسكرية في البلاد الخاضعة لدكتاتوريات أو لأنظمة قمع وطني يقحم في حياة المجتمع الدولي مبدأ يتعلق بحل سيادة الدول التي تنكر سيادة الشعوب. لكن التجربة العراقية، حتى ولو كانت غير منجزة في وسط فشلها الدامي، لا تزال توحي للمرشحين بأن يحلموا بدور القنصل، وحتى المستشار للقنصل المستقبلي في الإمبراطورية الجديدة.

هكذا، وبعد الضلال الذي كان يتمثّل في الانحراف نحو الرايخ الثالث، وبعد الوهم السوفياتي، ها قد وصل إلى الشرق الأوسط زمن السراب الأميركي (وبالتالي غياب أوروبا أيضًا).

في نهاية هذا التطرق إلى التحالفات النفعية المتعلقة بالحركات السياسية الإسلامية، يجب بالتأكيد التذكير بكيف أن الرئيس المصري السادات كان يظن أن باستطاعته الاعتماد على الإسلامويين كي يواجه الحرس الناصري القديم، وكان أن اغتاله هؤلاء الإسلامويون [في عام 1981]. لكن هناك أيضًا حركة «فتح» التي كانت، في قمة صراعاتها مع الإخوان المسلمين، في نهاية التسعينيات، شجعت على تكوين الجهاد الإسلامي، من أجل تجاوز منافسيها، وكان ذلك قبل أعوام عدة من عقد تحالف مع حركة التوحيد في طرابلس التي كان يقودها الشيخ سعيد شعبان، في عام 1983، خلال الحصار السوري للمدينة. وكانت حركة التوحيد، وهي حزب مسلم سنّي، قد حازت دعمًا ضمنيًا من أهل طرابلس (لبنان)، وهم في أكثريتهم سنّة، لأنها وضعت حدًا لحكم الميليشيات، وبشكل خاص لسيطرة البعثيين العراقيين بقيادة فاروق المقدم[8]. وفي هذا الوقت بالذات، عقد ياسر عرفات الذي كان يقاتل المنشقين عن «فتح»، والذين كانت سورية تشجعهم، مع التوحيد تحالفًا مضادًا لسورية لم يُكتب له الاستمرار لأن المقاتلين الفلسطينيين اضطروا إلى ترك طرابلس في كانون الأول/ ديسمبر 1983، تاركين حليفهم عرضة للتقويم الجديد لعلاقات القوى المحلية.

---

(8) البعثيون العراقيون في طرابلس كانوا بقيادة عبد المجيد الرافعي؛ أما فاروق المقدم فكان على رأس حركة 24 تشرين، القريبة من الناصرية. (المحرر)

الفصل العاشر

محاكم التفتيش الجديدة

هكذا إذًا، وبعد أجيال من تحالفات مضادة للشيوعية عُقدت مع القوى الأكثر محافظة والأكثر ظلامية في العالم الإسلامي، دخلت الإمبراطورية الأميركية في حرب ضد من كانوا تحت حمايتها سابقًا. وعلى القادة السعوديين والباكستانيين أن يقولوا لأنفسهم: إن دور الحليف التقليدي ليس ضمانة ضد البطالة: يجب أن تكون تابعًا وأن تنفِّذ. وعلى غرار الحرب الباردة التي يحب الأباطرة الجدد أن يقارنوا بها، فإن هذه الحرب هي إجمالية، «إما معنا وإما ضدنا»، كان جورج بوش (الابن) يقول. هنا، يوجد أيضًا أعداء من الداخل، العمود الخامس لمحور الشر: هناك خونة، والشيطان يعيش مختبئًا بيننا، وكل شيء يصبح شرعيًا لمطاردته وتدميره، حتى إعادة النظر في الحريات والامتيازات المكتسبة، وكذلك التراجع الصاعق للديمقراطية: **قانون الوطنية** (Patriot Act)[1] يعيد النظر في حقوق الأشخاص على مذبح الأمان؛ سجن غوانتانامو، منطقة حرة حيث لا قانون؛ الفظائع التي ارتُكبت في سجن أبو غريب، والتي توازن الفظائع التي ارتُكبت تحت حكم الدكتاتور المخلوع [صدام حسين] الذي أُعدم بسبب واحدة من جرائمه الكثيرة. لكن من الصحيح أن الولايات المتحدة كانت قد شاهدت جرائم أخرى[2]، ومع ذلك، استعملت الحربَ الباردة غطاءً لتراجع المكارثية، في حين أن الحرب العالمية الثانية سمحت بسجن مليون ونصف مليون من اليابانيين والأميركيين من أصول يابانية في معسكرات الاعتقال. لكن يجب أخذ الوضع هذا في الحسبان: إن

---

(1) قانون مكافحة الإرهاب، أو قانون الوطنية، أقره الكونغرس بعيد اعتداءات 11 أيلول/ سبتمبر 2001، وهو خاص بتسهيل إجراءات التحقيقات والوسائل اللازمة لمكافحة الإرهاب، مثل إعطاء أجهزة الشرطة صلاحيات من شأنها الاطلاع على المقتنيات الشخصية للأفراد ومراقبة اتصالاتهم والتنصت على مكالماتهم بغرض الكشف عن المؤامرات الإرهابية. (المحرر)

(2) إيلان هاليفي: إقرأ في هذا الصدد مقالة الصحافية والمعلقة السياسية نَوْمي وولف:
Naomi Wolf, «Fascist America, in 10 Easy Steps,» *Guardian*, 24/4/2007.

المواجهة الحالية العالمية هي أيضًا حرب أيديولوجية داخل المعسكر المسمّى المعسكر الغربي، والقيادة الفكرية لهذه الحرب الصليبية الجديدة هي أولئك الذين نسمّيهم المحافظين الجدد، لأن عددًا منهم هو من منشقي «اليسار»، أو مما هو مماثل لليسار في الولايات المتحدة، أي الحزب الديمقراطي. وهُم انضموا إلى اليمين الجمهوري المتطرف وإلى تحالفاته الإنجيلية حبًا بالحلول العسكرية وإخلاصًا لمصالح اليمين في السلطة الإسرائيلية. كان ذلك تحالفًا بين أصوليين بروتستانت، ومناضلين صهيونيين، ومسيحيين معادين للإسلام، وجنرالات محبين للحرب وتجار السلاح، ذلك التحالف نفسه الذي نراه يوميًا فاعلًا من جهة بغداد، مع النتائج التي نعرفها.

من الأكيد أن انتخاب باراك حسين أوباما رئيسًا للولايات المتحدة في عام 2008 كان قد حوّل هذا الخطاب وأدخل فيه نوعًا من التهدئة. لكن هذا التحول لم يقلب هذا الاتجاه الشديد الذي يرتكز على المصالح الاقتصادية والسياسية المؤثرة، سواء أكان ذلك في الولايات المتحدة أم عند حلفائها وخدمها.

من برنارد لويس، المختص بالإسلام والمصاب برهابه، وهو الباحث المدفوع بالنفور الذي يغذيه تجاه موضوع بحوثه ويؤدي إلى تعميته، إلى وابل الشتائم الحاقدة لدانييل بايبس (Pipes)، المروّج الدعائي المبسِّط الذي نصَّب نفسه لكشف الإرهابيين المتنكرين، وهو معلم رئيس الولايات المتحدة في رهاب الإسلام، فإن ما يحصل هو الفكر الواحد الذي يفرض نفسه، و«مطاردة الساحرات» في الجامعة الذي ينظّم ذاته، ومحاكم التفتيش التي يستتب أمرها.

في هذه التشكيلة التي لم يسبق لها مثيل، تبدو إسرائيل مركزية بشكل لافت؛ ألا يُعتبر الخطاب الحالي الرسمي لواشنطن أن معاداة أميركا هي شكل من أشكال معاداة السامية؟ والقاموس الأميركي *Merriam Webster Dictionary*، لا يتردد في طبعته في عام 2003 في تعريف معاداة السامية بالطريقة الموجزة التالية: 1) كره اليهود، 2) كره إسرائيل، 3) التعبير عن التعاطف مع أعداء إسرائيل»! وعلى الرغم من احتجاجات الجالية العربية في أميركا، رفض الناشرون سحب الطبعة من السوق، ولم تجد أي محكمة أن الشكوى قابلة لأن يُنظَر فيها. كُتب كثير عن

هذا التواطؤ الإسرائيلي - الأميركي في الخطاب كما في الممارسة السياسية - العسكرية، عن هذا التلاقي الذي لا مثيل له، عن هذه العلاقة الفريدة وهذا التحالف الذي لا تنفصم عراه، منذ زمن طويل. هنا، وبالنسبة إلى الخطاب الرسمي في شأن العالم الحر والديمقراطية والقيم المشتركة وإسرائيل، بوصفها جزءًا لا يتجزأ من الغرب ...إلخ، هناك إيضاحان دوغمائيان متناقضان، وفي الواقع، كلاهما غير منطقي، ويتواجهان حيال تشبيه الكلب وذيله: أيهما يحرك الآخر؟

هناك من يعتبر أن إرادة السلطة عند الولايات المتحدة هي التي تحرك إسرائيل باتجاه المصالح الأميركية كعميلة ورأس جسر للإمبريالية الغربية. وهناك أيضًا من يعتبر أن اللوبي الصهيوني هو الذي يُخضع سياسة البيت الأبيض وفقًا لحاجاته الذاتية، ما يعني أن اليهود يسيطرون على أميركا، ومن خلالها، يسيطرون على العالم، وهذا التحليل يذكّر بكتاب **بروتوكولات حكماء صهيون**. بالنسبة إلى الأول، يعود اجتياح العراق إلى الطمع الأميركي في النفط العراقي، ويرى الآخر أن حرب العراق هي في خدمة المصالح الإسرائيلية، وقد فرضها «اللوبي» الكامل القدرة. ونستطيع هنا فورًا تقدير ما تورط فيه هذا النقاش.

إن فرضية القدرة المطلقة للوبي «اليهودي»، ومن الموائم التشديد على ذلك، تستعملها بشكل منهجي الأوساط الدبلوماسية، أمثال رجال الأعمال الأميركيين في علاقاتهم بأمثالهم من العرب، لأنها تصبح ذريعة للسياسة المؤيدة لإسرائيل، ما ينزع المسؤولية عن السلطة ويجعل من الشعب الأميركي ضحية بريئة. لكن، ومهما يكن الموقف الذي نختار اعتماده بالنسبة إلى هذه المسألة، يبقى من المؤكد أن هناك رابطًا عضويًا مميزًا بين الاثنين، ونستطيع - بل من حقنا - التساؤل عن أسسه. من المؤكد أن لـ «اللوبي» المؤيد لإسرائيل، وهو يضم، تقريبًا أطر الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة، وزنه الفاعل. والمعني بذلك مجموعة ذات تأثير مهم، تملك إمكانات مادية هائلة، وقدرة على الابتزاز في الانتخابات لا نستطيع إنكارها[3].

---

(3) إيلان هاليفي: لا تحرك هذه المسألة الأطراف الراديكالية أو المهمَّشة في الطيف السياسي - الأيديولوجي في الولايات المتحدة فحسب. ويتهم المخرج السينمائي مايكل مور، في فيلمه، 9/11 =

لكن لا يمكن تفسير التأييد غير المشروط الذي يقدمه البيت الأبيض بقدرة اللوبي وحدها، لأنه فاعل في اللاوعي الجماعي في الولايات المتحدة انطلاقًا من ثوابت عدة؛ فهناك أولًا الموشور الديني ومكانة كتّاب العهد القديم في لاهوت المِلل والكنائس البروتستانتية الأميركية والمعمدانية والميتودية والكلفانية والسبتية والمورمون والمنونايت، إنجيلية[4] في كل الأحوال من المسيحيين المولودين [روحيًا] من جديد (born again Christians) (مثل جورج بوش). هكذا، تنشط في الولايات المتحدة حركة «الصهيونيين المسيحيين» الموجودة بشكل بارز في القدس أيضًا، وهي تكمل تقليد الصهيونية المسيحية الأنغلو ساكسوني العائد إلى القرن التاسع عشر.

بذلك، أصبح التحالف بين الأصوليين البروتستانت والصهيونيين داخل جناح اليمين الداعي للحرب في الحزب الجمهوري، مهيمنًا في المجتمع كما في سياسة واشنطن. ويفضل الشركاء الإسرائيليون للإنجيليين الأميركيين تجاهل الديانة المعادية تمامًا لليهود التي هي قوام هذه الحماسة لسياستهم؛ ففي الحقيقة، وبحسب نظرية الآخرة عند المسيحيين الجدد، تُعتبر الحرب بين إسرائيل والإسلام، وتدمير إسرائيل وتحوّل اليهود إلى المسيحية، من الشروط التي يجب جمعها، من أجل المجيء الثاني للمسيح وتحقيق الخلاص النهائي[5]. وهناك

= Fahrenheit، ضد حرب العراق، لوبي النفط، لكنه لا ينبس بكلمة في ما يتعلق بدور الإنجيليين وتأثيرهم، ويتناسى كليًا البُعد الإسرائيلي، ويُوضع نوام تشومسكي دائمًا موضع الاتهام بسبب عزوفه عن فكرة القدرة الكلية للوبي المؤيد لإسرائيل الذي يتلاعب بالسياسة الأميركية خدمة لمصلحته، كما حاول تبيان هذا الباحثان ستيفان والت وجون مرشهايمر في جامعتي هارفرد وشيكاغو في بحثهما. ينظر: John J. Mearsheimer et Stephen M. Walt, *Le Lobby pro-israélien et la politique étrangère américaine*, traduit de l'anglais par Nicolas Guilhot [et al.], la découverte-poche. Essais (Paris: La Découverte, 2008).

(4) ثمة في الولايات المتحدة تمييز بين الكنائس البروتستانتية الأصلية، وهي الغالبة، وما يسمى الكنائس الإنجيلية، وهي اليمين المسيحي الذي نشأ في مطلع القرن العشرين بنفحة تبشيرية أصولية، ومن هنا سمّي بالإنجيلية (بمعنى التبشيرية) تمييزًا له من الجسم الرئيس للبروتستانتية الأميركية. هذا في حين أن الكنائس البروتستانتية في العالم العربي تسمى كلها كنائس إنجيلية، فاقتضى التوضيح منعًا للالتباس. (المحرر)

(5) إيلان هاليفي: هذا ما كتبه من واشنطن، في العدد 322 من الأسبوعية الإلكترونية *IPF*، في تموز/ يوليو 2007، ج. م. روزنبرغ، وهو - مع ذلك - صديق لإسرائيل. واعتبر أن التحالف مع متعصب =

بعد هذا العنصرية الاستعمارية، يعتبر اليهود مكونًا أساسيًا نوعيًا للثقافة الغربية وللمجتمع الأميركي، في حين أن العرب، حين لا يتم تصورهم مسبقًا بشكل سلبي في الخيال الجماعي، فهُم في أحسن الأحوال يُعتبرون أناسًا من العالم الثالث، أي متخلفين، إذا لم نقل متوحشين[6].

مع ذلك، فإن العنصرَين الأكثر تحديدًا يتعلقان ربما بالاستراتيجيا والتركيبة؛ فمن ناحية الاستراتيجيا، إسرائيل هي من البلدان النادرة في العالم التي تحظى أميركا فيها بالحب والإعجاب، لا من الدولة أو النخبة فحسب، بل من الشعب بالذات أيضًا، وهذه ميزة استراتيجية لا مثيل لها، لقوة مكروهة عالميًا حتى من الشعوب التي من المفترض أن تحميها أميركا. لكن هذا التواطؤ هو كذلك متعلق بالتركيبة، لأن أنموذج التكوين التاريخي لإسرائيل هو أنموذج الاستعمار الأوروبي في أميركا الشمالية، وأن الأميركيين، مثل الكنديين والأستراليين أو النيوزيلنديين، يتماثلون طبيعيًا مع الإسرائيليين، رافضين بشكل عفوي كل إعادة نظر في العملية الاستعمارية التأسيسية[7].

هنا بلا شك يكمن قلب هذه العلاقة المتميزة، وهنا بلا شك مفتاح العدائية التقليدية للحكومات الكندية والأسترالية أو النيوزيلندية تجاه الطلبات الدبلوماسية الفلسطينية، وتجاه كل ما يمكن له أن يبدو محاولة لإعادة النظر في شرعية إسرائيل

= لهذه النظرية الدينية، مثل القس جون هاجي، الزعيم الروحي لـ «**المسيحيين المتحدين من أجل إسرائيل**»، وهو الذي نظّم صلوات جماعية كي لا تترك إسرائيل ولو شبرًا واحدًا من الأرض المقدسة للفلسطينيين، هو لعب بالنار.

(6) إيلان هاليفي: المخيال الاستعماري يتحدث عنهم بوصفهم أشخاصًا «مرهفين ومتوحشين»، على التوالي، ما يترك افتراضًا بأنهم ليسوا مرهفين إلا في توحشهم!

(7) من المفيد التذكير بأن لعبارة «settler» (مستوطن) بالإنكليزية دلالة إيجابية جدًا، على غرار الآباء المؤسسين الذين وصلوا على باخرة مي فْلَوَر (إلى أميركا). في عام 1988، اكتفى إيلان هاليفي خلال إلقائه محاضرة في جامعة ماغيل الإنكليزية في مونتريال، وكانت الانتفاضة الأولى في بدايتها في ذلك الحين، بسرد الوضع في الأراضي الفلسطينية المحتلة. مع ذلك، وفي نهاية المحاضرة، نهض مستمع وقال: «إذا أنا فهمتك جيدًا، فنحن، المنحدرين من المستوطنين الأوروبيين هنا في كندا، لا نملك أي حق!»، وبما أن المحاضر كان يتكلم بصفة شخصية، أجابه: «كما كان يقول حاخام فلسطيني في القرن الأول، أنت الذي قلتها!».

التاريخية[8]. فالاعتراض على الاحتلال الذي بدأ في عام 1967 مقبول، لكن التساؤل حول عام 1948 يقع خارج حدود أي نقاش.

(8) منذ عام 2011، تطور هذا الموقف:

– في تشرين الأول/ أكتوبر 2011، صوّت المؤتمر العام لليونسكو على قبول فلسطين عضوًا ذا صلاحيات كاملة. ووافق على هذا القرار لقبول فلسطين 107 أعضاء ضد 14، وامتنع 52 عن التصويت. وكانت الولايات المتحدة وكندا وأستراليا من الدول التي صوتت ضد هذا القرار. وبعد بضع ساعات من قبول دولة فلسطين عضوًا في المنظمة، بادرت الولايات المتحدة إلى إعلان إلغاء تمويلها للمنظمة – ومقداره 80 مليون دولارًا سنويًا، وكان من المفروض دفع 60 مليونًا منه في تشرين الثاني/ نوفمبر 2011. وكانت مساهمة الولايات المتحدة تصل إلى 22 في المئة من الميزانية الحالية العامة للمنظمة. وما كان من وزير الخارجية الكندي، جون بايرد، إلا أن خطا مباشرة خلف خطوة الولايات المتحدة وانتقد قرار المؤتمر العام بقبول فلسطين، وأعلن بعد ذلك أن كندا تعلّق مساهماتها الاختيارية، لكنها تحافظ على التمويل الأساس للمنظمة، وقيمته 10 ملايين دولارًا سنويًا.

– في عام 2012، أصبحت فلسطين «دولة مراقِبة من دون أن تكون عضوًا» في الأمم المتحدة. وقد حصل التصويت على هذا القرار في الجمعية العمومية على أكثرية معقولة، لكنها لم تكن ساحقة: من بين 193 بلدًا عضوًا، صوت 138 بنعم، وامتنع 41 (وبينهم أستراليا)، وصوّت تسعة ضد (وبينهم الولايات المتحدة وكندا).

– في 30 كانون الأول/ ديسمبر 2014، جُمِّد القرار الفلسطيني في مجلس الأمن بسبب عدم حيازته عددًا كافيًا لمصلحته. امتنعت خمسة بلدان، ومنها المملكة المتحدة، في حين عارضت الولايات المتحدة وأستراليا القرار.

الفصل الحادي عشر

من أجل عدم انحياز جديد

رهاب الإسلام موجود، ونحن التقيناه، ونلتقيه كل يوم. ووجوده في كل مكان في النقاش العام والمجتمعي الذي اشتد بسبب الجرائم الحقيقية التي يقترفها باسم الإسلام خليط من الجماعات والمنظمات التي تحركها دول بشكل مباشر أو غير مباشر، ولا يترك مجالًا للشك حول هذا الموضوع.

إذًا ما المعني بذلك؟ هل يكوِّن رهاب الإسلام جوابًا سيئًا عن سؤال جيد؟ أو أما هو، بوصفه شكلًا جديدًا لطاعون العنصرية (هل يجب علينا إيجاد لون له؟) إلا انتعاشًا لفيروس اجتماعي ذي خطر معروف، يعمل من الآن فصاعدًا على مستوى عالمي، متفاعلًا مع العالم وكأنه جسم اجتماعي واحد، ويصبح ضروريًا اتخاذ إجراء ما في مواجهته، لأن ذلك يتعلق بحياتنا جميعًا وبنوعية عيشنا ككل؟

إلى جانب هذه الاستحقاقات المحتومة، هناك ضرورة للشعوب والحكومات والدول، لكن هناك أيضًا ضرورة للمجتمعات المسمّاة مدنية، وإذًا ضرورة للأفراد، لإيجاد عدم انحياز جديد[1]. ومن المؤكد، وكما رأينا في أثناء هذا البحث كله، أن التركيبة الحالية للحرب الشاملة تختلف تمامًا عن المواجهة بين الجبهات التي طبعت القرن العشرين؛ فالعدو، هنا، غير مرئي. إنها حرب عالمية شاملة، ولكن ضد استيهام ما، ضد صورة ثلاثية الأبعاد لفزاعة يعكسها لنا دائمًا كمبيوتر ما. ومع ذلك، فإن تأثيرات هذه الحرب في المجتمع المعاصر مشابهة كليًا، كما أن ضرورة رفض منطق الحرب هي مطابقة تمامًا: أولًا لأن التماهي مع الواحد أو الآخر من المعسكرين الموجودين مستحيل؛ إذ إنه يعني الخيار بين الطاعون والكوليرا، والذين يدعون إلى الحرب من هذه الجهة وتلك، هم فعليًا أعداء للبشرية، ولا يمكن إلا أن نقف على مسافة واحدة من كليهما.

---

(1) جرى تطوير هذا المفهوم في: Ilan Halevi, *Face à la guerre: Lettre de Ramallah*, l'actuel (Arles: Sindbad-Actes Sud, 2003).

من ثم، وبسبب الأحادية في ما يخص العلاقات الدولية، فإن فكرة استبدال الحق بفيلق غزو ينشأ عن «تحالف المتفقين»، وفكرة أن ليس هناك من شركاء يمكن التفاوض معهم وإرساء السلام، وفكرة أن هناك دولًا داعرة، من بين تلك التي تقف ضد المخططات الإمبراطورية، يجب أن تُرذَل، والوهم أو ادعاء أن من الممكن إحلال السلام ومكافأة الشرق الأوسط من دون إيران، من دون سورية، من دون «حماس» ومن دون «حزب الله»؛ باختصار، إن الفكرة القائلة إننا إذا قتلنا جميع الأشرار، يصبح العالم أفضل هي فكرة غبية وخطرة على مستقبل العالم. ويجب أن يرفضها الأفراد والقوى السياسية والاجتماعية والدول، ويفرضوا مبدأ الحوار ونزع السلاح. ويعرف الأوروبيون ذلك ويقولونه، لكنهم لا يعملون به. ومن هذا التردد، من هذا الجبن، من هذا الضعف الواضح، يمكن أن يأتي ما لا نستطيع تجنبه، ويمكن العالم أن يُجر إلى دوامة جهنمية.

لتفسير كيف أن العالم بأكمله عجز عن التغلب على عدو معزول إلى هذه الدرجة، أنجز الخبراء العسكريون مفهوم الصراع اللاامتناظر، حيث الضعيف يملك صلف استعمال عناصر ضعفه بالذات لتحويلها إلى ميزات، وباختصار، فإنه «لا يلعب اللعبة». إذًا لا يضمن عدم الوجود المادي للعدو أبدًا أن تبقى الحرب افتراضية؛ فهي ما عادت كذلك في العراق ولا في فلسطين ولا في لبنان ولا في أفغانستان ولا في ليبيا ولا في السودان ولا في مالي ولا في سورية ولا في اليمن، ويطوف خيال مداها التهديدي فوق إيران وتركيا، وقد نقلها واضعو القنابل بصورة دورية إلى قلب المدن الكبرى في الشمال الصناعي أو إلى مواقع الاستجمام فيها.

إن فكرة عدم الانحياز تعطي فرصة لانتفاضة، لصحوة، وتعطي في الوقت نفسه فرصة لإظهار مرونة في الروح الديمقراطية. أليس انتصار الحرية هو الهزيمة الفعلية للإرهابيين في كل مكان؟

يحاكي الخطاب الإيراني في شأن الشيطان الأكبر، وخطاب طالبان في شأن الغرب، وخطاب **التكفير والهجرة**، أو خطاب الجماعة الإسلامية المصرية في

شأن «الصليبيين» والغرب بوصفه العدو، خطاب واشنطن في شأن محور الشر[2]، ويرفض عدم الانحياز الجديد الخطابين. وليس المعني بذلك الإسلام، وإنما المعني تيارات وقوى ودول. ولا تريد غالبية المسلمين في العالم الحرب، لا مع الغرب بشكل عام ولا مع الولايات المتحدة بشكل خاص. وفي الحرب الشاملة التي يدّعي بوش وبن لادن أو بوش وأحمدي نجاد القيام بها، فإن هؤلاء ليسوا في خط عدم الانحياز!

إن عدم الانحياز الذي كان يرفض البارحة منطق التكتلات، يرفض اليوم هذه الخطابات المتقاطعة والدائرة حول حرب الحضارات. إنه المناداة، كما فعل ذلك منذ نيسان/ أبريل 1955 في باندونغ، الأفارقة والآسيويون، بالتعاون وإنهاء الاستعمار، وبالحلول السلمية للنزاعات عبر التفاوض، وبالتعايش بين الأنظمة السياسية المختلفة، وبالتسامح واحترام حقوق الشعوب والأشخاص. كل هذه أهداف هي، في الأحوال كلها، موجودة اليوم في برنامج الأمم المتحدة، لكنها تبقى، حتى اليوم، في مصاف التمني الورع في مواجهة أدغال الدول وعلاقات القوى. ما نحن بحاجة إليه فعليًا هو فلسفة جديدة للعلاقات الدولية قائمة على السلام والتنوع والحوار. وفي ما يتعلق بالبحر المتوسط، يعني هذا تكوين محور جديد، يوحِّد الإسلام واليهودية والمسيحيّة والعلمانية لتولد منها جميعها حداثة تحترم الهويات الموروثة من التاريخ، تأخذ في الحسبان تداخل الشعوب والحركات المهاجرة، وتسمح لنا بتجاوز المعضلات الخاطئة، مثل الاندماج في مقابل الانفصال، الاستيعاب في مقابل النزعة القومية، فقدان الهوية الثقافية في مقابل النزعة الجماعاتية.

---

(2) عدَّل هذا الخط لوقت ما عبر خطاب أوباما الذي ألقاه في الرابع من حزيران/ يونيو 2009 في جامعة القاهرة تحت عنوان «بداية جديدة» (A New Beginning)؛ فهذا الخطاب أشار إلى قبول الحوار مع الإسلام السياسي، وفرق بوضوح بين القاعدة والحركات السياسية الأخرى، خصوصًا حركة «حماس» التي لها دور ستؤديه في مستقبل فلسطين. وللتذكير، فإن الرئيس كلينتون كان قد توّجه إلى أعضاء المجلس الوطني الفلسطيني في غزة، في 14 كانون الأول/ ديسمبر 1998، قائلًا: «أنا أعرف العذابات الرهيبة التي نتجت من العنف، وانفصال العائلات، والتضييق على تجول الأفراد وعلى الملكيات. أفهم قلقكم تجاه الاستيطان، ومصادرة الأراضي وتدمير المنازل». وبعد خمسة عشر عامًا، لم يتغيّر شيء.

أهي يوتوبيا؟ ربما. إنها على كل حال تقوم على الجنون الهادئ لا على اليقين القاتل. أولًا لأنها تعيِّن، كنقطة انطلاق وخروج مما قبل التاريخ، إلغاء عقوبة الإعدام، وعمليات القتل التي تقوم بها الدول، وبالتالي إلغاء الحرب. كان من المتفَق عليه في الماضي أن الدفاع الذاتي ضد الاعتداء - لكن كذلك ضد التهديدات بالاعتداء! - وضد الاحتلال يبرر الحرب المضادة. وكان من المؤكد أن الحروب الدفاعية كانت بالضرورة حروبًا عادلة. لكن حتى هذا الاستثناء الذي كان مصدرًا لسوء استعمال من الدول منذ أكثر من قرن، أخذت مبرراته بالانحلال لمصلحة مطلب حقيقي ومطلق عالميًا بجعل عمليات الاغتيال خارجة على القانون، وبمنع القتل. لكن ثمة علاقة مباشرة بين الحكم بالإعدام والحرب. وفي الواقع، تصبح الحرب هي التنفيذ العملي لفلسفة الحكم بالإعدام على مستوى العلاقات الدولية. عندها، وبإلغاء الحكم بالإعدام، فإن الحرب، وعلى أي حال، كل حرب غير دفاعية مباشرة، ستُحرم من كل تبرير دائم. إن القتل الذي تقوم به الدول، هو عمل همجي. وفي هذا المجال، فإن أسوأ ثلاثة قتلة يعدمون أكبر عدد، نسبة إلى عدد سكانهم، وحتى بالعدد المطلق سنويًا، هم الولايات المتحدة والصين وإيران؛ فالقادة الإيرانيون يتباهون، على نحو دوري، بإعدام عشرات الأشخاص، عفوًا، عشرات المجرمين. وهُم في الحقيقة يشاطرون - إضافة إلى ذلك - إنجيليي الولايات المتحدة الخبث الأخلاقي ورهاب المثلية الجنسية[3].

حين ألغى الأوروبيون عقوبة الإعدام، خرجوا مماقبل التاريخ، وما انفكوا يعترضون، بحق، ضد الإعدامات، حتى ولو سبقتها في جنوب البحر المتوسط إجراءات شرعية. لكننا لم نسمعهم أبدًا يؤنبون واشنطن في شأن هذا الموضوع، في حين أن الآلة العدلية والبوليسية الأميركية في القتل لا تعرف الراحة.

(3) إيلان هاليفي: حين شهدت دوربان، تحت الضغط الأوروبي - الكندي، انهيار تحالف دول عدم الانحياز والمؤتمر الإسلامي، والمشكّل حول نواة هندية - باكستانية، اعتُبر ذلك أمرًا «طبيعيًا»، وحين طُرح للنقاش تعديل المادة 65b من برنامج العمل - وهي مادة اقترحها البرازيليون وتقضي بتجريم «التمييز القائم على قاعدة الميل الجنسي» - و بعد أيام من النضال الإجرائي، تكلم ممثل إيران متحدثًا وشارحًا بعلم ومعرفة للحضور المذهول أن أولئك الذينَ لديهم «ميل جنسي» ينقسمون إلى فئتين: أقلية مريضة، يجب مسامحتها وعلاجها، والأكثرية التي تبحث عن أشكال جديدة من المتعة الجنسية»! ومن ثم أضاف بجدية: «وهذا لا تستطيع بلادي القبول به!».

من المؤكد أن الهمجية ليست بجديدة، بل تطورت تقنيًا، وليس من الأكيد أبدًا أنها تراجعت كميًا. لكن نزع الشرعية عنها ارتفع، ونحن نعرف أن الهمجية، مثلها مثل الحضارات، تموت في الرأس والقلب، وليس عبر التدمير المادي أو الكوارث البيئية فحسب.

إن رهاب الإسلام، مثله مثل توأمه رهاب اليهودية، سرطان أيديولوجي داخل المجتمعات التي تنشره. ومن المؤكد أن لهذه المقارنة، مثلها مثل أي مقارنة، حدودها التكوينية والكمية. وليس المطلوب هنا أن نضع معادلة مساواة بين وضع المسلمين اليوم ووضع اليهود البارحة، لكن بين هذيانين عنصريين يؤثران بطريقة مشابهة على الرغم من الاختلافات في أهدافهما. وليس المعني الآن حماية المسلمين فحسب والوقوف ضد الحرب. لكن التحري عن طبيعة، وحتى صفة المجتمعات التي تُصاب به، وعن نوعية الحياة في أوروبا هذه التي صمم تكوينها بالذات، بحيث تُدير ظهرها للحرب.

[...]

إن اجتياح إيطاليا الفاشية لإثيوبيا في عام 1938، أدى إلى القضاء على جهد تكوين نظام عالمي سلمي عشية الحرب العالمية الأولى، وقرع جرس عصبة الأمم. هل نحن في عشية شيء مشابه؟ هل إن اجتياح العراق الأحادي الجانب، في عام 2003، من دون موافقة الأمم المتحدة، وهو الذي فتح الباب لأنواع التدخل كلها، يعني موت الأمم المتحدة التي كثيرًا ما وُعدنا ومنذ زمن طويل بإصلاحها، وهي المشلولة منذ عقود بسبب انقسام العالم إلى معسكرين متعاديين، والعاجزة تمامًا بسبب القطبية الواحدة للنظام الحالي؟ في أثناء الهجوم الإسرائيلي على لبنان في صيف 2006، وخلال اعتداء إسرائيل على قطاع غزة في نهاية عام 2008، رأينا أول مرة منذ ولادة الأمم المتحدة قرارات متعلقة بصراع عسكري لا تطالب بوقف إطلاق نار فوري، مشرِّعة بذلك متابعة الاعتداء، لأن البيت الأبيض اعتبر حينها أن وقف إطلاق النار سيكون مبكرًا، ما دامت «أهدافه» لم تتحقق بعد.

[...]

ليس علينا أن نداعب أنفسنا بأوهام ملائكية؛ ففي إدراك شعوب الشرق الأوسط وضميرها، تعتبر حروب سورية وفلسطين والعراق واحدة. إنها الصور، الارتكابات والفظاعات نفسها، ومن دون شك، فإن الأعداء الموجودين هم أنفسهم. ويبدو انصهار الجبهات هذا على عكس ما يبحث عنه، طبيعيًا، المستشارون الذين يرون أن من الحيوي وضع الأسئلة بالتسلسل وفصل بعضها عن بعض. ويعزز هذا الالتباس رهاب الإسلام الأورو - أميركي ويثبِّت حرب الحضارات في الأذهان. لكن هناك كذلك الأورو - متوسطية التي أُعلنت ووُعد بها في برشلونة منذ أكثر من عشرين عامًا، والتي يمكن أن تحوِّل خط الشرخ بين ضفاف هذه البحيرة الداخلية إلى خط اتحاد، وأن تصالح الشظايا المقطَّعة من الذاكرة المشتركة، وذلك عبر توحيد التعددية وتنوع الهويات باتجاه نوع من التكامل، وهذا هو بالتمام ما تسميه اللغة الفرنسية فسيفساء!

إن هذه المسألة لا تتعلق بالدول فحسب، ولا حتى بالعلاقات الدولية بالمعنى الواسع للكلمة؛ إنها مطروحة في جميع الضواحي والأحياء الشعبية في المدن الأوروبية الكبرى وفي عدد من المدن الصغرى كذلك. وهي تطرح بحدة شروط تعايش متعدد الهويات وبسرعات متغيرة، قابلة للتجميع بقدر ما هي قابلة للتمايز والاعتراف بها في فرادتها. وليس من المفيد هنا الصراخ ضد فزاعة الجماعاتية، أو ضد فرض أنموذج يُنسب بسخاء كبير إلى الأنغلوساكسون. فالأشكال الحالية للتعايش بين الجماعات وحركة تنقّل الأفراد بين هذه الفئات تتطلب استعادة الإبداع البشري والمؤسساتي، أي تتطلب **اجتهادًا** حقيقيًا في العلمانية وفي تكوين نماذج جديدة، أخلاقية وسياسية، وكذلك حضرية وثقافية. ويبدو هذا، بالتأكيد، صعب التحقيق من دون تجاوز، والسمو حرفيًا، ليس عن الهذيان العنصري فحسب، لرهاب اليهودية ورهاب الإسلام من النوع الذي مررنا به هنا، لكن كذلك عن القوميات المتشنجة والحصرية، واستيهامات النقاء الثقافي والاجتماعي، باختصار، عن الحماقات التي هي في العالم موَّزعة أحسن توزيع بين الضفتين التوأمين للبحر الذي يفصلهما ويجمعهما. كان آلان جوكس قد أكد منذ أعوام مضت أن البحر المتوسط كان، خلال التاريخ، محل عبور من جهة إلى جهة أخرى للشعوب والثقافات وفي جميع الاتجاهات. كان بعض الشعوب يقطن

على الشواطئ مدة طويلة، وكان بعضهم الآخر يأتي من أماكن أخرى وفي عصور مختلفة، بشكل سلمي أحيانًا، وفي أغلب الأحيان عبر الغزو والعنف، وذلك على مدى آلاف الأعوام. وأدت حركة التجوال هذه في مجال البحر المتوسط إلى سيل من التحولات الحضارية، إلى أنواع من التآزر، إلى عمليات تبادل وترابط، في السراء والضراء لتاريخ لا يمكن اختزاله بحتمية تلك المواجهات ماقبل التاريخية، حيث نرى التقاليد القديمة الأكثر كاريكاتورية موضوعة في خدمة المصالح الأكثر شمولًا وهي، في معظمها، لم تحدث بعد، لكن تبقى كتابتها مطلوبة.

الفصل الثاني عشر

معجم الجهل الإسلاموفوبي

في خلفية هذه النظرة الإجمالية، نرى أن من الملائم من دون شك إعطاء الأهمية لعدد من الخرافات والأساطير التي تملأ عالم الغباء الإسلاموفوبي: تصورات وأفكار مسبقة، اختلاقات وتخمينات. ونرى أن من المهم إجراء جرد لها والعمل على تفكيكها، لأن في غياب الحصانة التي تتمتع بها الخطابات الإسلاموفوبية، يمكننا قول أي شيء، والحال أن كثيرًا من المتفذلكين الجاهلين المتحذلقين، والخبراء الذين نصّبوا أنفسهم والمحتالين الصرف لا يخجل في الواقع من القيام بذلك، مستعرضًا معرفة زائفة كليًا، ومتلاعبًا بكلمات ومفاهيم لا يعرف أبدًا معناها. وكلما كان جهل هؤلاء بالنصوص أكبر، كانت مقاربتهم حرفية، وليست هذه أقل المفارقات وزنًا. وتجهل مقارباتهم بالتأكيد كل شيء يخص الحقائق الدنيوية التي يعيشها الأفراد داخل المجتمعات، وهي تركز على أصناف أيديولوجية وأحكام قيمية سلبية تستند هي نفسها إلى بديهيات نصية مزعومة.

- الجهاد

إن مفهوم **الجهاد** الذي أخذ منه صحافيون عدة تسمية «الجهاديين»، يُترجم بشكل عام بالحرب المقدسة. ويعتبر كثيرون أن هذا المفهوم يحوي إشارة ضمنية إلى حرب ملزمة ضد غير المسلمين من أجل هدايتهم بالقوة أو من أجل القضاء عليهم. لنترك جانبًا الاستعمال الاستعاري للكلمة التي هي مثل كلمة «الحملة الصليبية» بالفرنسية، يمكن تطبيقها على كل نضال من أجل قضية محقة، من دون استنتاج محتوى أيديولوجي أو ديني من هذا النهج. وحتى حرفيًا، يبقى **الجهاد** جهدًا في سبيل الله، أكان جهدًا داخليًا أم خارجيًا، فرديًا أم جماعيًا، كما يوحي بذلك معناه الجذري (في العربية، الجذر ج - هـ - د يعني مفهوم الكد)، والكلمة بحد ذاتها ليس لها بتاتًا أي دلالة **قبليًا** عسكرية أو عنفية، مثل الكلمة الفرنسية «تعبئة أو استنهاض». ونستطيع تمامًا الحديث عن **جهاد** سلمي.

من جهة أخرى، يضع القانون والتشريع الإسلاميان شروطًا محددة لإعلان **الجهاد**، أو لتوصيف حرب ما بـ **الجهاد**، وتدعو جميعها إلى الالتزام بالصفة الدفاعية للحرب. لا يمكن أن يكون هناك **جهاد** لأهداف عدوانية أو توسعية فحسب، حتى لتوسيع مجال الإسلام. من جهة أخرى، نرى أن من المفيد العودة إلى مفهوم «أهل الكتاب» في القرآن، وهو يعني بذلك اليهود والمسيحيين، ولا يوصى **بالجهاد** ضدهم أساسًا. ويعتبر المسلمون السنّة والشيعة، أن **الجهاد** هو دائمًا للدفاع، وأن **الجهاد** الأكبر هو الجهاد ضد النفس بالذات.

- الشهيد

هذا أيضًا مثال إساءة استعمال المفهوم: الاستعمال كيفما كان، لكلمة «شهيد» التي يستخدمها كثير من وسائل الإعلام الأوروبية والأميركية الشمالية لوصف مرتكبي العمليات الانتحارية. اشتقاقيًا، تعود هذه الكلمة إلى جذر فعل «شَهِدَ»، وكذلك إلى الشهادة، أي الجهر بالعقيدة[1]، وهي الشهادة التي تكفي، مبدئيًا، للتعبير عن الانتماء إلى الإسلام وإلى من جاء به. **فالشهيد** هو إذًا الشخص الذي يشَّكل موته شهادة. لكن ما يظهر في الاستعمال اللغوي، ومنذ زمن طويل، أن كل شخص مقتول أو الذي يموت ميتة عنيفة، بما فيه عبر حادث، هو **شهيد**. إذًا هو التعبير الذي يُعطى لكل ضحية حرب، مدنية أو عسكرية. بالنتيجة، ليس لهذا المفهوم، أساسًا، أي تعالق مع الانتحار أو العمليات الانتحارية. فالذي يفقد حياته في إطار حرب تقليدية هو **شهيد** بقدر من يضحي بنفسه في عملية فدائية، سواء أكانت موجهة ضد أهداف عسكرية، وتستعمل إذًا المقاومة العسكرية الشرعية والمعترف بها في القانون الدولي، أم كانت ضد أهداف مدنية، وهذا ما يجعلها، وفقًا لـ «القانون الإنساني للحرب»، لأن هذا هو اسمها المتناقض، جريمة حرب، خصوصًا بحسب اتفاقات جنيف لعام 1949، فهي بالتالي أعمال إرهابية[2].

---

(1) أي «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله».

(2) إيلان هاليفي: يجد بعض الآراء أن هذا التوصيف الصارم لهذا التمييز غير مقبول، إما لأنهم يريدون وضع حدود للمقاومة، وإما لأنهم يرغبون في تشريع الإرهاب. لكن هذا التمييز المطابق لروح القانون الحديث ووضعه يبقى الأقل سوءًا، مع التشديد على أنه غير كامل وإشكالي لأنه يضفي شرعية على الحرب التي يضع لها حدودًا ويريد فرض قواعد ومقاييس لها.

على كل حال، ترفض غالبية السلطات الدينية المسلمة في العالم أجمع[3]، وبعضها يدين إدانة قاطعة، باسم الإسلام، «العمليات الانتحارية» مع أنها تدعي أنها تحصل باسم الإسلام، مع موافقة أقلية دينية.

أما في ما بقي، فإن روح التضحية وتمجيد الموت البطولي في خدمة الحق ليسا أبدًا حكرًا على المسلمين: «لتمت روحي (لأمُت) مع الفيليستيين!»، صرخ البطل شمشوم حين هدَّ معبد داغون فوق رأسه ورأس أعدائه، في عملية انتحارية مقدسة. من جهة أخرى، يتذكر الطلاب الفرنسيون في جيلي، التضحية العظيمة للمراهق بارا (le petit Bara) الذي كان صوت الجمهورية ومات تحت ضربات العدو الشوان[4]، ذاك الذي كان يُطلب منه أن يصرخ «عاش الملك»، فما كان منه إلا أن نادى «عاشت الجمهورية». وقد حوّل روبسبيير هذا العمل البطولي إلى ملحمة في البرلمان، على الرغم من الشكوك التي أبداها المؤرخون حول صحة هذا الحادث، حيث صنع أندريه غريتري منه أوبرا، **تمجيد الشاب بارا**، وخلّده النحات دافيد، وصنع له دافيد دانجيه تمثالًا في معرض عام 1839.

لم يكن الكاميكاز اليابانيون مسلمين، لكننا نعتبر أن روح التضحية في «معسكرنا» أهل للإعجاب دومًا، فهي تعبّر عن حب أبطالنا لجماعتهم، وعن كرمهم وغيريتهم وإنكارهم لذواتهم، في حين أن التضحية حين تحصل في المعسكر المعادي، هي تعبير عن التعصب وفقدان الإنسانية، والكره الأعمى والوحشية. ورأينا هذا التصوير مطبقًا بالفعل على العدو السوفياتي، في أفلام هوليوود خلال الحرب الباردة. إذًا، ليس علينا أن نتعجب حين نرى ما يُنسب إلى التقليد والثقافة العربية والإسلامية من احتقار للحياة وعبادة الموت، وهي من المكونات الكلاسيكية للفاشية: إنه خطاب الحرب الكلاسيكي، لكن ليس من الضروري أن يخدع أي منا، ولا المراجع التي تدّعي العلمية كذلك، والتي تستقرئ التمييز

---

(3) يدخل بعض الناس تمايزات وفقًا للأوضاع، خصوصًا في ما يخص النضال ضد الاحتلال الخارجي.

(4) الذي كان مدعومًا، ويجب ألا ننسى ذلك، من المهاجرين وأصحاب التيجان الذين اتحدوا ضد الثورة. [الشوان (Chouans) كلمة فرنسية مشتقة من أسماء قديمة للبومة، وهي أُطلقت على الملكيين من معارضي الجمهورية بعد الثورة الفرنسية الذين قاموا بثورة ضدها في مناطق ريفية عدة من فرنسا]. (المحرر)

الذي مارسه الإسلام في القرون الوسطى بين **دار الإسلام** و**دار الحرب**، أي ما بقي من العالم. وليس علينا أن ننسى، على سبيل المثال، أن مسيحية القرون الوسطى، كانت قد اعتبرت أن مصير الكفار هو طبيعيًا الإبادة، وحتى في أثناء حصار القدس، في عام 1099، وحين كان القائد الصليبي يؤكد أن بعض المحاصرين كان مع ذلك من المسيحيين (مع أنهم يونانيون أرثوذكس)، كان يتلقى أمرًا بتطبيق طريقة أموري[5] في مدينة ألبي، وهي الطريقة التي مارسها في بيزييه بعد قرن من ذلك الوقت: «أقتلوهم جميعًا، الله سيتعرف إلى قومه!» وكان الاستعباد والاستعمار، الإبادة الجماعية والتمييز العنصري محط تبرير عند مختلف الكنائس المسيحية في أزمنة وأمكنة مختلفة. وحتى اليوم، يوجد عدد من تيارات اليمين المتطرف الأوروبي التي تدّعي المسيحية، من دون أن تحاول تجميل ذلك. أما اليهودي الأرثوذكس، فإنه يبارك الله كل صباح لأنه خلقه «لا عبدًا، ولا غير يهودي، ولا امرأة»[6]. وفي الديانات الكبرى كلها، نجد استشهادات كثيرة تقول الشيء وعكسه، الأفضل والأسوأ، ونستطيع دومًا إثبات كل شيء عبر النصوص.

- الاجتهاد

الاجتهاد هو السعي في التفكير وتفسير النص. هذا وجرى «إغلاق» باب **الاجتهاد** المعروف، وكذلك تجديد تفسير القانون الذي ذكرناه سابقًا، ما يفسر جمود القانون وصلابته، وكذا الفكر والممارسة في الإسلام، ويُستعمل هذا من دون اعتدال. وفي ثنايا هذا المنع الذي لم يُلغَ رسميًا قط، وهو للحقيقة مريح جدًا لرجال الدين المحافظين الذين اعتبروا أن التفسير حكر عليهم، حدثت مع ذلك محاولات تطوير مهمة في فهم النصوص والقانون خلال القرون، وظهر مقياس مهم للتجديد مع تعدد المدارس والأخويات. وفي الحقيقة، تمثّل المدارس

---

(5) أرنو أموري أو أرنو أمالريك، كان رئيس الأساقفة في ناربون، وكان موكلاً، بوصفه مندوب البابوية، بقمع هرطقة المانويين في أثناء الحرب الصليبية في ألبي، وقد أدلى بهذه الجملة الشهيرة، خلال حصار بيزييه في عام 1209 - وهي تُنسب أحيانًا إلى سيمون دو مونفور.

(6) تقول الصلاة «تبارك الرب، سيد العالم الذي لم يجعلني غير يهودي، تبارك الرب، سيد العالم الذي لم يجعلني عبدًا، تبارك الرب، سيد العالم الذي لم يجعلني امرأة»، أما النساء فيقولْن: «الذي جعلني وفقًا لإرادته».

الدينية السياسية للتيارات الإسلامية المعاصرة، ابتداءً من الإخوان المسلمين حتى «السلفيين» المغاربة هذا القدر من مظاهر هذا التجديد الديني الممنوع، كما يزعم بعض الآراء. هنا أيضًا يناقض التمسك بالنص المشاهدة في الواقع، بما في ذلك الممارسة الخطابية والمعرفية.

- الشريعة

إن الرجوع المستمر إلى **الشريعة**، وتعني حرفيًا الحالة السوية الموصى بها، وهي تضعف أمام التشريع الإسلامي، هو كذلك وفي أغلب الأحيان حجة لتفسير متعسف، حيث إن عدم وجود ترجمة للمفهوم يشوِّهه وتسمح عدم شفافيته بالتصورات الأكثر تطرفًا. هكذا، تختلط ممارسات غريبة عن النص القرآني، وسابقة له، مثل ختان الإناث، وتلتبس مع التشريع القرآني. وتختلف الشريعة، على كل حال، من بلد إلى آخر، ومن منطقة إلى أخرى، ومن مدرسة دينية إلى مدرسة أخرى. إذًا هناك أشكال عدة من **الشريعة**، وتصبح التسمية العامة هكذا بطبيعة الحال مضلِّلة. كما أن الفهم الضيق للكلمة يسجن **الشريعة في الحدود** - العقوبات المحددة - خصوصًا العقوبات الجسدية التي هي ليست إلا جزءًا من التشريع.

- الحجاب

في فصل القوالب النمطية، يجب وضع التصورات عن وضع النساء في المجتمعات الإسلامية. كنا قد تكلمنا سابقًا عن **الحجاب** أو **المنديل**، لكن العالم الإسلامي، يعرف كذلك العباءة (التشادور)، الأكثر إلزامًا، **والحايك** الذي يغطي الوجه، وحتى **البوركا** الأفغانية التي تغطي الجسم من القدمين إلى الرأس. وليس من المهم أبدًا (عند الغربيين) أن يكون المتمسكون بهذه الضرورات أو خيارات اللباس، يرون في الميل إلى كشف النساء وعرضها كأدوات جنسية ما يشكل مسًا بكرامتهن. ما يهم هو أن الإسلام كما هو لا يُطالب بشيء من ذلك. هنا، راح التجديد عند السلطات الدينية يتراجع، نحو ما قبل تاريخ الإسلام، أي **الجاهلية**، ذلك الزمن حيث لم يكن العرب، مثلهم مثل الصينيين أو الهنود، يتورعون عن قتل البنات عند ولادتهن.

من جهة أخرى، نرى أن وضع النساء العملي في مجتمعات أخرى حول البحر المتوسط - في إسبانيا والجنوب الإيطالي واليونان وجزيرة كريت، وحتى في كورسيكا - وعلى الرغم من أنها مجتمعات مسيحية، لم يكن مختلفًا إطلاقًا، وحتى عشية الثورة الصناعية ومن بعدها، عن وضع النساء في العالم الإسلامي في المتوسط. وفي الحقيقة، من المهم الإشارة إلى أن في بلدان مثل نيجيريا، لم تؤدِ أسلمة جزء مهم من اليوروبا، وهُم كانوا في غالبيتهم وثنيين حتى العصر الحديث، إلى تراجع ملحوظ للوضع والسلطة الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تقليديًا في يد النساء. ومن الملائم، في الواقع، قبل اتهام الإسلام، دراسة وضع النساء في المجتمعات قبل الإسلام[7]، حيث نرى أن الإسلام حمل تقدمًا ملحوظًا، ومحررًا قياسًا بحالة المجتمع السابقة. لكن هذا لا يعني بالتأكيد أنه يرد على المتطلبات والحاجات العصرية، لكن يجب وضع النصوص في اتساق مع الممارسة وتجاوز القراءات السطحية للمواقف والسلوك[8].

- عدم التسامح

يجب أيضًا التعاطي بنظرة نسبية مع ذلك التأكيد الذي يتردد دومًا، والقائل إن الإسلام مرادف لعدم التسامح وقمع الأقليات الدينية والإثنية. لنتذكر أننا

(7) إيلان هاليفي: في أعقاب اتفاقات أوسلو، وحين قررت 18 امرأة فلسطينية كن قد تحررن من السجون الإسرائيلية أن يعملن كمجموعة من أجل وضع المرأة في المؤسسات السياسية الفلسطينية، أصبح موضوع وضع المرأة لفترة من الزمن محط اهتمام خاص في وسائل الإعلام الفلسطينية. وخلال برنامج «بمواجهة الصحافة» الذي كان يُسجَّل مع الجمهور، وبمواجهة نسويات تحديثيات كلاسيكيات، يعجلن باتهام «التقاليد»، حيث تدرك الأذن الشعبية الفلسطينية أن ذلك هو هجوم مقنَّع على الدين، دافع الشيخ سلامة عن الفكرة القائلة إن مشكلة عدم المساواة الفعلية للنساء في المجتمع ليست من الإسلام، وإن الإسلام هو عامل للتحرر، لكن استمرار التمييز الجنسي لدى المسلمين كان سائدًا في المجتمع ما قبل الإسلامي. [لعل المقصود هو الشيخ الدكتور يوسف جمعة سلامة الذي عينه الرئيس الفلسطيني محمود عباس شيخًا للأزهر وعميد المعاهد الأزهرية في فلسطين بدرجة وزير]. (المحرر)

(8) إيلان هاليفي: أعطى باحث جزائري مثلاً، خلال نقاش حول الجزائر داخل لجنة المتوسط في مؤتمر الاشتراكية الدولية، في طنجة، في عام 1997، عن وضع الشابات من الطبقة الوسطى المدينية أو البرجوازية الصغيرة في الريف، اللواتي يواظبن على زيارة المساجد في حاراتهن كي يهربن من السجن العائلي، ولأن ذلك هو المكان الوحيد الذي يُتاح لهن فيه مقابلة الشبان!

انتظرنا سبعة عشر قرنًا بعد مجمع نيقية لنرى، في عام 2013، وصول بابا (في الفاتيكان) من أصول غير أوروبية، في حين أن من الخليفة العباسي أبو العباس عبد الله المأمون، العربي - الفارسي، في القرن الثالث للهجرة، حتى صلاح الدين، الكردي، ومن السلاطنة والأمراء البربر حتى الأتراك السلجوقيين، وحتى العثمانيين والمغول، من دون أن نذكر إيران الصفويين واعتناقها مذهب الشيعة، عرف العالم الإسلامي حركة تنقّل إثنية، وانفتاحًا على جميع شعوب الإمبراطورية لم نعرف لها مثيلًا في التاريخ إلا في الفترة الهيلينية في عصر الإسكندر الكبير.

في ما يتعلق بعلاقة الإسلام بالديانات الأخرى، يجب علينا التمييز بين فئتين نظريتين من غير المسلمين. من جهة، هناك الذين اعترف بهم القرآن «أهل كتاب»، أي المسيحيين واليهود، والذين يجب أن نضيف إليهم «الصابئة» الذين نعرّفهم بشكل عام بوصفهم أتباع زرادشت وماني[9]؛ وهناك من جهة أخرى، الوثنيون، أكانوا إحيائيين أم هندوسًا، الذين كانوا عرضة لعدم تسامح مطلق وكانوا يؤخذون كعبيد. ومن المؤكد أننا في ممارسات المجتمعات وتعدد الأوضاع، رأينا كذلك النقيض: أمثلة عن التعايش السلمي بين المسلمين والإحيائيين وحوادث ملاحقة لبعض أهل الكتاب أو لبعضهم الآخر. لكن التسامح المميَّز الذي تمتع به اليهود والمسيحيون، في التاريخ، على الأقل في المركز العربي والسنّي في العالم الإسلامي، كان مبنيًا على دعامتين: دينية ومادية؛ فلئن كانت اليهودية التي تطالب بأسبقية الوحي، لا تعترف بأي تقليد سابق لها، فإن المسيحية ترتكز على ديانة إسرائيل القديمة، المسماة العهد القديم، التي سبقتها، لكنها ترفض الإسلام الذي تلاها، وترفض أن يمتاز الإسلام، وهو الدين الأخير، موروث الديانتين السابقتين له. هكذا، وفي الإسناد الإسلامي لتراتبية الوحي، يُعتبر أهل الكتاب متلقين رسائل التبشير بالإسلام، ولا يمكن الشك في إيمانهم من دون المس بأركان الإسلام بالذات. وهذا التسامح مدوّن في معادلة مادية واضحة جدًا. فلأن المسلمين هم رجال أحرار، أي لم يكونوا ملزمين بدفع الضريبة، ولأن أهل الكتاب، في بداية

---

(9) كان لهم الحق في ممارسة طقوسهم، وكانوا محميين كذلك. وكان **أهل الذمة** خاضعين لضريبة خاصة، **الجزية**، في مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية، أي بمعنى آخر منعهم من التسلح.

الإسلام، كانوا مالكين المدن والتجارة الكبيرة في الشرق الأوسط، هكذا كان من مصلحة الدولة الإسلامية ضريبيًا إبقاء أهل الكتاب مخلصين لدينهم الذي كان يؤمِّن للدولة عوائد متينة.

من جهة أخرى، من البارز أن القانون الإسلامي الذي كان يُطبَّق أو يتكيف مع الأوضاع الخاصة بأشكال مختلفة، كان يمنح الوضع نفسه للمسيحيين واليهود، ولم يكن هؤلاء الأخيرون يومًا خاضعين لتشريع يميزهم من الآخرين. ويعتبر برنارد لويس أن أهل الكتاب كانوا في الدولة الإسلامية الكلاسيكية مواطنين من الدرجة الثانية، لكنه يعترف بأن المواطن من الدرجة الثانية هو مع ذلك مواطن، وهذا ما لم تكن عليه حال العبد المسيحي نفسه في الدولة المسيحية تحت الحكم القديم، فما بالك حال اليهودي.

- **الحرية**

في فصل الحرية والحريات كذلك، يجب الاعتراف بأن الإسلام ليس أكثر أو أقل محاربة للحرية بطبيعته من التقاليد الدينية الأخرى، وبأن في داخله، مثل جميع التقاليد الأخرى، تيارات متعارضة، بعضها متساهل نوعًا ما وبعضها الآخر متشدد إلى حد ما، وهذا مرادف لما شكَّلته المدارس الحاخامية من **تشدد** (مثال الحاخام شماي) ورحمة (مثال الحاخام هيلل)، أو لما يمثله في السياق المسيحي كقطبين، الفرانسيسكان والجانسينية، أو كذلك، اعتمادًا على أمثلة معاصرة تمامًا، مثال جماعة عمل الله[10] (Opus Dei) في مقابل لاهوت التحرير، أو الرهبان العمال والأب بيار في مقابل الأسقف لوفافر وأصدقائه في الجبهة الوطنية (حزب لوبان).

- **العنف**

من بين الأفكار السائدة في رهاب الإسلام، يجب وضع المزج المتكرر، في الخطاب «الغربي»، بين الإسلام والعنف، في مكانه الصحيح. هنا أيضًا، هناك

(10) Opus Dei جمعية أسسها في عام 1928 الكاهن الكاثوليكي الروماني الإسباني خوزيه ماريا إسكريفا، وتعتبر أن مهمتها نشر فكرة أن العمل والأوضاع العادية هي الموائمة للقاء الله وخدمة الغير، وللمساهمة في تحسين المجتمع. (المترجمة)

النصوص والممارسة؛ فعلى الرغم من الملائكية وحب الله وحب الغير التي تغطي صفحات كاملة في التعاليم المسيحية، فإن الدول التي كانت تقول إنها مسيحية، هي بالذات التي كانت مسؤولة عن أكبر أعمال العنف في التاريخ، على الأقل كميًا. وفي مجال النصوص، من جهة أخرى، فإن إله العهد القديم بالذات، وهو الذي سمّاه الأنبياء «إله الجيوش»[11]، هو الذي يقود الحروب وثورات القصر، وجروح مصر والحوادث اللافتة للنزوات السماوية، وهو الذي ينظم غرق جيوش فرعون في معجزة البحر الأحمر[12]، كما أنه يتدخل، بعناية إلهية وعجائبية، في أعمال الانتقام الشخصية الأكثر حقارة والأحقاد الأكثر صلابة.

في الإجمال، يتشارك الإسلام مع الديانتين الأخريين من أهل الكتاب بالتعصب الملهم، وبنزعة القتل والموت من أجل الخير، ومجد الرب. ويبدو أن السعي للقضاء على «محور الشر» هو العلامة الخاصة لديانة التوحيد، مع أن هذه المقولة تبقى بحد ذاتها إشكالية[13]. ولنقارن ذلك بالقول المأثور للبيغمي (Pygmées) في إيتوري (Ituri)[14] الذي يقول إن في كل صراع، ليس المخطئ من يبدأه، بل المخطئ من لا يريد أن ينهيه!

---

(11) إيلان هاليفي: هو من جهة أخرى إله «غيور»، وهو الذي يعيد إبراز أخطاء الآباء حتى الجيل السابع!

(12) إيلان هاليفي: يترك النص، مع ذلك، متنفسًا للتعاطف مع الضحايا، لأن الإله يثور حين يأخذ العبريون بالغناء أمام هذا الغرق الجماعي، ويزجرهم: «نتاج يدّي يغرقون وأنتم تغنون!».

(13) إيلان هاليفي: يشعياهو ليبوفيتش، العلامة والمنشق الإسرائيلي، كان معتادًا قول إننا لا نستطيع تأكيد علاقة الأديان السماوية الثلاثة مع القدس، لأن الوحي نزل على إسرائيل في مصر وعلى إسماعيل في الجزيرة العربية. والديانة الوحيدة التي وُلدت في القدس هي المسيحية، لكن من الصعب علينا توصيفها بالتوحيدية! يضيف الأستاذ القديم بمكر. وفي الحقيقة يبدو الثالوث المقدس، والطبيعة المزدوجة الإلهية والإنسانية للمسيح، ابن الله، والحبل بلا دنس، وقيامة المسيح ...إلخ. مثل الكثير من مظاهر التشبيه والتجسيم، أي مظاهر وثنية، في نظر الديانتين اليهودية والإسلامية، وهما تعتبران، بحكم تعريفها، أن الالهي يبدأ حيث يتوقف البشري.

(14) البيغمي من الناحية الأنثروبولوجية هم الأفراد الذين لا يزيد طول قامة الذكر البالغ فيهم على 130 سم، والمرأة البالغة على 121 سم. فهم بالمصطلح الشعبي الأقزام. وإدارة إيتوري الموقتة Ituri Interim Administration هي كيان موقت يدير منطقة إيتوري في جمهورية الكونغو الديمقراطية. وأسست في عام 2003. (المحرر)

- الإرهاب

في هذه المرحلة من العرض، نستطيع كذلك طرح السؤال الآتي: هل هناك علاقة خاصة بين الإسلام والإرهاب؟ إذا ما التزمنا بالتعريف المقترح للإرهاب، حرفيًا، وفي هذه الحالة تقنية الحرب التي تنص على اتخاذ المدنيين[15] أهدافًا لعمليات عسكرية ولغايات سياسية، فإن الجواب هو بالتأكيد سلبي؛ فالإرهاب، كوسيلة ضغط، إخضاع أو زعزعة سياسية، وإذا ما قام به أفراد أو جماعات منظمة أو دول، لم يبدأ مع المسلمين. والأكيد أن الجزائريين كانوا قد لجأوا إليه في نضالهم من أجل التحرير الوطني، لكن المستعمرين الفرنسيين في تنظيم الجيش السري (OAS) قاموا بذلك أيضًا؛ وحتى الشيوعيون الفيتناميون لم يتورعوا عن اللجوء إلى الإرهاب. وفي الهند، قام القوميون الهندوس بأعمال إرهاب على مجال واسع ضد المسلمين. وفي القرن التاسع عشر، في أوروبا، تخصص الفوضويون والاشتراكيون - الثوريون والاستقلاليون في الأمم الناشئة على أنقاض الإمبراطوريات المتعددة القومية البائدة: النمساوية - الهنغارية والعثمانية، تخصص هؤلاء بالاغتيال السياسي (نتذكر الأرشيدوق دو سارايیفو الذي وسم مقتله بداية الحرب العالمية الأولى)، في حين أن البلقان كانت، في عصرنا، ومنذ تفكيك الفدرالية اليوغسلافية، مسرحًا لأعمال إرهاب واسعة. حتى حزب العمال الكردستاني (PKK) الذي يدعي الماركسية لا الإسلام، ارتكب عددًا من العمليات التي تدخل في خانة الإرهاب.

هنا يجب علينا التذكير بحادثتين مؤثرتين، بل مؤلمتين، في تاريخ الإرهاب في الشرق الأوسط في العصر الحديث: وضعت الاستخبارات الإسرائيلية قنبلتين في كانون الأول/ ديسمبر 1950 في بغداد، واحدة في المركز الثقافي الأميركي، والثانية في الكنيس اليهودي لإقناع يهود العراق بأنهم مهدَّدون[16]؛ وهناك

(15) «سكان غير مقاتلين»، وفقًا لرسالة اتفاقات جنيف.

(16) إن هذه الحوادث معروفة ومعترَف بها في إسرائيل: اعترف وزيران إسرائيليان من حزب العمال شلومو هيلل وموردخاي بن بورا، وكلاهما من أصول عراقية هاجرا إلى الأرض المقدسة قبل إنشاء دولة إسرائيل، في مذكراتهما، بالمشاركة في هاتين العمليتين من أجل تشجيع الهجرة الكثيفة ليهود العراق.

العمليات الأخرى في مصر التي قامت بها شبكة من اليهود المصريين الذين كانوا عملاء للاستخبارات العسكرية الإسرائيلية، في عام 1954، ضد أهداف مدنية إنكليزية وأميركية، حتى يظن الغربيون أن هناك شبكة إرهابية عاملة في مصر، وكان الهدف ثني الولايات المتحدة وبريطانيا عن توقيع معاهدة تعاون مع جمال عبد الناصر الذي كان قد قام بانقلاب ضد الملكية وتولى السلطة للتو، ومن أجل دفع عبد الناصر إلى الارتماء في أيدي السوفيات، حيث تحافظ إسرائيل بشكل حصري على تحالفها مع أميركا[17].

مع ذلك، فإن الاغتيال السياسي، حتى ولو اكتسى صفة إجرامية - هو، قبل كل شيء، إعدام خارج المحاكمة، وهو إذًا عمل مضاد للقانون - لا عمل إرهابي بالمعنى المحدد للكلمة. وهذا التمييز ليس من دون أهمية، بما أن تاريخ الدول الإسلامية - وليس الإسلام بالذات - كان مليئًا بالاغتيالات السياسية، أولًا بسبب طبيعة الانقسام السياسي بين السنّة والشيعة، لكن أيضًا لأن التنافس بين الممالك كان يرتكز على مواجهات دينية أو شعائرية، لكنها كانت تنتهي بشكل دائم تقريبًا بضرورة، أو محاولة القضاء على الإمام المزيَّف، الغاصب، ليحل محله أمير المؤمنين الشرعي.

في ظل زعيق اليمين واليسار المصاب برهاب الإسلام، يمكننا اليوم أن نقول ونكتب، في أوروبا والولايات المتحدة، أي شيء وأي فظاعة مبالغ فيها تحط من قدر الإسلام، والقرآن وشخص النبي محمد. وتبدو مسألة الكاريكاتور في الدانمارك[18] في شأن هذا الموضوع والصدى الخاص الذي لقيته في فرنسا

---

(17) موشيه شاريت، رئيس وزراء إسرائيل في ذلك الحين، أعطى تقريرًا راعبًا في شأن ذلك في مذكراته، التي نشرها ابنه في نهاية السبعينيات على الرغم من الضغوط لثنيه عن ذلك. وقد تُرجم بعض المقاطع الأكثر دلالة من هذه الشهادة التي لا جدال فيها في: Ilan Halevi, *Israël, de la terreur au massacre d'état* (Paris: Papyrus, 1984).

(18) في قضية الرسوم الكاريكاتورية المضادة للإسلام، وهي التي نُشرت في عام 2006 في جريدة دانماركية لليمين المتطرف، وكررت نشرها الصحافة الأوروبية باسم حرية التعبير، كانت ردات الفعل مختلفة في العالم الإسلامي؛ ففي فلسطين، قامت ألوية شهداء الأقصى بتوقيع منشوراتها باسم «الجناح المسلح لفتح» وأطلقت تهديدات معادية للأجانب. لكن حركة «حماس» لم تهدد بإلحاق الأذى بالأوروبيين الموجودين على الأرض الفلسطينية، فضلًا عن الذين هم خارجها.

ذات دلالة، لأن كل واحد يجد مراده في هذا التحليق الشعري للكراهية التي تم التفكير فيها جيدًا. ويتعلق هذا بطيف يبدأ من اليمين المتطرف الذي يعلن عداءه للعرب حتى السياديين، ومن جريدة *Echos de France* **(أصداء فرنسا)** إلى أشباه الجمهوريين العلمانيين المتطرفين الذين يعتبرون أن خط الجبهة يمر داخل إدارات الحركة ضد العنصرية ومن أجل الصداقة بين الشعوب (MRAP) وجمعية فرض الضريبة على المعاملات المالية من أجل العمل المواطني (Attac)، ومن الجبهة الوطنية إلى **شارلي إيبدو**، ومن بينوا السادس عشر - الحبر الأعظم الصدامي والمقاتل، الذي كان مرشحًا لدور مدّاح الحرب الصليبية الجديدة - إلى الأستاذ في الضواحي، ابن النازي الذي أصبح صهيونيًا متطرفًا وعنصريًا وديماغوجيًا، ومهدَّدًا من موقع إنترنت غامض يدّعي الإسلاموية، وبصفته تلك يترقى إلى موضع شهيد حرية شتم الإسلام والمسلمين. هل يمكننا تقديم مرآة لهؤلاء الذين يظنون أنهم بذلك يدافعون عن الحرية، حيث يرون في المرآة ماذا يشبهون ومن يشبهون؟

المراجع

Books

Albert, Alain. *The Crossing*. New York: G. Braziller, 1964.

______. *La Traversée*. Roman traduit de l'américain par Georges Levin. Paris: Editions du Seuil, 1965.

Benbassa, Esther. *La Souffrance comme identité*. Paris: Fayard, 2007.

Césaire, Aimé. *Discours sur le colonialism*. Collection le colonialisme; 1. Paris: Présence africaine, 1955.

Charb. *Lettre aux escrocs de l'islamophobie qui font le jeu des racists*. Paris: Les Échappés, 2015.

Dreyfus, Michel. *L'Antisémitisme à gauche: Histoire d'un paradoxe, de 1830 à nos jours*. Postface inédite de l'auteur. La Découverte-poche. Essais. Paris: La Découverte, 2011.

Gresh, Alain. *De quoi la Palestine est-elle le nom?*. Brignon; Paris: LLL, les liens qui libèrent, 2010.

_________. *L'Islam, la République et le monde*. Paris: Fayard, 2014.

Haddon, Alfred C. *History of Anthropology*. Thinker's Library; no. 42. London: Watts and Co., [1934].

Halevi, Ilan. *Face à la guerre: Lettre de Ramallah*. L'Actuel. Arles: Sindbad-Actes Sud, 2003.

_________. *Israël, de la terreur au massacre d'état*. Paris: Papyrus, 1984.

Klemperer, Victor. *LTI, la langue du IIIe Reich: Carnets d'un philologue*. Trad. de l'allemand et annoté par Élisabeth Guillot; présenté par Sonia Combe et Alain Brossat. Agora; 202. Nouv. éd. Paris: Pocket, 2003.

Lapierre, Nicole. *Causes communes: Des Juifs et des Noirs*. Un ordre d'idées. Paris: Stock, 2011.

Levi, Primo. *Si c'est un home*. Trad. de l'italien par Martine Schruoffeneger. Paris: Julliard, [1947]; 1987.

Mearsheimer, John J. et Stephen M. Walt. *Le Lobby pro-israélien et la politique étrangère américaine*. Traduit de l'anglais par Nicolas Guilhot [et al.]. La Découverte-poche. Essais. Paris: La Découverte, 2008.

Mervin, Sabrina. *Histoire de l'islam: Fondements et doctrines*. Champs. Université: Histoire. Paris: Flammarion, 2000.

Monteil, Vincent. *L'Islam noir*. Esprit. Frontière ouverte. 2ème éd., revue, corr. et augm. Paris: Éd. du Seuil, 1971.

Sartre, Jean-Paul. *Réflexions sur la question juive*. Collection Folio-essais; 10. Paris: Gallimard, 1985.

Taguieff, Pierre-André. *Les «Protocoles des sages de Sion»: Faux et usages d'un faux*. 2ème éd. rev., corr. et augm. Paris: Berg international; Fayard, 2004.

Periodicals

Halevi, Ilan. «*L'Agression israélienne contre le Liban*.» *Revue d'études palestiniennes*. No. 101 (Automne 2006).

________. «Hypocrisies: Du bon usage du révisionnisme.» *Revue d'études palestiniennes*. No. 26 (Hiver 1988), pp. 3-12.

Peuples méditérranéens. No. 19 (Avril-juin 1982).

Rodinson, Maxime. «Ethnisme et racism.» *Pluriel*. No. 3 (1975).

Thion, Serge. «Du bon et du mauvais usage du révisionnisme (réponse à Ilan Halévi).» *Annales d'histoire révisionniste*. No. 4 (1988).

Documents

Bouteldja, Houria. «Racisme (s) et philosémitisme d'Etat ou comment politiser l'antiracisme en France?.» Parti des indigènes de la République, 11/3/2015. At: http://indigenes-republique.fr/racisme-s-et-philosemitisme-detat-ou-comment-politiser-lantiracisme-en-france-3/.

««Non au philosémitisme d'État»: Un slogan indigne!.» MRAP, 7/4/2015. At: www.mrap.fr.

فهرس عام

-ب-

-ت-

-خ-

-ز-

-س-

-ش-

-ص-

-ض-

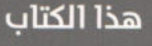
-ط-

-غ-

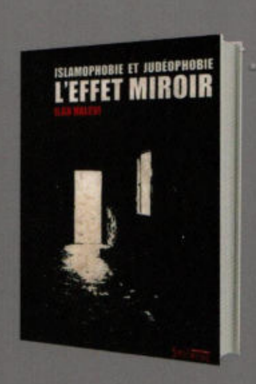
-ف-

-ق-

-ك-



هذا الكتاب



في أوضاع تتصف بتفجّر العنصريات، يدعو هذا الكتاب إلى إعادة التفكير في رهاب الإسلام (الإسلاموفوبيا) من زاوية القرابة بينه وبين رهاب اليهودية. لأننا لا نستطيع مقاربة رهاب الإسلام الحالي مقاربة حقيقية، من دون المرور، ولو مواربة، بمعاداة السامية، فهو (أي رهاب الإسلام) ليس سوى انمساخ متأخر لها وتحوّل وراثي استعماري.

رهاب الإسلام موجود بشكل كلي في الخطاب العام وفي سياسات الدول، وقد اشتد بسبب الجرائم الفعلية التي اقترفتها باسم الإسلام حفنة من الجماعات والمنظمات المرتبطة ارتباطًا مباشرًا أو غير مباشر بدول تحركها.

يبدو رهاب الإسلام، مثله مثل توأمه، رهاب اليهودية، الشكل الجديد للوباء العنصري ولانتعاش فيروس اجتماعي معروفة خطورته، وهو ينشط حاليًا على مستوى عالمي.

وليس الأمر هنا وضع معادلة بين وضعية المسلمين اليوم ووضعية اليهود في الأمس، وإنما مراقبة نوعين من العنصرية يشتغلان بطريقة متماثلة على الرغم من اختلافاتهما، وهما يهددان العيش المشترك في فرنسا.

المؤلف

إيلان هاليفي وُلد في مدينة ليون الفرنسية عام 1943. انتقل إلى فلسطين المحتلة في عام 1967، حيث التزم بالقضية الفلسطينية وناضل في صفوف مجموعات اليسار الثوري المعادي للصهيونية والداعم للكفاح الفلسطيني المسلح، قبل أن يصبح لاحقًا أحد نائبي وزير الخارجية في السلطة الوطنية الفلسطينية وسفيرًا لفلسطين في عدة دول. صدر له: *Question juive, la tribu, la loi, l'espace* (1981) (المسألة اليهودية، القبيلة، الشريعة، المجال)؛ *Sous Israël, la Palestine* (1984) (تحت إسرائيل: فلسطين)؛ *Face à la guerre: Lettre de Ramallah* (2003) (في مواجهة الحرب: رسالة من رام الله)؛ *Allers- retours* (2005) (ذهابات وإيابات).

المترجمة

سناء الصاروط أستاذة جامعية ومترجمة لبنانية، من ترجماتها: مع مي غصوب لألكسندرا كولونتاي "العائلة ومسألة البغاء"- و فيلهلم رايش " الثورة الجنسية" عن نفس الدار.
كما تخصصت في ترجمة مقالات لعدد من الصحف والمجلات العربية والفرنسية.

- فلسفة وفكر
- اقتصاد وتنمية
- لسانيات
- آداب وفنون
- تاريخ
- علم اجتماع وأنثروبولوجيا
- أديان ودراسات إسلامية
- علوم سياسية وعلاقات دولية

السعر: 10 دولارات

ISBN 978-614-445-146-5





المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies